



**T.C.
YALOVA ÜNİVERSİTESİ
LİSANSÜSTÜ EĞİTİM ENSTİTÜSÜ**

**TEMEL İSLAM BİLİMLERİ ANABİLİM
İSLAM ARAŞTIRMALARI (ARAPÇA)**

**VASFU'L-KUR'ANİ'L-KERİMİ Lİ-ESALİBİ'L-KEZİBİ VE'T-TEKZİBİ
İNDE ĞAYRİ'L-MU'MİNİN (DİRASE DELALİYYE TAHLİLİYYE
BELAĞİYYE)**

DOKTORA TEZİ

ZAKARIA DOUDACH

DANIŞMAN: DOÇ. DR. SOUMIA HAJ NAYEF

**YALOVA
MART 2023**



T.C.
YALOVA ÜNİVERSİTESİ
LİSANSÜSTÜ EĞİTİM ENSTİTÜSÜ

TEMEL İSLAM BİLİMLERİ ANABİLİM
İSLAM ARAŞTIRMALARI (ARAPÇA)

VASFU'L-KUR'ANİ'L-KERİMİ Lİ-ESALİBİ'L-KEZİBİ VE'T-TEKZİBİ İNDE
ĞAYRİ'L-MU'MİNİN (DİRASE DELALİYYE TAHLİLİYYE BELAĞİYYE)

DOKTORA TEZİ

ZAKARIA DOUDACH
167325901

DANIŞMAN: DOÇ. DR. SOUMIA HAJ NAYEF

YALOVA
MART 2023

ETİK BEYAN

Yalova Üniversitesi Lisansüstü Eğitim Enstitüsü Tez/Proje Yazım Kuralları'na uygun olarak hazırladığım “**VASFU’L-KUR’ANI’L-KERİMİ Lİ-ESALİBİ’L-KEZİBİ VE’T-TEKZİBİ İNDE ĞAYRİ’L-MU’MİNİN (DİRASE DELALİYYE TAHLİLİYYE BELAĞİYYE)**” başlıklı bu tez çalışmasında; tez içinde sunduğum verileri, bilgileri ve dokümanları akademik ve etik kurallar çerçevesinde elde ettiğimi, tüm bilgi, belge, değerlendirme ve sonuçları bilimsel etik ve ahlak kurallarına uygun olarak sunduğumu, tez çalışmasında yararlandığım eserlerin tümüne uygun atıfta bulunarak kaynak gösterdiğimi, kullanılan verilerde herhangi bir değişiklik yapmadığımı, bu tezde sunduğum çalışmanın özgün olduğunu bildirir, aksinin tespiti halinde doğabilecek her türlü hukuki sorumluluğu kabul ettiğimi taahhüt ve beyan ederim.

İmza

Zakaria DOUDACH

ÖNSÖZ

أتقدم بجزيل الشكر والامتنان لكل الطاقم الأكاديمي لجامعة يالوفا عموماً وللجنة المشرفة على بحثي خاصة، وأوجه شكري الخالص للدكتور أحمد فدائي، والدكتور محمد طاهر يران، لما قدماه لي من نصائح وتوجيه أكاديمي، وزيادة في الوعي العلمي، وشكري الخاص أوجهه للمشرفة التي بذلت واجتهدت ولم تبخل عليّ بوقت ولا بجهد، وكانت دائمة المتابعة لي في أوقات العمل الرسمية وخارجها، فلم تتوان أبداً في البذل، والعطاء العلمي والمعنوي فلها الشكر الذي لا تحصره كلمات ولا تبذله أبيات، فالفضل لله ثم لها في هذا العمل.

لا أنسى عائلتي الكبيرة أُمِّي وأبي، من ربياني صغيراً، وعلماني حب الدين، رب أوزعني أن أشكر نعمتك عليّ وعلى والدي، وأن أعمل صالحاً ترضاه، وجاز عني كل خير من حملتني ووضعتني كُرْها، واحتملتني ثلاثين شهراً جنيناً ورضيعاً، ثم ثلاثين سنة، وإلى والدي من ربياني على مكارم الأخلاق وحب الدين فلهما الفضل والشكر.

وعائلتي الكريمة التي احتملت انشغالي عنهم وضيق وقتي، وصبروا معي واحتملوا فلهم الشكر الجزيل (زوجتي وأولادي) وكما لا أنسى أصدقائي؛ يزيد، وفيق ومحمود ومحمد عليّ وكل من ساعدني وشجعني في مشواري الدراسي هذا من عرب وأتراك.

مارس - 2023

زكرياء دوداش

İÇİNDEKİLER

ETİK BEYAN.....	iii
ÖNSÖZ	iv
İÇİNDEKİLER	v
ÖZET.....	xiii
ABSTRACT.....	xiv
xv	ملخص الرسالة
16	1. المقدمة:
17	1.1 - دوافع البحث وأهميته:
18	2.1. أهداف البحث:
20	3.1. منهج الدراسة:
21	4.1. حدود الدراسة:
21	5.1. الدراسات السابقة:
21	6.1. فروض ومصطلحات الدراسة:
22	7.1. ثمار البحث:
22	8.1. صعوبات البحث:
23	9.1. خطة البحث:
25	2. التمهيد:
25	1.2. القرآن والبلاغة:
26	2.2. مدخل لأهمية اللغة عند العرب:
27	3.2. خطورة الكذب:
29	4.2. ضرورة معرفة السياق لفهم معنى الكلام ومقصده:
30	5.2. تعريف الكذب:
33	6.2. حكم الكذب:
34	7.2. الكذب عند علماء النفس:

36	8.2. الخطاب في ضوء المفهوم القرآني:
43	3. الفصل الأول: المعاني
44	1.3 المبحث الأول: الخبر الابتدائي
44	1.1.3.1. المطلب 1: الخبر الابتدائي الاسمي
44	1.1.1.3.1. أشرف قوم نوح
48	2.1.1.3.2. قريش
50	3.1.1.3.3. أصحاب الكهف
52	2.1.3.2. المطلب 2: الخبر الطلبي
52	1.2.1.3.1. الملاء من ثمود قوم صالح
55	3.1.3.3. المطلب 3: خبر إنكاري
55	1.3.1.3.1. فرعون وقومه
58	2.3.1.3.2. - منافق بن أبي بن سلول
60	2.3. المبحث الثاني: التوكيد بحرف الجر الزائد
60	1.2.3.1. المشركين
63	3.3. المبحث الثالث: القسم
64	1.3.3.1. المطلب 1: قسم ب بما
64	1.1.3.3.1. إبليس
66	2.3.3.2. المطلب 2: قسم مضمرة
66	1.2.3.3.1. إبليس
69	2.2.3.3.2. المشركين
72	4.3. المبحث الرابع: أسلوب الطلب
72	1.4.3.1. المنافقون
75	5.3. المبحث الخامس: الأمر
75	1.5.3.1. المطلب 1: الأمر
76	1.1.5.3.1. بني إسرائيل

77	2.1.5.3. فرعون
79	3.1.5.3. الحوارين/ اليهود بني اسرائيل
81	2.5.3. المطلب 2: الأمر باسم الفعل
81	1.2.5.3. المنافقون.....
84	3.5.3. المطلب 3: أمر باللام
84	1.3.5.3. الكافرون من قريش
87	6.3. المبحث السادس: النهي
87	1.6.3. المطلب 1: النهي ب لا
87	1.1.6.3. المنافقون/ رأس النفاق
89	2.6.3. المطلب 2: النهي بلا بعد الأمر
89	1.2.6.3. منافق
91	7.3. المبحث السابع: النفي
91	1.7.3. المطلب 1: النفي ب ما
91	1.1.7.3. أشراف قوم نوح.....
94	2.7.3. المطلب 2: نفي بلا
94	1.2.7.3. الكافرون
97	3.7.3. المطلب 3: النفي ب(ليس).....
97	1.3.7.3. قريش
98	8.3. المبحث الثامن: الاستفهام
99	1.8.3. المطلب 1: استفهام تضليلي
99	1.1.8.3. الشيطان
101	2.8.3. المطلب 2: استفهام للنفي
101	1.2.8.3. منافقو المدينة
102	2.2.8.3. المنافقون.....
104	3.2.8.3. بني إسرائيل مع نبيهم " شمويل "

107	3.8.3.3. المطلب 3: استفهام انكاري.....
108	1.3.8.3. بني إسرائيل/ الفتى من قوم موسى.....
110	2.3.8.3. المشركون.....
111	3.3.8.3. ثمود ثوم صالح.....
114	4.8.3. المطلب 4: استفهام للاستهزاء والتّهكُّم.....
114	1.4.8.3. المنافقون.....
118	2.4.8.3. الكفار – المستعجلون.....
120	5.8.3. المطلب 5: استفهام تعجبي.....
120	1.5.8.3. إخوة يوسف.....
122	6.8.3. المطلب 6: استفهام بغرض التقرير والتحقيق.....
122	1.6.8.3. المنافقون.....
125	7.8.3. المطلب 7: استفهام تقريرى.....
125	1.7.8.3. فرعون.....
128	2.7.8.3. فرعون.....
129	3.7.8.3. فرعون.....
133	8.8.3. المطلب 8: استفهام معلق.....
133	1.8.8.3. بني إسرائيل.....
135	9.3. المبحث التاسع: التمني.....
135	1.9.3. المطلب 1: التمني ب لو.....
135	1.1.9.3. المشركون يوم القيامة.....
138	2.1.9.3. مشركو قريش.....
140	2.9.3. المطلب 2: تمن ب لولا.....
140	1.2.9.3. اليهود والمشركين.....
143	3.9.3. المطلب 3: تمن ب ليت.....
143	1.3.9.3. المنافق الحاسد.....

145.....	10.3. المبحث العاشر: الترجي
145.....	1.10.3. المشركون
146.....	11.3. المبحث الحادي عشر: اسم الفعل
147.....	1.11.3. ملأ ثمود
149.....	2.11.3. المشرك
151.....	12.3. المبحث الثاني عشر: النعت للتعميم
151.....	1.12.3. إخوة يوسف
155.....	2.12.3. اليهود والنصارى
157.....	13.3. المبحث الثالث عشر: النداء
157.....	1.13.3. فرعون
160.....	14.3. المبحث الرابع عشر: التنبيه
161.....	1.14.3. المشركين يوم القيامة
163.....	15.3. المبحث الخامس عشر: القصر
163.....	1.15.3. المطلب 1: قصر الصفة على الموصوف
164.....	1.1.15.3. المشركون
168.....	2.1.15.3. المشركون يوم القيامة
171.....	2.15.3. المطلب 2: قصر الموصوف على الصفة
171.....	1.2.15.3. المشركون
174.....	3.15.3. المطلب 3: القصر ب إنما
174.....	1.3.15.3. اليهود والمشركين
177.....	16.3. المبحث السادس عشر: الحصر بالنفي
177.....	1.16.3. المطلب 1: حصر بالنفي بإن وإلا
177.....	1.1.16.3. الرجل من بني إسرائيل من قوم موسى
180.....	2.16.3. المطلب 2: حصر بالنفي بما وإلا
180.....	1.2.16.3. الملاء من قوم نوح

183	3.16.3. المطلب 3: حصر بالنفي بما وغير
183	1.3.16.3. فرعون
185	4.16.3. المطلب 4: حصر بالنفي بـل وإلا
185	1.4.16.3. أهل الكفر عموماً
187	5.16.3. المطلب 5: حصر بالنفي وإلا
187	1.5.16.3. اليهود والنصارى
189	6.16.3. المطلب 6: حصر بتعريف الخبر
189	1.6.16.3. النصارى
191	7.16.3. المطلب 7: حصر بالنفي بلا وإلا
191	1.7.16.3. فرعون
194	2.7.16.3. المشركين
196	17.3. المبحث السابع عشر: التقديم والتأخير
196	1.17.3. مشركي قوم إبراهيم
198	2.17.3. الكفار
200	18.3. المبحث الثامن عشر: الإضراب
201	1.18.3. المطلب 1: الإضراب الإبطالي
201	1.1.18.3. اليهود
203	2.1.18.3. الكفار يوم القيامة
205	2.18.3. المطلب 2: الإضراب الانتقالي
205	1.2.18.3. المشركون والكفار
208	19.3. المبحث التاسع عشر: البناء للمجهول
208	1.19.3. بني إسرائيل لنبيهم شمويل
211	2.19.3. منافق أو مرتد
213	20.3. المبحث العشرون: الحذف
213	1.20.3. قریش

215.....	2.20.3. القرين من الجن
217.....	21.3. المبحث الواحد العشرون: الحض
217.....	1.21.3. قريش
220.....	22.3. المبحث الثاني والعشرون: الشرط
221.....	1.22.3. المطلب 1: الشرط ب إن
221.....	1.1.22.3. قريش
224.....	2.1.22.3. الكافر صاحب الجنة أو جنس الكافر عموماً
227.....	2.22.3. المطلب 2: الشرط ب إذا
227.....	1.2.22.3. المنافقون
229.....	23.3. المبحث الثالث والعشرون: الإطنا ب
230.....	1.23.3. فرعون
233.....	4. الفصل الثاني: البيان
233.....	1.4. المطلب 01: التشبيه
234.....	1.1.4. مشركو قريش واليهود
237.....	2.1.4. كفار قريش
239.....	3.1.4. المشركون
241.....	2.4. المطلب 02: التمثيل
241.....	1.2.4. مشركي قريش
244.....	3.4. المطلب 3: الاستعارة
244.....	1.3.4. اليهود
247.....	5. الفصل الثالث: البديع
248.....	1.5. المطلب 1: طباق الإيجاب
248.....	1.1.5. المنافقين
251.....	2.5. المطلب 2: طباق السلب
251.....	1.2.5. المشركين

254	 2.2.5. المنافقين
257	 3.5. المطلب 3: التورية
258	 1.3.5. اليهود
262	 6. الخاتمة والنتائج
268	 المصادر
EKLER	 276
ÖZGEÇMİŞ	 302

**VASFU'L-KUR'ANİ'L-KERİMİ Lİ-ESALİBİ'L-KEZİBİ VE'T-TEKZİBİ
İNDE ĞAYRİ'L-MU'MİNİN
(DİRASE DELALİYYE TAHLİLİYYE BELAĞİYYE)**

ÖZET

Bu araştırmada semavi dinleri, peygamberleri, resulleri ve tevhid inancını inkâr eden veya haklarında yalan ithamlarda bulunan ğayri müminleri (kafirler, müşrikler, münafıklar, yahudiler ve hiristiyanlar) ihtiva eden ayetler cemedildikten sonra her taifenin tartışmalarda, inkâr etmede ve yalan söylemede izlemiş oldukları birbirinden ayıran veya birbirine benzer üslubları, metotları ve özellikleri belâği sanatlarla- meânî, beyân ve bedîi- beyan edilecektir.

Ayetleri seçip tasnif ettikten sonra ayetler, esas olarak vahyin iniş sebebine, o ayetlerin indiği olaya, kimin hakkında indiğine ve neden nazil olduklarına göre tahlil edilecektir. Böylelikle ayetlerin meramı ve maksadı anlaşılmış olacaktır. İnsanların zahirini ve bâtınını bize haber vermesi ve bize yalancı ve inkârcı olan kimsenin durumunu tasvir etmesi Kur'an-Kerimin mucizesinin özelliklerinden biridir.

Bu araştırmayla ğayri müminlerin yalan söylemede ve inkâr etmelerinde izlemiş oldukları metotlar ve üsluplar bariz bir şekilde ortaya çıkmaktadır. Gayri müminlerin izlemiş oldukları metotlar ve üslupların en önemlileri; fazlaca yemin etmek, hakkın kuvvetini zayıflatmak için batıl ithamlarda bulunmak, ayet ve mucizelerle desteklenmiş ayan beyan olan hakkın ve delilin karşısında alay etmektir. Bu mucizeler ve delillerin karşısında aciz kalan kafirler yalana, uydurmaya ve şüphe düşürmeye sığınmaktadır. (Kur'an-I Kerim'in İnanmayanların Yalan Söyleme Ve İnkâr Etme Yöntemlerini Açıklaması)

Anahtar Kelimeler: Kur'an-ı Kerim, Yalan Söyleme Yolları, İnkâr, Kâfirler.

THE HOLY QUR'AN'S DESCRIPTION OF THE METHODS OF LYING AND DISCREDITING OF NON-BELIEVERS (RHETORICAL ANALYSIS SEMANTIC STUDY)

ABSTRACT

In this study, we identify the Qur'anic verses that contained a discourse for non-believers (infidels, polytheists, Jews, Christians, and hypocrites) in which there is a lie, or a denial of the message and the heavenly law, or an accusation of the messengers and prophets, and in response to the divine call through the times to monotheism and following the truth. After defining the verses, we explain the methods used in that discourse, and we analyze them linguistically within the framework of the three arts of rhetoric - meanings, eloquence, and al-Badi' - extracting from them the methods and the characteristics that distinguished some peoples from others in their method of lying, arguing, and discrediting the messengers. At the same time, we show the common points in which they are similar as if they inherited them and communicated them. After identifying and selecting the verses, and then classifying them, we analyze them based on the context that mainly focuses on the reason for revelation, the context in which those verses were revealed, and for whom and why they were revealed. In the context, the meaning and intent of that discourse become clear to us, and one of the features of the Qur'anic miracle is that it informs us of the outward and inward appearance of the people, thus depicting to us the condition of the outward liar, while at the same time conveying to us his psyche and his secret that is not hidden from God. Thus, the picture reaches us clearly, exposed, and undoubtedly. After this study, it became clear to us a method and a path that the infidels follow in their lying and discrediting. The most important of which is the frequent swearing and throwing the truth with false accusations to weaken its position, and the use of sarcasm, and mockery in the face of irrefutable argument and clear truth, supported by miracles, verses, and challenges. When disbelief is unable to cope with those miracles, they resort to lies, fabrication, slander, and skepticism.

Keywords: The Holy Qur'an, Methods of Lying, Discrediting, Non-believers.

وصف القرآن الكريم لأساليب الكذب والتكذيب عند غير المؤمنين (دراسة دلالية تحليلية بلاغية)

ملخص الرسالة

يدخل موضوع هذه الدراسة ضمن أبحاث علم البلاغة، وتم اختياره لأهمية علم البلاغة بين سائر علوم العربية، وخصص البحث في القرآن الكريم وهو خير كتاب أنزل وخير كتاب يدرس، فكان القرآن الكريم موضع العناية الكبرى من الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ومن سلف الأمة وخلفها. نقوم في هذه الدراسة بتحديد الآيات القرآنية التي احتوت خطابا لغير المؤمنين (كفاراً ومشركين ويهوداً ونصارى ومنافقين) خطاباً به كذب، أو تكذيب للرسالة والشرعية السماوية، أو اتهاماً للرسول والأنبياء، ورداً للدعوة الربانية عبر الأزمنة للتوحيد واتباع الحق. بعد تحديد الآيات نبين الأساليب المنتهجة في ذلك الخطاب ونقوم بتحليلها لغوياً في إطار فنون البلاغة الثلاثة - المعاني والبيان والبديع - مستخرجين منها الأساليب، والمميزات التي ميزت بعض الأقوام عن بعضهم في طريقتهم في الكذب والجدال وفي تكذيب الرسل، وبالوقت نفسه نبين النقاط المشتركة التي تشابهوا فيها وكأنهم توارثوها وتواصوا بها.

وبتحديد الآيات وانتخابها، ثم تصنيفها نقوم بتحليلها انطلاقاً من السياق الذي يتركز أساساً على سبب النزول لتلك الآيات وفيمن نزلت، وبه يتضح لنا المعنى والقصد المراد من ذلك الخطاب، فكان البحث في ثلاثة فصول كل فصل يُعنى بفن من فنون البلاغة الثلاثة، درسنا من خلالها أساليب المكذبين الكاذبين، وطرقهم في الخطاب والتلفيق، ومن أهم ميزات الإعجاز القرآني أنه يخبرنا بظاهر وباطن القوم فيصور لنا حال الكاذب المكذب الخارجي وفي نفس الوقت ينقل لنا نفسيته وسره الذي لا يخفى على الله، فتصلنا الصورة واضحة مكشوفة لا غبار عليها ولا شك فيها.

فمن خلال هذه الدراسة اتضح لنا مناهج ومسارات يسلكها الكفار في تكذيبهم وكذبهم؛ مثل كثرة القسم ورمي الحق بالتهمة الباطلة لإضعاف موقفه، واستخدام التهكم والسخرية والاستهزاء في مواجهة الحجة الداحضة والحق المبين، المدعوم بالمعجزات والآيات والتحديات، فلما عجز الكفار عن مجازة تلك المعجزات لجأوا للكذب، والتلفيق، والطعن، والتشكيك.

كلمات مفتاحية: القرآن الكريم، أساليب الكذب، التكذيب، غير المؤمنين.

1. المقدمة:

كثيرا ما درسنا في اللغة عموما والبلاغة خصوصا أن الكلام ينقسم إلى قسمين إما خبري، وإما إنشائي ومعياري ذلك التقسيم والفصل فيه هو احتمال وقابلية الأول للتصديق والتكذيب وعدمه - أي الاحتمال - في القسم الثاني وهذا تقسيم عقلي محض ومنطقي مجرد.

لكننا عند الوقوف أمام القرآن الكريم وآياته فلا بد لنا من أن ننطلق من منطلق ديني وعقدي "شرعي" في التعامل مع هذا الكتاب العظيم الذي هو مصدر تشريعنا، وهو الذي يخبرنا بما كان وما سيكون وعن حال البشر قديما وقادما، وحالهم ظاهرا وباطنا يصف لنا سرهم ونجواهم وهمسهم وجهرهم، ظاهريهم وباطنيهم، خفيهم وبينهم.

وبالتالي فإن القرآن الكريم منزّه عن الكذب، صادق لا يحتمل التكذيب لأنه كلام الله المعجز المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم.

لأننا عندما نقف أمام القرآن الكريم والنص القرآني فالأمر مختلف تماما عن المعايير البشرية، فهو الكلام الصادق الصحيح المنزه عن الخطأ والنقصان، وهذا من منطلق عقدي، إيماني وما دمنا نصدق بالدين العظيم والقرآن الحكيم ولا مجال للشك من أنه كلام الله المنزل على رسوله ﷺ والذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى فلا بد من البحث عن ضوابط وقواعد تتوافق وحرمة وطبيعة النص القرآني، ولابد من استخدام مصطلحات أكثر حساسية ومراعاة للقدسية القرآنية كالقول: حرف معنى، عوض حرف زائد، وما لم يسمّ فاعله عوض فعل مبني للمجهول.

بعد هذا المدخل سنتطرق إلى موضوعنا المقصود بالدراسة، فمن التقديم السابق سنجد - بعيدا عن ذلك الحكم اللغوي العقلي - أن كل الكلام في القرآن الكريم ليس له وجه سوى التصديق، لكن نجد في نفس الوقت استثناءات فيه؛ وهي النقول التي نخبرنا عن كذب وافتراء غير المؤمنين وأساليب تلاعبهم وخطابهم لله ونبيه وعباده الصالحين، وهو كذلك من القرآن الكريم لكنه نقل لكلام الكفار أو المنافقين أو المشركين أو الملحدين، في القرآن الكريم وكلامهم وأساليبهم المتشابه الذي نجد مذكورا في القرآن الكريم ومكررا مصداقا لقوله تعالى: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾¹

وكذلك قوله تعالى: ﴿اتَّوَاصُوا بِهِ﴾² والذي كثيرا ما يكون كذبا بحتا أو نابعا عن الكذب والتكذيب مع اليقين بالخطأ؛ ومن هنا أردنا دراسة أساليب الكفار والكاذبين عموما في كذبهم من خلال تتبع تلك الآيات البينات التي تذكر ذلك وإحصائها وتقسيمها وترتيبها وتبويبها حسب التقسيمات البلاغية المناسبة لها، ودراستها بلاغيا بعد تحليلها دلاليا ولغويا للوصول لمعانيها ومدى تأثيرها على السامع ومنها نحاول تتبع الأساليب التي يتبعها الكاذب في كذبه عموما وتكذبيه للصادق.

فما هي يا ترى تلك القوالب المعتمدة أو التي تتكرر في أساليبه، التي يعتمد عليها الكاذب عموما في مواجهته للحق والصواب وماهي أهم الأساليب المعتمدة عندهم وماهي طرقها وسبلها؟

¹ البقرة 118.

² الذاريات 53.

1.1 - دوافع البحث وأهميته:

الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع عديدة، ومن أهمها وأولها هو شرف البحث في القرآن الكريم، وما أعده الله تعالى من ثوابٍ عظيم لمن خدم كتابه وعلمه وتعلّمه، فالبحث في كتاب الله والاشتغال به وتدبر آياته خير ما يمكن للمرء فعله وأمره كله خير في الدارين.

كذلك من الدوافع التي جعلتنا نهتم بهذا الموضوع هو البحث عن أسلوب الكافرين أو الكاذبين عموماً أي [كافر منافق ملحد مشرك...] لمعرفة أساليبهم واتقاء شرهم، ولكشف ألاعيبهم وخدعهم وتفادي الانسياق خلفها بحسن نية وحسن ظنٍ بهم كما حدث ويحدث على مر التاريخ.

وعلى سنة سيدنا الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان، واستئناسا بمنهجه الذي نستقيه من حديثه المشهور البخاري:

" حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى ... عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَائِيِّ، أَنَّهُ سَمِعَ حَذِيفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، يَقُولُ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ: وَمَا دَخْنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيٍ، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: «تَلَزِمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ» قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنَّ تَعْصَى بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ".³

فنحاول الوصول لقالب أو قوالب معينة يعتمد عليها الكاذب عموماً في مواجهته للحق والصواب وماهي أهم الأساليب المعتمدة عندهم وأهم طرقها وسبلها؟

كذلك ما يحصل عليه الباحث في كتاب الله من شرف، وما يعود عليه من نفع وخير عظيم في التحصيل العلمي ومن حيث تقوية الأسلوب واستقامة اللسان، كيف لا وهو يدرس أبلغ كتاب إذا رأيناه من باب اللغة وأعظم كتاب من حيث احتواؤه على الإعجاز، ولما فيه من أسرار ونكت بليغة يظن لها العالم بعلم البلاغة والمطلع على فصوص الفصاحة، تزيده فهما وعلمًا وتفكرًا في آيات الله وكتابه المكتوب والمفتوح.

ومن المؤكد أن السبب في اختيار هذا الموضوع بالذات هو حب الوصول للحقيقة، بعد النظر في كل الجوانب والبحث في السياق وهذا ما سيتحقق عندما ندرس التحليل الدلالي البلاغي في أساليب الخطاب وتحليل الخطاب القرآني، فالدلالة لا تدرس اللغة بوصفها مجموعة من القوالب والبنى التركيبية المجردة فحسب، بل تدرسها بوصفها كلاماً، وخطاباً، دون اجتثاث من السياق، وبكونها إدراكاً وشعوراً، وكونها كائناً حياً، رموزاً وإشارات، وأثراً وأفعالاً، وسلوكاً، فهي في أبسط تعريفاتها دراسة اللغة في الاستعمال.

³ الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار النشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترميم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة: الأولى، 1422هـ/ (51/9).

2.1. أهداف البحث:

من أهداف الموضوع التي نصبوا إليها الوصول للعلاقة الكامنة بين اللفظ والمعنى فكما يشير إليه البلاغيون من أن أهمية العلاقة بين اللفظ والمعنى في الدرس البلاغي تعتبر محور البلاغة والنواة التي يلتف حولها كل أبوابها وهي المركز الذي يحوم حوله باقي الكواكب في مجرة البلاغة فيجد المتتبع لأبواب البلاغة وعلومها أن تلك المسألة لها أهمية بالغة في غالبية الأبواب البلاغية (اللفظ والمعنى)، ففي علم المعاني نجد موضوعات الخير والإنشاء، والفصل والوصل، والحذف والذكر، والإيجاز والإطناب والمساواة كلها قائمة على العلاقة بين الألفاظ والمعاني، وطبيعة العلاقة بينهما، ومثل ذلك نجده في علم البيان؛ فالعلاقة بين الحقيقة والمجاز، والمشبه والمشبّه به، والمستعار والمستعار منه، والمعنى الحقيقي والمعنى الكنائي، إنّما قوامها العلاقة بين اللفظ والمعنى، مع إيراد القرائن التي تشير إلى إرادة هذا المعنى دون ذاك، أما الحديث عن علم البديع فيبدو أكثر وضوحاً إذ قسّم البلاغيون هذا العلم إلى محسنات لفظية ومحسنات معنوية.

كما تكمن أهمية الموضوع "لأنه لغوي" في أهمية الكلام والخطاب عموماً وتأثيره في أمور حساسة ومصيرية ففناة الإرسال مثلها مثل السلاح كلما كانت قوية كان تأثيرها بالغاً وفعالاً.

ونذكر هنا حادثة أبي لهب التي ينسب إليها الكثير من المفسرين سبب نزول سورة المسد، حيث ألزم النبي ﷺ - نبي الرحمة - قومه الحجة حينما سأله عن رأيهم وقولهم فيه، وعن قولهم وردهم لو قال لهم إن عدوا متربصاً بهم بالوادي هل كانوا سيصدقونه فأجابوه أنك أنت الصادق الأمين وأجابوا كذلك بنعم وأنهم سيصدقونه لو قال لهم أن عدواً بالجوار يتربص بهم واقترب بجيوشه...

فكما كانت الحجة قوية ومؤثرة وملزمة - وهنا لانقصد المقارنة أو قياس حجة النبي وتأثيره بغيره طبعاً، لكن جواب وتكذيب أبي لهب لابن أخيه وقوله له تبا لك لطول اليوم لهذا جمعنا، كان لمقولته تلك تأثيرها الكبير، والمخرج الوحيد للكفار والمشركين من مأزقهم وموقفهم المخرج، حيث إنهم لم يجدوا مخرجاً ولا جواباً وقد أجابوه قبل لحظات بأنهم لم يعهدوا عليه كذباً فكيف لهم أن ينكروا ويغيروا قولهم فيه لما أخبرهم برسائله ويبدلوا كلامهم الذي قالوه في نفس الموقف والمجلس فكانوا في دهشة وحيرة وعجز عن إيجاد مخرج لكنّ أبا لهب أخرجهم من حرجهم وموقفهم ذاك بقوله وجوابه وهو من هو؟ عم الرسول ﷺ، وحين يكذبك أقرب القوم إليك، أو من أهلك وعائلتك فهو يعطي فرصة التكذيب لغيره، كأنهم يقولون عمه أعلم به وهو أقرب وأدرى "فإن كان عمه قد كذبه فما حاجتنا لتصديقه!".

ثم كان في جوابه تقليلاً واستهانة بكلام النبي ﷺ، فبعد أن ألزم الناس الحجة وأبتهتهم وأعجزهم عن الإجابة، جاء عمه وقال له كلاماً يحط ويصغر عظم الموقف ويجعله كأنه كلام غريب أو تافه أو غير مهم، ولا حاجة للالتفات والاجتماع حوله وبكلمات منه تسبب في فض الاجتماع وصرف الناس عن أمر نبيهم الكريم ﷺ.

يقول الحافظ ابن كثير: قال البخاري: حدثنا محمد بن سلام... عن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: يا صباحاه! فاجتمعت إليه قريش فقال: رأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني؟ قالوا: نعم، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد، فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟! تباً

لك، فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ﴾⁴ إلى آخر السورة، وفي رواية: فقام ينفض يديه وهو يقول: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعنا؟! فأنزل الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ﴾⁵.

وفي رواية البخاري قال: (حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، قال: حدثني عمرو بن مرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾⁶ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فھر، يا بني عدي... أي ينادي بطون قريش، حتى اجتمعوا فجعل الرجل، إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو هب وقريش، فقال: رأيتمكم لو أخبرتمكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟

قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، هنا تدخل عمه، فقال أبو هب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعنا؟ فنزلت فيه الآية: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ﴾ ما أغنى عنه ماله وما كسبه⁷.⁸ وهذا يدل على أن أبا هب عم النبي كان من أكبر معارضي تلك الدعوة المباركة عم النبي عليه الصلاة والسلام وهو ما ذكره أبو زهرة في كتاب خاتم النبيين ﷺ. فهنا يمكننا الشعور بأهمية هذه اللهجة وهذا الأسلوب الخطابي ومدى تأثيره في قلوب وعقول الناس وكيف يغير رأيهم ومواقفهم بسرعة ويدمر ما بناه غيره بمجرد تلفظه بكلمة لغوية بأسلوب معين فيؤدي تأثيرا يكون أقوى من السلاح في الكثير من الأحيان.

ولنأمن شر الكافرين والكاذبين، وكثيرا ما اقترنت الصفتان - صفة الكفر والكذب - بالشخص الواحد (الحديث الشريف الذي يذكر أن المسلم لا يكذب) فعلى دراسة أساليبهم وطرقهم لأن الخطاب ما هو إلا تعبير عن الأفكار واللغة هي القناة التي تحول الأفكار الصماء إلى كلام مفهوم وله معنى قريب أو مطابق للفكرة المكبوتة في الوجدان أو الدماغ لا تفتأ تنطلق وتتحرر من خلال اللغة وبدراستنا لهذه اللغة وتحليلنا لها يمكننا الوصول إلى شبه قوالب يعتمد عليها الكاذب وقواعد قد تكون غير قطعية لكنها ستتجاوز مجرد التخمين أو الظن وستكون قواعد أقرب إلى قواعد العلوم التجريبية التي تعتمد بالأساس على قاعدة " نفس الأسباب تؤدي إلى نفس النتائج وما دام مصدرنا في هذه الدراسة هي القرآن الكريم والذي به يخبرنا المولى عز وجل عن حال الكافرين والكاذبين وطريقة مقالهم وافتراءهم وحالهم القولي والنفسي وهو ما يدل في غالب الآيات على تكرار تلك المواقف والادعاءات في مختلف الأزمان والفترات.

فالكذب صفة وميزة في الكافرين، وأسلوبهم يتكرر ويعاد بصفة متشابهة تكاد تتطابق ولهذا نجد الآية التي تذكر ذلك في: ﴿نَسَاهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾⁹ ، وقوله تعالى: ﴿أَتَوَصَّوُا بِهِمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾¹⁰

ومثال على ذلك الأسلوب من خلال الآية التالية:

⁴ المسد 1.

⁵ تفسير القرآن الكريم لمحمد أحمد إسماعيل المقدم، الشبكة الإسلامية 1999م/ (203/3).

⁶ الشعراء 214.

⁷ المسد 1-2.

⁸ صحيح البخاري، لعبد الله البخاري/ (111/6).

⁹ البقرة 118.

¹⁰ الذاريات 53.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾¹¹

ففي أسلوب كذبهم تأكيد وتوكيد باللام في: " لئن "، واللام في لنخرجن والتشديد في النون والتوكيد ب أبدأ فالكذاب يؤكد ويؤكد ليثبت صدقه.

3.1. منهج الدراسة:

وقبل الولوج في الدراسة التطبيقية لابد من وضع تعريفات وتقسيمات للأبواب البلاغية (من معاني وبيان وبديع) التي تناسب الموضوع المراد دراسته.

عملنا في هذا البحث أولاً على جمع المادة العلمية، والبحث عن الآيات التي يتوفر فيها تلك الشروط أو تناسب نوع البحث وبالتالي كان علينا الاعتماد على المنهج الإحصائي الاستقرائي الذي نحصى فيه كل الآيات التي تشمل هذا النوع من الخطاب وهذا الأسلوب بالذات، ثم المنهج التحليلي والذي يحلل ويفسر ويفصل المادة العلمية ويمكننا من الوصول إلى جزئياتها الدقيقة وفروقاتها الخفية والذي منه نستخرج مختلف الدلالات اللغوية والبلاغية خاصة، فالمنهج التحليلي الوصفي هو الطاعني على هذا البحث.

كذلك لابد من تتبع الآيات في كل القرآن الكريم وهو أمر ليس بالسهل خصوصاً عند التباس بعض الآيات فكان لزاماً علينا أن نجد مخرجاً من هذا اللبس أو الشك بوضع قواعد مسبقة سنعتمد عليها كأرضية ومنهج وطريق في اعتبار الآية من الموضوع المدروس أو خارجه وتصنيفها من مادة البحث من عدمه.

وبعد ذلك لابد من عدّها واستخراجها عبر التقفي في جميع السور وجميع الآيات؛ آية آية إلى نهاية المصحف الشريف.

ولمعرفة أسلوب ما، أو تحليله تحليلًا صحيحاً لا بد من معرفة سياقه فمعرفة السياق وفهمه نصف فهم الكلام أو القول، ولمعرفة السياق الذي قيل فيه القول ومناسبته لابد من الرجوع إلى أسباب النزول، فبحسب كل موقف تختلف الصيغ وتختلف العبارات وتختلف قنوات التواصل بين المتلقي والمرسل وبحسب تغير المخاطب يتغير الخطاب فمناسبة الكلام مهم جداً في فهم الكلام، هذا ولا يمكننا معرفته إلا بالرجوع إلى أسباب النزول والتي كثيراً ما نجد فيها اختلافاً بين المفسرين والمؤرخين لكننا سنقف على المعتمد في هذا الفن أو الفرع المهم والحساس للوصول إلى الأصول. لأن أسباب النزول مهمة للكثير من الأصول منها مثلاً الفقه فمع أن أسباب النزول تعتبر فرعاً لكن أهميتها بالغة في تعقيد الكثير من العلوم الأصول.

قضية تعدد الروايات في التفاسير وأسباب النزول، واختلاف الاستعمالات اللغوية أحياناً من الأمور المهمة كذلك، فالقضايا الفقهية كما أنها تعتمد على تغير المعاني من لغة إلى لغة ومن قبيلة لأخرى وكما وجدنا أن الفقهاء يعتمدون في بعض أصولهم الفقهية على أصول وقواعد لغوية - المصغر لا يصغر - السهو لا سهو فيه - فلماذا لا نجد سعة في اللغة وقبول القول الآخر كما هو في الفقه، ولا نجد اللغويين يفسحون المجال لوجود القول والقول الآخر في اللغة ويميلون

¹¹ الحشر 11.

إلى الحكم بالخطأ على الكثير من القضايا اللغوية الثابتة تاريخيا في قبائل عربية عدة، حتى وإن لم تكن فصيحة فهذا لا يعني أنها خطأ.

ومن القواعد التي اعتمدها في البحث هو اعتبار الكاذب يكذب حتى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾¹²

4.1. حدود الدراسة:

القرآن الكريم هو طبعاً حدود دراستنا، وما فيه من آيات تظهر لنا أساليب كذب وتكذيب الكافر، لكن منه نتبحر في كل الكتب التي عنت بهذا الكتاب الكريم أولها كتب التفسير البلاغية مثل الكشف للزمخشري والتحرير والتنوير وظلال القرآن حيث وجدنا فيهما ضالتنا وكانا أهم الكتب المعتمد عليها فكم من آية تتبعناها في أكثر التفاسير شهرة وأهمية ولم نجد فيها مبتغانا، ثم كتب أسباب النزول وكذلك كتب التراجم والسير التي تفصل لنا بعض الحوادث جيداً لنعلم حيثيات الحادثة وسبب نزول تلك الآيات، وكتب البلاغة والكتب اللغوية عموماً كلها تخدم دراستنا.

5.1. الدراسات السابقة:

في حدود علمي وما وصلت إليه بعد البحث عن هذا الموضوع، لم أجد دراسة سابقة مفردة مشابهاً لهذا البحث أو عنواناً مطابقاً لهذا العنوان، وهو ما زاد تمسكي به وتمسكي له فهو من جهة صعب لقلة المصادر فيه ولأنه لم يُطرق إليه من قبل، ومن جهة أخرى هو موضوع مغر يجذب الدارس للبحث فيه، ويحثه على إضافة بحث في موضوع مثله تغني الساحة الأكاديمية، فلم يكن هنالك دراسات بالموضوع باستثناء بعض المقالات التي تقارب الموضوع، أو بعض الكتابات التي نجد فيها إشارات لهذا الموضوع دون إفراده أو تخصيصه ببحث كامل.

6.1. فروض ومصطلحات الدراسة:

سنعتمد في دراستنا هذه على كون الكافر الكاذب مستمر في كذبه، أي أنه يبقى يكذب على ربه وعلى عباده حتى يوم الحساب وذلك بالاعتماد على الآية 21 بسورة فصلت: ﴿وَقَالُوا لَجُودُهم لم شهدتم علينا﴾ بعد أن كذبوا على ربهم في الحياة الدنيا كرروا ما عملوه من قبل في يوم حسابهم، وأنهم حتى في وعودهم وادعائهم أنهم سيعملون غير الذي كانوا يعملون أو أنهم نادمون، لكنهم كاذبون في كل ذلك الندم، هذا طبعاً لا يمكن الحكم به جزافاً أو اجتهاداً، لأننا لا نعلم الغيب ولسنا بأنبياء ليوحى إلينا، لكن دليل ذلك موجود في القرآن، فحتى وعودهم تلك هي كذب، وذلك بمصدق قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَأَ هُمْ مَّا كَانُوا يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾¹³

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾¹⁴

¹² المجادلة 18.

¹³ الأنعام 28.

¹⁴ الأنعام 27.

ففي رواية حفص عن عاصم " نكُونُ " بالفتح وهي على المعبة أي الواو التي قبلها واو معبة وأضمرت "أن " المصدرية بعد الواو . ويوجد في قراءة ورش عن نافع " نكُونُ " بالضم وهي على عطف الجملة بما قبلها أي معطوفة على " نرد " كما في تفسير العليم القدير للشوكاني.¹⁵

ومصطلح " غير المؤمنين " كان مناسباً للبحث حتى نخرج به كل أنواع الكاذبين فلو قلنا المسلمين لكان بينهم المنافق الذي يكذب وبذلك سيفوتنا كلامه في الدراسة والكافر والمنافق والمشرک والملحد والمنكر كلهم يندرجون تحت مسمى أعم وهو غير المؤمنين.

7.1. ثمار البحث:

أهمية هذه الدراسة وجدواها هو تجنب كيد الكافرين الكاذبين، وعدم اتباع مكرهم وخبتهم في لحن القول بمعرفة مختلف أساليبهم وأغراضهم فاللغة البشرية هي ترجمة لأفكار وخواطر نفسية في صورة تصل للمرسل إليه عبر قناة تواصلية هي الأسلوب اللغوي وبمعرفتنا لهذه الطرائق والأساليب يمكننا كشف ألاعيبهم وتجنب الانخداع بكلامهم فكما قال الصحابي الجليل¹⁶ الذي كان يسأل عن الحرام مخافة الوقوع فيه.

الوقوف على البراعة في الخطاب وتصوير القرآن لحال الكاذب النفسية والجسدية - لغة الجسد - لما يبينه لنا من ظاهر وباطن. بل تصوير ووصف ما يستمعون به وما يقولونه في أنفسهم وما يتناجون به كما قال تعالى: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾¹⁷

التعود على قوالب لطالما تكررت عبر العصور عند أهل الباطل، فيمكننا ذلك من اكتشاف أهل الباطل في هذا الزمن وكشف تلاعبهم بالكلام وتلييس الحق بالباطل.

فهذه المآسي تتكرر في كل العصور، فيخرج من بين الجماعات والأقوام من لا يجد إلا هذه الاتهامات فيوجهها إلى رؤساء الدعوة والقائمين بأمورها، ونقد أولئك الناس ليس من منطلق النقد العلمي، ولا هم مخلصون في نقدهم لو اعتبرناه نقداً، ولا لتحريمهم للحق وإنما هم يريدون منفعة ذاتية آنية فيخسرون كل شيء في الدنيا والآخرة، بطعنهم بالدين وأهله، فلو رضوا وصبروا وانتظروا وقالوا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ رَسُولَهُ﴾ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رُغْبُونَ ﴿[التوبة: 59] لفازوا وتحقق ما أرادوه لكن هكذا هو حالهم في كل مكان وزمان.¹⁸

8.1. صعوبات البحث:

¹⁵ فتح القدير، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: 1250هـ) الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: 1 - 1414 هـ / (154/2).

¹⁶ حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، يُنْظَرُ ذِكْرُ الْحَدِيثِ فِي ص 2.

¹⁷ الإسراء 47.

¹⁸ ينظر: تفسير الإمام البنا، نظرات في كتاب الله للإمام الشهيد حسن البنا، جمع وتحقيق وتعليق عصام تليمة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، مصر 2002م/ 316.

من المشاكل والصعوبات التي واجهتنا هي قلة المصادر والمراجع وندرتها في هذا الموضوع بالذات، لأنه لم يكتب فيه بهذا الشكل من قبل، أو بهذا الطرح حسب اطلاعي المتواضع، فسنجد صعوبة في تناول الآيات بالصفة الواجبة والطريقة المطلوبة وبالأسلوب اللائق.

وفي الوقت ذاته نجد مشكلة كثرة المصادر العامة التي يمكن الاعتماد عليها والرجوع إليها في هذا البحث من كتب التفاسير على اختلاف أنواعها، وكتب أسباب النزول، إلى كتب البلاغة والأدب، دون أن ننسى كتب إعراب القرآن الكريم، وتشتت المعلومات في هذه الكتب وتبعثرها، فالأمر واسع وشاسع ويصعب تتبع الموضوع في كل هذه المصادر الضخمة والغنية بالتخاريج.

ولم نذكر للكثير من الآيات تخاريج أو تحاليل لخطاب الكفر وكذبهم، عند البحث عن تفسيرها في الكثير من التفاسير المشهورة والمعتمدة وهذا تكرر معنا مع الكثير من الآيات التي لم نجد لها تفسيراً أو توضيحاً يخدم موضوعنا، لهذا كان الاعتماد أحياناً على كتب محددة (التفاسير التي جمعت بين الجانب التحليلي والبلاغي خاصة الكشف للزمخشري والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ظلال القرآن لسيد قطب) لما فيها من بسط للمواضيع البلاغية المطلوبة، وتطرق وتفصيل تحليلي للآيات، ففيها وجدنا المبتغى الذي كنا نبحث عنه.

9.1. خطة البحث:

اعتمدنا في بحثنا هذا المنهج الإحصائي ثم التحليلي، فبعد جمع الآيات التي تنتمي لموضوعنا وحصرها، ثم انتخاب واختيار من كل أسلوب نموذجاً أو أكثر، قمنا بتحليل الآيات مع إعرابها وذكر سبب نزولها أي سياقها لأنه الأهم في فهم موضوعات الآيات ولولا سبب النزول لصعب علينا فهم مناسبة الآيات، وسياق تلك المقالة أو الكذبة، ولم قيلت. واحتوت هذه الدراسة على تمهيد وثلاثة فصول بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة:

كان التمهيد للحديث عن الكذب وتعريفه وضوابطه وما قيل فيه وما هي أهميته وأهميته فهمه ومعرفة معانيه وأغراضه كتوطئة للبحث والدخول إلى الفصول التطبيقية، فقد ارتأينا أن ندمج التعريفات النظرية لأبواب البلاغة مع الفصول التطبيقية وذلك للاختصار والتركيز أكثر على الجانب التطبيقي.

وفي الفصل الأول تناولنا أكبر جزء من البحث ألا وهو المعاني وهو من أهم أبواب البلاغة، وهو ما ناسب أساليب خطاب المكذبين ونوعه، فكان أوسع وأكبر، وأخذ الحيز الأكبر من البحث، فكان في ثلاثة وعشرين مبحثاً، وفي كل مبحث عدة مطالب تزيد وتنقص بحسب الضرورة وطبيعة المبحث، وما ورد من أمثلة بالقرآن الكريم عن ذلك الأسلوب البلاغي أو الطريقة التعبيرية للمكذب أو الكاذب.

الفصل الثاني كان لباب البيان، ولم يكن ثرياً كسابقه وذلك لما يميز خطاب الكافر المكذب الذي يعجز عن استخدام خياله في الافتراء على الدعوة والرسالة، بل نجده متمسكاً بقوالب وتهم متكررة على مختلف الأزمان والأقوام، كذلك احتوى هذا الفصل على مباحث تدرج تحتها عدة مطالب.

الفصل الثالث وكان أقل من سابقه وهو ما خصصناه لباب البديع وهو ما بعد عن منال المكذب/ الكاذب، فأنى لهم تلك الصنعة وهم يهدفون في كلامهم إلى التشويه والإساءة والطعن في الرسل والأنبياء والمؤمنين ويردون دعوة الحق فكانت الصور البديعية قليلة جداً في أساليبهم، فكان هذا الفصل متكوناً من مطالب فقط.

ثم الخاتمة وفيها بيننا أهم النتائج المتوصل إليها وأهم مميزات أساليب الكاذبين عموماً، ومميزات بعض الأقوام أو الفئات من الكفرة كالمناققين واليهود الذين كان لهما القسم والنصيب الأكبر في التميز بطرق متميزة عن غيرهم لما لهم من أغراض خبيثة في الطعن في كل ما هو من الحق أو للحق، المنافق لكونه مرضاً خبيثاً من داخل جسد الأمة وهذا ما يعطيه تميزاً حين يطعن من الداخل، واليهود أو بني إسرائيل لما لهم من تجارب وخبرة في التعامل مع الأنبياء وتمرسهم في الكذب والرد والتشكيك في الدعوة والرسالة الربانية التي تأتيهم بين فترة وأخرى، وتوارثهم للخبث والكيد والتربص والترصد للرسول والأنبياء.

وفي الأخير لا ننسى فضل من تفضل علينا، وكما يقال من لا يشكر للناس لم يشكر لله، فأحمد الله الذي أنعم عليّ بمشرف كمشرفتي، من كانت لي سندا قبل وبعد الإشراف، وموجها ومرغبا في طلب العلم عموماً وفي هذا البحث خصوصاً، فكانت لي داعماً ومرشداً على طول الطريق، بخبرتها ونور علمها من جهة، وبغيرتها العلمية وحرصها على تقديم الأفضل دوماً من جهة أخرى، فلها جزيل الشكر، كما لا أنسى الدكتور أحمد فدائي الذي كان وما زال لنا أبا في العلم والأخلاق، كذلك لا أنسى فضل الدكتور طاهر لما قدمه لي من توجيه وترشيد، خلال هذا المسار التعليمي وطول مدة بحثي.

2. التمهيد:

1.2. القرآن والبلاغة:

فالقرآن الكريم لا يتناهى إليه شعر ولا يضاهيه نثر، وأنى لكلام البشر أن يبلغ كلام الله تعالى.

والبلاغة أهم العلوم العربية وأسمائها، وأهم ما فيها، وما تشتغل فيه وما تدور حول دواليبه هو المعنى أو بالأحرى النظم، أي مطابقة الكلام لمقتضى المقام، أو وضع الألفاظ المناسبة للمعنى المناسب بطريقة حيك مناسبة تؤدي المعنى المنشود والمقصود.

وبالتالي هو متابعة مطابقة النظم للمعنى المقصود، والمجال الخاضع للدراسة هو الكلام المكتوب أو المنطوق، أي أن قصد المتكلم هو أهم ما نركز عليه لنحكم على ذلك الكلام إذا كان بليغا وأدى المعنى المنشود أو لم يفعل، فإن لم نعمل المقصد الذي يرمي إليه المتكلم فكيف نحكم عليه إن كان أدى المعنى أو لم يفعل، ومنها فأهم ما يجعلنا نفهم مقصد كلام المتكلم هو أن نعرف مقصده وهدفه من ذلك الكلام ولا يتأتى ذلك إلا بفهم سياق الكلام وحيثياته وفيمن قيل ولماذا قيل ومتى قيل. ولهذا فالدراسة اهتمت كثيرا بسبب نزول الآية وفيمن نزلت وعلى من قيلت، فمنها فقط يمكننا الحكم أو تحليل الألفاظ هل هي منسوجة بطريقة تؤدي المعنى المطلوب والمناسب للمقصد.

ولأهمية علم البلاغة بين سائر علوم العربية وكما قال أبو هلال العسكري: "إن أحق العلوم بالتعلم، وأولها بالتحفظ - بعد المعرفة بالله جل ثناؤه - علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي به يُعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحق، الهادي إلى سبيل الرشd، المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة... وإن صاحب العربية إذا أخل بطلبه، وفرط في التماسه، فاتته فضيلته، وعلقت به رذيلة فوته، عفى على جميع محاسنه، وعمى على سائر فضائله، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء، ولفظ حسن وآخر قبيح، وشعر نادر وآخر بارد، بان جهله، وظهر نقصه، وإذا أراد أن يصنع

قصيدة أو ينشئ رسالة -وقد فاتته هذا العلم - منج الصفو بالكدر، وخلط الغرر بالغرر".¹⁹

¹⁹ الصناعتين لأبي الهلال العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن مهران العسكري (ت: نحو 395هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: المكتبة العنصرية - بيروت عام النشر: 1419هـ/1-2.

2.2. مدخل لأهمية اللغة عند العرب:

يرى الجاحظ أن العرب عوضوا عن هذه العلوم "الفلسفة والعلم والكتب" بميزتين واضحتين هما: طلاقة اللسان وحضور البديهة، فلساغم ذلق، وبديهتهم حاضرة.²⁰ وهذا ما يلاحظ في الخطاب القرآني حيث نجد أن القرآن الكريم في مواضع مخاطبة العرب يستعمل فيه القصر والحذف والإيجاز، لبديهتهم وسرعة فهمهم للكلام، وفطنتهم لما يراد منهم، وكما ذكر الجاحظ أن بداهة وفصاحة العرب ميزتان واضحتان، ولهذا نجد اختلاف طريقة الخطاب الموجه لهم ولليهود. وللعربية خصالات ساحرة تجعلك وتدعوك بشدة لتسمعها وتستمتع بها "بالاستماع إليها" أكثر من أن تقرأها، وأن تحسها أكثر من أن تحللها.

يقول الزمخشري في تفسيره على شناعة الكذب: "قلت كأنهم اعتقدوا أنهم حين بيتوا صالحا وأهله فجمعوا بين الأمرين ثم قالوا ما شهدنا هلاك أهل صالح، فذكر أحدهما: كانوا صادقين، لأنهم فعلوا البياتين جميعا لا واحدا منهما وفي هذا التصرف دليل قاطع وجازم على قبح الكذب في كل الملل حتى عند الكفرة، وحتى عند الكفرة الذين لا يعرفون الشرع ونواهيه، ولا يخطر ببالهم. ألا ترى أنهم قصدوا ورضوا بقتل نبي الله، ولم يرضوا لأنفسهم بأن يكونوا كاذبين، حتى سوا للصدق في خبرهم حيلة يتفصون²¹ بها عن عار الكذب".²²

فبعد أن طلبوا الآية أنكروها وهم يعلمون مكنم الإعجاز فيها، وكذبوها وهم من طلبوها وانتظروها،²³ ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾²⁴ فإن قتلهم في الظلام فلم يشهدوا هلاكهم، أي لم يروهم في تلك الظلمات، فيتحقق صدقهم بزعمهم، وهو احتيال ساذج وحيلة سطحية ظنوا أنها ستنجيهم من الوقوع في الكذب، ولكنهم يطمئنون أنفسهم بها، ويررون كذبتهم، التي اعترزوها للتخلص من محاسبة أصحاب دم نبي الله صالح وأهله، والتهرب من أولياء دم نبي الله صالح، فمن

²⁰ فجر الإسلام، أحمد أمين، ط10، 1969م، دار الكتاب العربي بيروت لبنان/37.

²¹ أي تخلص، انتقص من الدين أي تخلص منه.

²² الكشف، عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: 538هـ) الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: 3 - 1407هـ / (372/3).

²³ ينظر: لطائف الإشارات، تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: 465هـ) تحقيق: إبراهيم البسيوني

الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر الطبعة: 3 / (41/3).

²⁴ النمل 49.

الغريب والعجيب حرص أمثال هؤلاء على أن يكونوا صادقين! ولكن النفس الإنسانية مليئة بالالتواءات والانحرافات، خاصة حين لا تهدي الإيمان ونوره، النور الذي لو اتبعوه لرسم لهم الطريق المستقيم²⁵. أقصى صور غرابة الكفر فهم من جهة يهزمون بقتل نبي الله الذي ما أمرهم إلا أن يؤمنوا بالله وحده، فكفروا ولم يصدقوه، وفي نفس الوقت يقسمون بالله أن يفعلوا فعلتهم الشنيعة بقتل النبي.

فمن الكوارث التي نواجه اليوم في زمننا المعاصر كارثة الإلحاد، وهو في الحقيقة يقوم أساسا على الكذب والمراوغة بالكلام، وعندما نصدق أن الملحدون يتكلمون بمنطقية وطريقة علمية، ويعتمدون على العلم التجريبي المحض والبرهنة بالتجارب وما وصلت إليه العلوم التجريبية من نتائج، هنا نقع في الفخ ونصطدم ببعض الشبهات المزورة وغير الحقيقية بالأصل، في حين أنهم يعتمدون على الكذب في الأساس كبداية ونهاية، وحينما نعلم ونعرف ذلك الأسلوب في المراوغة بالكلام وإعطاء الكذبة صبغة وطابعا علميا نكشف كل ألاعيبهم ومراوغاتهم لأنهم يضعون فرضيات خاطئة ويوهمون الآخرين أنها مسلمات في حين أنها أصلا ليست مثبتة لا علميا ولا حتى نظريا بل هي محض مغالطات عندما نبنى عليها المعطيات نصل لنتائج خاطئة ونظن أنها صحيحة، وأن هنالك تعارضا في الدين، فيقع العقل في حيرته والمسلم في شك من عقيدته ودينه، وهكذا كان ولا يزال الكذب هو الوسيلة الأخطر في المعاملات والموضوعات العلمية لذلك فتكمن أهمية فهم الكذب وأساليبه في أهمية مواجهة أعداء الدين وطرقهم في الخداع والكذب والتأثير الكلامي على غيرهم.

3.2. خطورة الكذب:

كثيرا ما نجد البلاغيين يقومون بتفسير أو شرح البيت الشعري بطريقة تجعله أكثر وتبين أسرارته فتزيد في إعجابنا به وتساعدنا حقا في تذوق هذا الإبداع، لكن يوجد أحيانا حالات تجد فيها أن البلاغي لو قال غير ذلك الحكم على الشعر لأقنعنا به كذلك ولجعلنا نفتنح كما أقنعنا بالكلام الأول وخاصة حين يفاضل بين بيتين أو شاعرين فلو أراد تحسين صورة شاعر ما، لحسن وجمل شعره وكلامه حتى يقع في نفوسنا شيء من الإعجاب والرضى، فعندما يقول اللغوي

²⁵ في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: 1385هـ) الناشر: دار الشروق - بيروت - القاهرة الطبعة: السابعة عشر 1412هـ/ (103/5).

لو قال الشاعر هكذا لكان أفضل وأجمل أو لو قدم هذه عن تلك لكانت أفصح أو أبلغ فهنا اللغوي أو البلاغي يقوم بإسقاط الشعر على حسب ذوقه هو وعلى حسب هواه، الهوى هنا لا نقصد به هوى النفس المعروف بل هو الملكة التي يمتلكها اللغوي بعد كثرة تعامله مع النصوص ومع رصيده اللغوي الغني فتتكون لديه ملكة تجعله يحكم على الآخرين وعلى منتوجاتهم اللغوية انطلاقاً لما رآه من قبل. لكن هل يكون حكمه حقاً قطعياً؟ طبعاً لا لأنه يبقى ظنياً لعدة أسباب منها أنه يمكن أنه لم يفهم ما كان يريد الشاعر بالضبط أو لم يرق له ذلك التعبير أو تلك العبارة بالضبط ولهذا نجد خلافاً كبيراً بين اللغويين، والنقاد خاصة في أحكامهم على بعض الشعراء حتى يصل الأمر إلى الضد تماماً، كما رأينا ذلك مع المتنبي حيث نجد من يجعله أعلى الشعراء في عصره ويمجده ونجد في نفس الوقت من يشوهه ويمقته ويجعله مجرد شاعر بسيط له الكثير من الأخطاء ومنهم من يتهمة بجهله باللغة ومنهم ومن يجعله مجرد سارق شعر يعجز على قول الشعر، وكما يرى محمد بدوي في كتابه "بلاغة الكذب" أن الشاعر يقول ما يحسه هو، ولا يفهم ما يقوله غيره، فهو يقولها - العبارة - كما يحسها وكما يراها جسمه وفكره، لا كما يراها غيره مهما كانت اعتباراتهم، سواء ثقافية أو دينية و تحت تأثير ظروف اجتماعية معينة، أو اعتبارات أخرى تحدد أولوياتهم، لكن الشاعر له أولوياته وترتيبه الخاص به، وضرب لذلك مثلاً عن الشاعر سحيم العبد شاعر بني الحسحاس حين قدم الشيب على الإسلام. كذلك في التحكيم بين الخنساء وحسان رضي الله عنه كان المعيار مختلفاً.²⁶

ومن أهم أقوال أصحاب الكذب والدعاية "جوزيف قوبلز" بوق الإعلام النازي الذي قال مقولته الشهيرة: "اكذب ثم اكذب حتى يصدقك الناس".

يروى محمد بدوي أن أمه كانت تقول أن الكاذب المسرف في الكذب يقال له: "يكذب مثل شاعر أعمى"، ويقول هو أن الكذب الذي يعنيه ليس الكذب بمعنى نقيض "الواقع"؛ بل يرى أن الكذب جزء من الواقع، بل هو شكل من أشكال مقاومته ومجاوزته، ويقول أن الكتابة استيهاما وحلماً بواقع آخر واستشرافاً له، فالواقع ضيق، والكتابة توسعه، أي تضيق عليه وتمنح الجنين فيه أقصى ما يمكن من الاكتمال، والذي بدوره يعتبر محض برهة سيتم مجاوزتها إلى نقطة أبعد، لذلك لا كذب إلا من واقع، فخيالنا يبدأ من الواقع ليخلق شيئاً يشبهه، ويجاريه ليكون شيئاً أجمل، و لذلك

²⁶ ينظر: بلاغة الكذب نصوص على نصوص، محمد بدوي كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة 1999م/22.

قالت العرب إن أعذب الشعر أكذبه، لقد كانوا يدركون جيداً أن الشعر للعدوية، لا للصدق.²⁷ ونلاحظ بعض الصفات والأفكار الملازمة للكذب وتوابعه:

- كأن الإنسان في أهل الكفر عامة مجبول على حب الكذب وتقبله، ونبذ الصدق ومحاوله إحباطه؛ فتجد أنه لو قيل عن فلان أنه جيد وصادق ونزيه، فلن يتقبل ذلك إلا القليل من السامعين؛ ولن يصدق وصفك فيه إلا القلة من الناس، لكن أغلب الناس ترفض وترد ذلك، وتجدهم يبحثون عن ثغرة لتثبت لهم العكس، أو سقطة منه ليبرهنوا أنه ليس بذلك الحسن أو أنه ليس بالصادق ولا بالنزيه، أو أنهم يطلبون برهانا ودليلاً -بغية التعجيز - على ذلك وفي أفضل الحالات سيقولون نحن لم نر منه ذلك بعد، في حين لو أن أحدهم أخبرهم عن شخص ما أنه سيء أو أنه سارق أو كاذب، فمباشرة يصدقون ذلك دون تبين ولا بحث عن برهان لذلك ولا تحقق، بل يصدقون مباشرة ويعاملونه على ذلك الأساس كأنه مجرم بينهم !

- تكون الأمم في انحطاط وبعدها تأتي الفكرة أو البذرة التي تزرع فيها بواذر حضارة وتنمو وتتسع حتى تبلغ بهم حضارتهم ذروتها ثم ترجع بهم وتنحط مع الزمن بعد بعدهم عن بداية حضارتهم ومبادئها التي قامت عليها، ومن بين دلائل وصولهم لهذه المرحلة هو الانحطاط الأخلاقي والذي من أخطره انتشار الكذب والافتراء، وفتور التوجيه الأخلاقي والجمالي الذي تقوم عليه الحضارات.²⁸

4.2. ضرورة معرفة السياق لفهم معنى الكلام ومقصده:

يحمل القرآن الكريم في طياته خطابات ومحاورات تصور وتعبر عن قصص ومقالات إنسانية، وحوت مقولات كثيرة، بعضها وصف بالكذب بالقرآن تصريحاً، وبعضها لم يصفها بالكذب مع أن دلالة القرائن المصاحبة للقول تدل على كذبه دلالة قطعية، ولم يقف الوصف عند هذا الحد، بل بين القرآن في كثير من المواضع تناقض أقوالهم ودعواهم وبين حقيقة ادعاءاتهم، من هنا صار هذا الخطاب حاملاً مضامين ذات معنى، وقوى إنجازية قولية، وأبعاداً حجاجية، من هنا

²⁷ بلاغة الكذب، محمد بدوي/11.

²⁸ شروط النهضة مالك بن النبي من سلسلة مشكلات الحضارة، الباب الثاني/53-101.

ننطلق من نماذج للموضوع ننجز عليها المنهج التحليلي، لتحليل هذه الأقوال الواردة في التراث التفسيري الإسلامي سواء كانت في كتب التفسير أم معاني القرآن وإعرابه.

ومن الأمور التي ركزنا عليها هي سرد سبب النزول لما له من أهمية في فهم الموضوع وسياقه وحيثيات مقاله، وبما أن البلاغة هي موضوعنا ومكمن البحث والنظر، فهي التي تقوم على المعاني، بدءاً بمعاني الألفاظ وفصاحتها، ثم معاني تركيبها بالجمال وترتيبها، ثم طريقة حبكها ونظمها، لتؤدي المعنى المنشود المطلوب، والمناسب للمقام، والذي يفني بالمقصود ويؤدي المطلوب، دون تعقيد ولا تركيب.

وبعض الآيات تحتاج للتفصيل والتعمق أكثر في سبب نزولها وحكاية سياقها، حتى نفهم معناها الحقيقي والحكمة فيها والعبرة منها والمقدمات التي أوصلتنا لنتيجة الحكم على الكلام؛ أو كلام المخاطب المناني للحقيقة والرامي في الكذب أو التكذيب.

نروم في بحثنا تحليل عباراتٍ محكية وردت ضمن أسلوب حوار في القرآن الكريم، تعمّد فائلوها الكذب أو التكذيب؛ ليحقق جملة من الغايات والمقاصد الإقناعية والإبلاغية، ولا يمكن أن تعرف هذه الغايات والمقاصد إلا من خلال كشف معتقدات المتكلم وما ينطوي في سريره، وكذلك معرفة الحالة الواقعية، أي السياقات المصاحبة لهذه الأقوال، والتحقق من قيم المتخاطبين وثقافتهم، على وفق رؤية من منظور دلالي في تحليل الخطاب.

وقد انتقينا نماذج اتضحت فيها سمة الحوار أو الجدال؛ لأنّ الحوار أصدق تعبير عن اللغة الطبيعية، ولأنّها كاشفة عن مقاصد المتكلمين وغاياتهم.

5.2. تعريف الكذب:

لم تختلف المعجمات اللغوية في تحديد المعنى اللغوي لكلمة (كذب) عن المعجمات الاصطلاحية، فكلاهما عرّف الكذب بنقيضه، فقد ورد في لسان العرب أن الكذب نقيض الصدق²⁹ وقال التهانوي: (الكذب خلاف الصدق)³⁰ وأضاف

²⁹ لسان العرب، ابن منظور طبعة دار المعارف (3840/3).

³⁰ كشاف اصطلاحات الفنون (1361/2).

مصطفوي في كتاب التحقيق قيماً هو الواقع الخارجي، قال: (الكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو سواء فيه العمد والخطأ).³¹

ويرى البعض أن هذا القيد الأخير فيه نظر، فليس من قصد الكذب كمن قصد الصدق، ولكنه غلط، فالصدق والكذب تابعان للاعتقاد، فإذا لم يكن القائل معتقداً لقوله، فلا يمكن الحكم عليه لا صدقاً ولا كذباً، فالصدق هو موافقة الاعتقاد للواقع، كما أن الكذب مخالفة هذا الاعتقاد للواقع، بدليل وجود الأقوال المجازية.³²

وقارب بعض الأصوليين الكذب على أساس تقسيم الجملة؛ فالجملة الخبرية صادقة إذا طابقت العالم الخارجي وتكون كاذبة إذا خالفته. وكذلك الجملة الإنشائية، إذا لم تعبر عما في النفس كانت كاذبة،³³ وقد يكون القول الواحد صادقاً باعتبار وكاذباً باعتبار آخر، ومع تردده بين الاعتبارين لا نصفه باللغو، لأنه يبقى في الإمكان تعيين أحد الاعتبارين بالرجوع إلى اعتقاد وقصد القائل حسبما تدل عليه القرائن، فإذا لولا الاعتقاد لما صار القول أولى بالصدق منه بالكذب فيدخل عليه الاعوجاج.³⁴

الكذب:

ذكر الخليل في معجمه: "باب الكاف والذال والباء معهما ك ذ ب مستعمل فقط

كذب: الكِذَابُ لغة في الكَذِب. ويقرأ: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًّا وَلَا كِذَابًا³⁵ بالتخفيف، والكِذَابُ، بالتشديد لغة. تقول: كَذَبْتُكَ كَذِباً، أي: لم يصدقك، فهو كاذب، وكذوب، أي: كثير الكذب. وكذَّبتَه: جعلته كاذباً. وأكذبتَه: وجدته كاذباً. وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغَوًّا وَلَا كِذَابًا﴾ أي: تكذيباً، وذلك أن العرب تقول: كَذَّبْتَه تكذيباً، ثم تجعل بدل التَّكْذِيب: كِذَاباً.³⁶

³¹ التحقيق في كلمات القرآن الكريم، حسن مصطفى (13/36).

³² اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي: د. طه عبد الرحمن طبعة 1، 1998م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب/52.

³³ فقه الاستنباط دراسات في مبادئ بحث الألفاظ، السيد محمد تقي المدرسي / (147/2).

³⁴ اللسان والميزان والتكوثر العقلي، عبد الرحمن طه/53.

³⁵ النبأ 35.

³⁶ كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: 170هـ) المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، طبعة بغداد 1985م / (347/5).

وَفَجَرَ أَيْضاً: كَذَبَ وَكَذَّبَ

(وَلَا تُخْثُوا عَلَيَّ وَلَا تَشْطُطُوا... بِقَوْلِ الْفَجْرِ إِنَّ الْفَجَرَ حُبٌّ)

أَرَادَ بِالْفَجْرِ الْكَذِبَ، وَيُسَمَّى الْكَاذِبُ فَاجِرًا لِمِثْلِهِ عَنِ الْقَصْدِ.³⁷

الفرق بين الزور والكذب: أن الزور هو الكذب الذي قد سوي وحسن في الظاهر ليحسب أنه صدق وهو من قولك زورت الشيء إذا سويته وحسنته، وفي كلام عمر رضي الله عنه: زورت يوم السقيفة كلاماً، أي حسنته وقيل أصله فارسي من قولهم زور وهو القوة وزورته قوته.³⁸

ومن الأحكام التي نجد فيها عظم وقع الكذب وتغليظ الشرع له عدم التسامح في كلام الرجل، حتى لو ادعى أنه كاذب لأن الكذب مستقبح شرعاً وعرفاً وفطرة، ففي كتب الفقه نجد مثلاً: ... أَرَأَيْتَ الَّذِي يَقُولُ لِأَمَتِهِ: أَنْتِ حُرَّةٌ، وَنَوَى الْكَذِبَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، أَوْ قَالَ لِأَمْرَأَتِهِ: أَنْتِ طَالِقٌ، وَنَوَى الْكَذِبَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ؟

قَالَ: ذَلِكَ لَا زِمَ لَهُ فِي الطَّلَاقِ وَفِي الْحُرِّيَّةِ وَلَا تَنْفَعُهُ بَيْنُهُ الَّتِي نَوَى وَلَا يَنْوِي فِي هَذَا إِنَّمَا يَنْوِي إِذَا كَانَ لِذَلِكَ وَجْهٌ...³⁹ فنجد أن حكم من قال لزوجه أنت طالق يقع عليه ومن قال لعبده أنت حر، فهو حر بقوله حتى لو قال إنما نويت الكذب ولا يلتفت لنيته في هذا الكلام وذلك كله للزجر على الكذب وتعظيم شأنه.

يقول هيمنجواي: "من الطبيعي أن يكون أفضل الكتاب أفضل الكذابين، فجزء كبير من حرفتهم أن يكذبوا.. أن يخترعوا.... إنهم كثيراً ما يكذبون دون وعي، ثم فيما بعد، لما يتذكرون كذبهم يندمون الندم الشديد"⁴⁰

³⁷ تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد بن عبد الرزاق الحسيني، المعروف بالزبيدي (ت: 1205هـ)، تحقيق: مجموعة من تحقيقين الناشر: دار الهداية/ (301/3).

³⁸ معجم الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو 395هـ)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، الطبعة: الأولى، 1412هـ/ (268).

³⁹ المدونة، لمالك بن أنس/ (404/1).

⁴⁰ رنست ميلر هينغوي كاتب أمريكي يعد من أهم الروائيين، وكتاب القصة الأمريكيين. كتب الروايات والقصص القصيرة. سمي بابا ت: 1961م.

ويعترف الصدق في كتب العقيدة أنه مطابقة الخبر للواقع، فإن اختلت هذه الشروط يكون كذبا، وفي الأمر تفصيلات⁴¹ ولذلك قالت العرب: إن أعذب الشعر أكذبه، فلقد أدركوا جيدا أن الشعر للعذوبة والتدوق والمتعة النفسية لا للصدق.⁴² يقول الأستاذ "جيمس بورج" في كتابه لغة الجسد، أن الكاذب يتجنب النظر مواجهة للمتحدث إليه مباشرة ويتجنب ذلك بالنظر للأرض أو النظر إلى السماء أو النظر لمن حوله،⁴³ كما سنرى ذلك عند فرعون حين يوجه كلامه للملأ ويتجنب الخطاب المباشر لموسى.

ويذكر "هورست هانيش" أن الجملة اللاحقة للكذب تأخذ شكلين: شكل توكيدي دون داعي لذلك، أو وجود طلب من المخاطب للتأكيد، والشكل الثاني هو ذكر جديته وأنه يقول الصدق، وأنه ليس كاذبا، لأن ذلك يستدعيه الشك الذي يصل إلى درجة اليقين في داخل المتحدث الكاذب - كما نرى مع إخوة يوسف في إسراعهم للقسم والحلف - ويقول كذلك أن أول شخص يشك في أن جملة الكاذب هي جملة كاذبة، هو الكاذب نفسه، ولهذا هو يسعى دوما للتأكيد والقسم والحلف ليبين للناس صدقه الذي يشك فيه هو نفسه.⁴⁴

6.2. حكم الكذب:

الكذب مع اليمين من أعظم الذنوب والتي ليس لها كفارة كما أقر ذلك الشرع وبينه أهل العلم من الفقهاء:

وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : (مَنْ افْتِطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، بِيَمِينِهِ حَرَّمَ اللَّهُ، عَلَيْهِ الْجَنَّةَ).

فَقَالَ سَحْنُونُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ: وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ﴾⁴⁵، فَهَذِهِ الْيَمِينُ فِي الْكَذِبِ وَافْتِطَاعِ وَأَخَذِ الْحُقُوقِ، فَهِيَ أَعْظَمُ وَأَشْنَعُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لِمَالِكٍ فِيهَا كَفَّارَةٌ.⁴⁶

⁴¹ المعرفة في بيان عقيدة المسلم للشيخ عبد الكريم الرفاعي، دار الإمام الغزالي ط 6، 2010م/79.

⁴² بلاغة الكذب نصوص على نصوص، لمحمد بدوي كتابات نقدية، الهيئة العامة لقصور الثقافة 1999م/11.

⁴³ لغة الجسد، لجيمس بورج، سبعة دروس لتتحدث باللغة الصامتة 2001م/الدرس 163/5.

⁴⁴ لغة الجسم، كسر الأسرار، لهورست هانيش، 2006م، أمريكا/32.

⁴⁵ آل عمران 77.

⁴⁶ المدونة، للملك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (ت: 179هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: 1، 1415هـ -

1994م/ (577/1).

7.2. الكذب عند علماء النفس:

الكذب عند علماء النفس هو بيان أو خطاب كاذب، أو عرض خاطئ ومخالف للأحداث أو الوقائع، يُجرى بنية خداع الآخرين، وذلك على الرغم من أنه شيء محرم أخلاقياً وقانونياً، إلا أن الناس لا تنفك تقع فيه وتمارسه، وعموماً هو شكل من أشكال الخداع ويقوم فاعله بالتصريح بشيء يعرف بأنه غير صحيح ولم يحدث بالفعل، أما بالنسبة لأحد الخبراء فقد بين أن الأكاذيب تُعدّ مثل الرغبات وهي غالباً الأشياء التي يتمنى أصحابها أن تكون صحيحة فيسلكون سلوك الكذب لرغبة حدوثها، وعند الحديث عن الأسباب الرئيسية التي تؤدي إلى الكذب، فمنها: الحصول على شيء يريدونه وهو ما يسمى بالأسباب الأدائية، وقد يكذب البعض لحماية أنفسهم أو الترويح لها؛ وقد يكون تجنب العقوبة هو الدافع الرئيسي لأغلب حالات الكذب عند الأطفال والمراهقين.⁴⁷

عندما يكذب الشخص بشكل متكرر، فإن الاستجابة العاطفية لأكاذيبه تتوقف. وفي مواجهة الغياب التام للمشاعر، تصبح هذه الممارسة أسهل وعادة دائمة، لهذا السبب خلص أطباء الأعصاب إلى أن دماغ الشخص الكاذب يعمل بشكل مختلف عن الآخرين: إنها عقول مدربة بذكاء لهذا الغرض.⁴⁸

قالت الأستاذة فاليريا سابيتير، في تقرير نشرته مجلة "لامنتي إس مارافيوسا" *lamenteesmaravillosa* الإسبانية، إن الدماغ البشري يتميز بمرونته لذلك من غير المفاجئ أن نعلم أن الكذب مهارة مثل أي مهارة أخرى يكفي أن نمارسها يوميا للحفاظ عليها، وكثيرا ما كان علم النفس وعلم الاجتماع من المجالات التي تهتم بدراسة عالم الأكاذيب والخداع. وعلى مدى عقود قليلة، وبالنظر إلى تطور تقنيات التشخيص، سلط علم الأعصاب الضوء على معلومات مهمة ومثيرة للقلق في الآن ذاته حول الكذب.

⁴⁷ ينظر: "قلب الأفلاطونية"، دولوز جيل، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، مجلة فكر ونقد، عدد 1، سبتمبر 1997م/57-63.

⁴⁸ ينظر "موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب" جهامي جبرار، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1998م/66.

وذكرت الدراسة أنه مثلما الصدق نتيجة التدريب المستمر والتعود، فإن الكذب أيضا يبدأ بالكاذب صغيرة ثم يصبح عادة. ولكن الكذب المستمر يدفع الدماغ إلى حالة تدريجية من عدم الإحساس لتصبح الأكاذيب أقل إيلاّمًا وتتحول إلى أسلوب حياة.⁴⁹

درس علماء النفس ظاهرة الكذب لسنوات عديدة، وكشفت أبحاثهم عن مجموعة متنوعة من النتائج المثيرة للاهتمام. أولاً، من المهم أن نلاحظ أن الكذب هو سلوك شائع بين البشر: معظم الناس يكذبون على الأقل لبعض الوقت. قد يكون هذا بسبب عوامل مختلفة مثل محاولة حماية مصالح المرء أو محاولة تجنب العقوبة على السلوك السيئ. بالإضافة إلى ذلك، يقترح الباحثون أن هناك أنواعًا مختلفة من الأكاذيب التي يمكن أن تتراوح من الأكاذيب البيضاء (التي تكون غير ضارة بشكل عام) وصولاً إلى الخداع الأكثر خطورة مثل الاحتيال أو سرقة الهوية.

بالإضافة إلى ذلك، وجد علماء النفس أن سمات شخصية معينة يمكن أن تؤثر على مدى احتمالية أن يكذب شخص ما في أي موقف معين؛ الأشخاص الذين حصلوا على درجات أعلى في مقاييس مثل التوافق والضمير لا يميلون إلى قول أكاذيب أكثر من أولئك الذين حصلوا على درجات أقل في هذه السمات. علاوة على ذلك، تشير الأبحاث النفسية إلى أن الأفراد قد يستخدمون الخداع بشكل استراتيجي من أجل الحصول على ميزة على الآخرين أو حتى التلاعب بهم للاعتقاد بشيء خاطئ عن أنفسهم أو عن شخص/ موقف آخر.⁵⁰

بشكل عام، تُظهر لنا الدراسات النفسية مدى تعقيد السلوكيات البشرية المرتبطة بعدم الأمانة حقًا. في حين أننا قد لا نفهم تمامًا سبب اختيار الأشخاص لاستراتيجيات خادعة في مواقف معينة، إلا أن هذا البحث يوفر معلومات قيمة حول ما يحفز السلوك غير النزّه وكيف يمكننا منع حدوثه في المستقبل.⁵¹

⁴⁹ مجلة "لامنتي إس مارافيوسا" /45.

⁵⁰ الكذب والتضليل في الخطاب، أندرياس ستوك، نشرت في المجلة الفلسفية ببريطانيا، 2016م/125.

⁵¹ ينظر: كتاب "الجسم باعتباره رهانا فلسفيا عند سبينوزا" دولوز جيل، ترجمة عادل حدجامي، ضمن: مجلة كتابات فلسفية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، عدد 1/2014م/75-90. وحقيقة الكذب، بقلم جوديث فيورست/56، وينظر: علم نفس الكذب بقلم تشارلز الخامس/122.

الكذاب هو الشخص الذي يضلل أو يخدع الآخرين عمدًا. غالبًا ما يحتلقون القصص، ويتجاهلون الحقيقة، ويحتلقون الأعذار لتجنب المساءلة عن أفعالهم، فعادة ما يكون الكذابون أفرادًا متلاعبين للغاية يستخدمون الخداع للحصول على ما يريدون من الآخرين، يعتبر كائنا الكذب مغيضا أخلاقيا، وكيفما كان الدافع له فإنه يكون ظلما. يمكن أن يكون من الصعب اكتشافهم بسبب قدرتهم على تدوين حكايات مقنعة وخلق أعذار معقولة لأنفسهم. من المهم أن نظل في حالة تأهب عند التعامل مع الكاذبين المحتملين من أجل حماية أنفسنا من استغلالهم من قبلهم.⁵²

الكذاب هو من يعتمد قول الأكاذيب ويفترق القصص لخداع الآخرين، وغالبًا ما يستخدمون أساليب التلاعب للحصول على ما يريدون، مثل تجنب الأسئلة أو تغيير الموضوع أو اختلاق الأعذار. يميل الكذابون أيضًا إلى المراوغة عند طرح أسئلة مباشرة وقد يصبحون عدائين إذا دفعوا للحصول على إجابات، علاوة على ذلك غالبًا ما يدي الكذابون بتصريحات لا تدعمها حقائق أو أدلة من أجل إقناع جمهورهم بأكاذيبهم، من المهم للأشخاص الذين يتعاملون مع كاذب أن يظلوا هادئين ومتجمعين ومركزين أثناء استجوابهم حتى لا يتخلوا عن أي أدلة حول مصداقية قصتهم.⁵³ ويعرف تشارلز الكذب بأنه "محاولة مقصودة لخداع شخص آخر من خلال الإدلاء ببيان كاذب، سواء لفظيًا أو غير لفظي، بقصد دفع الشخص الآخر إلى الاعتقاد بشيء غير صحيح". ثم ينتقل ليناقد الأنواع المختلفة من الأكاذيب والسياقات المختلفة التي يجوز فيها الكذب.⁵⁴

8.2. الخطاب في ضوء المفهوم القرآني:

محاولة فهم الخطاب تبعاً للدلالة القرآنية تكشف لنا أن مصطلح "الخطاب" ورد مرتين وكلاهما في سورة ص، وهما: قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾⁵⁵. والأخرى قوله تعالى:

⁵² ينظر: أخلاقيات الكذب، بقلم إيمانويل كانط ترجمة عبد الرحيم نورالدين، مصر دار الفكر العربي 1996م/ (88-89). وينظر: كانط والواجب المثالي تجاه الآخرين هو عدم الكذب جيمس إدوين ماهون، المجلة البريطانية لتاريخ الفلسفة عدد 14، 2006/ 653-685.

⁵³ ينظر: مبادئ علم النفس العام، مراد يوسف، مكان النشر: مصر، الناشر: دار المعارف، منشورات علم النفس التكاملية، تاريخ النشر: 1948م/ (67-71)

⁵⁴ كتاب حقيقة الكذب، لتشارلز الخامس "The Truth About Lying" / (88 - 90).

⁵⁵ ص 20.

﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً وَإِلَيَّ نَعَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾⁵⁶

السياق الذي ورد فيه المصطلح الخطاب هو سياق التخاصم والتجاجج وإبداء الرأي والرأي الآخر، فداود عليه السلام جعله الله حكماً، وقاضياً يحكم بالعدل قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾⁵⁷، وهذا السياق يعتمد في أساسه على القوة الحجاجية التي أداتها اللغة السليمة، فيكون الخطاب بالمفهوم القرآني هو عملية الحوار بين المتكلمين، قال الطبري: "الفصل هو القطع، والخطاب هو مخاطبة، ومن قطع مخاطبة الرجل الرجل في حال احتكام أحدهما إلى صاحبه قطع المحتكم إليه الحكم بين المحتكم إليه وخصمه بصواب من الحكم، ومن قطع مخاطبته أيضاً صاحبه إلزام المخاطب في الحكم ما يجب عليه إن كان مدعياً"⁵⁸ ووردت

بلفظة خطابا في هذا الموضع: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾⁵⁹

فنجد أن الخطاب في المفهوم القرآني لا يتحدد بالقول فحسب، إنما يعتمد تحديده على ظروف إنتاجه المكانية والزمنية، وعلى المساهمين في هذه الظروف مثل المتكلمين، والمشاركين، والمخاطبين، وما يستتبع هذا من مقاصد المتكلمين، ومراعاة أحوال السامعين (مخاطبين ومشاركين).

وبناء على ما تقدم فإن وصف قول ما بأنه كاذب يعتمد على الآتي:

- 1- عدم مطابقته للواقع الخارجي، فيكون الكلام عكس الحقيقة الخارجية أو الاعتقاد الداخلي.
- 2- دم اعتقاد المتكلم بمضمون القول أو اعتقاده خلاف مايقوله، أي حتى لو قال صدقا يعتقد خلافه فهو كاذب.
- 3- الكذب فهو انتهاك للقواعد الأخلاقية العامة للصدق التي تمثل أساس كل تفاعل إنساني، وهو ظاهرة معقدة يمكن التعامل معها فلسفياً وأخلاقياً ودلالياً وتداولياً واجتماعياً، ونفسياً، وسياسياً وثقافياً.⁶⁰

⁵⁶ ص 23.

⁵⁷ ص 26.

⁵⁸ تفسير الطبري، أبو جعفر الطبري، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي / (52/20).

⁵⁹ النبأ 37.

⁶⁰ ينظر: الخطاب والسلطة، توين فانداليك، ترجمة غيداء العلي/494.

4- الخطاب الذي سنقوم بتحليله والذي وصف بأنه كاذب يمكن تحديده بأنه: كل قول أريد به مخالفة الواقع أو كان نقيضاً للصدق، واعتقد به المتكلم، وتبعاً لهذا فإن البحث سيهتم بالكلام المحكي عن البشر غير المؤمنين في القرآن الكريم، ولا يتعرض البحث للكلام الصادر عن غيرهم مثل ما نجد في خطاب النبي إبراهيم عليه السلام الذي قيل فيه الكثير فمنهم من يرى أنها ليس بكذبات أساساً، وذهبوا في ذلك بتأويلات وتفسيرات للآيات فقال بعضهم⁶¹ في الموضع التالي: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنَّ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾⁶²، أنها بمعنى: فلعله كبيرهم مشددة، وأما البعض ففسروها بأنه فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون، فاسألوهم... ومنهم من يرى أنها كذبات قيلت ابتغاء مرضاة الله ومن أجل الدعوة، واستدلوا بذلك ما ذكره ابن جرير الطبري: "بما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات كلها في الله، قوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله لسارة: هي أختي، وغير مستحيل أن يكون الله تعالى ذكره أذن لخليله في ذلك، ليقرع قومه به، ويحتج به عليهم، ويعرفهم موضع خطئهم، وسوء نظرهم لأنفسهم، كما قال مؤذن يوسف لإخوته ﴿أَيُّهَا الْعِيرَ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ ولم يسرقوا شيئاً".⁶³

فمن تتبع الآثار نصل إلى أن سيدنا إبراهيم عليه السلام كذب كذبة في سبيل الحق والله، منها هذه التي بالآية. لكن في نفس الوقت هل من الأدب مع الأنبياء أن نعتهم بالكذب؟ وهل هي حقاً كذبة أو تورية وكناية عن شيء آخر؟ فيذكر البيضاوي أن الكذب: هو الخبر عن الشيء على خلاف ما هو به. وهو حرام كله، وما روي أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كذب ثلاث كذبات، فالمراد التعريض، ولكن لما شابه الكذب في صورته سمي به.⁶⁴

5- المتكلم يركز أحياناً على مغالطات قولية، تبعاً لمقاصد يخفيها عن المخاطب ليتحصل من هذا على ما يريد من غايات، سواء كانت مكاسب مادية أو معنوية أم تأثيرات في سلوك المخاطب وقناعاته، ولكن هذه المغالطات والكذبات المروية في الخطاب القرآني والصادرة في كثير من نماذجها عن المنافقين أو الكافرين أو المشركين، تظل منكشفة للمتلقي

⁶¹ هو محمد بن السميع النيسابوري.

⁶² الأنبياء 63.

⁶³ جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (461/18). وينظر معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زيد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت: 207هـ) تحقيق: أحمد يوسف النجاشي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلي الناصر: دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر، ط: 1 / (207/2).

⁶⁴ ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (46/1).

- الرسول صلى الله عليه وآله وسلم - لخصوصياته في الارتباط بالغيب، وهي السمة التي تضيفي على الخطاب القرآني بعداً إثرائياً من حيث الكشف عن حقيقة باطن الكاذب، وعن حقيقة المغالطات اللغوية والكذب القولي، ومن تلك النماذج ما عرضه تعالى شأنه على لسان المنافقين، قائلاً: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾⁶⁵

6- لا بد من تقييد مطابقة التصور الذهني للكلام حتى يتصف بأنه صادق، فحينما نصف خطاباً ما بأنه كاذب، فهذا لا يعني أن الوصف يقف عند الحدود اللفظية؛ بل إن الوصف اعتمد على قراءة لمتبنيات المتكلم الفكرية والعقائدية، ومقاصده الذهنية ودوافعه النفسية، وهذا يلتقي مع فهم القصد؛ فالدلالة الخاصة بالألفاظ والعبارات تتعلق من دون شك بالقواعد والتوافقات المتواضع عليها تعلقاً كبيراً ولا يمكن فهم هذه القواعد إلا بالرجوع إلى مصطلح القصد.⁶⁶

وبالتمحيص في كلام المكذبين من غير المؤمنين نجد أنهم تعمدوا الكذب لغايات ومقاصد نفسية بحتة، يمكن تلخيصها بالآتي:

- 1- هدفهم الأساس طمس الحقيقة و محاربة الدعوة الإسلامية.
 - 2- بتّ ما يخالف الأسس الإسلامية في المجتمع الإسلامي، باعتبار أنهم مسلمون ظاهراً فينقلون أحكاماً ليست من الإسلام أو طعنوا داخلها للدين.
 - 3- إضعاف الروح المعنوية للمسلمين بثنيهم عن مناصرة الرسول ﷺ والقتال معه وعدم مقارعة أعداء الإسلام.
- هذه الغايات والمقاصد لم تظهر في كلامهم، ولكن استبطنتها نفوسهم، وخالفوها أقوالهم، فجاء الرد القرآني بقوله تعالى:
- ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ فهذا الوصف الإلهي كشف قناع الغش الذي كان يرتديه هؤلاء، وبانت حقيقتهم، وإن خالفت الظاهر، وهي أنهم كاذبون بقولهم هذا.
- والقصد الذي يؤسس المتكلم قوله عليه نوعان، هما:

⁶⁵ المنافقون 1.

⁶⁶ ينظر: في تداولية القصد، إدريس مقبول/1210.

— القصد الإخباري، الذي يكمن في رغبة المتكلم في إظهار أخبار ومعلومات ما، يريد أن يطلع عليها المخاطب.

— القصد التبليغي، وهو أن يعلن المتكلم صدقه بحقيقة قصده الإخباري.⁶⁷

ويتجسم القصد التبليغي في قوله تعالى عن لسان اليهود والنصارى في التوبة: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَاتْلُهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفِكُونَ﴾⁶⁸

يعمد المتكلم في سبيل جعل تواصله مع الآخر ناجحاً منسجماً مع رغباته إلى التأثير في المخاطب تأثيراً يجعله يغيّر قناعاته الفكرية أو تصرفاته السلوكية أو يثبط تحمسه واندفاعه، وفي سبيل تحقيق هذه الغاية يستعمل المتكلم أقوالاً تنسجم في مجملها مع مقاصده وغايته فيغيّر الحقائق ويرسم واقعاً جديداً مغايراً تماماً لما عليه حقائق الأمور كما نجد في قوله تعالى على لسان إخوة يوسف:

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾⁶⁹

إن قول إخوة يوسف ﴿أكله الذئب﴾ إخبار منهم عن أمر مخالف للواقع، بل مخالف لعلمهم وإيمانهم فهم على يقين تام أن يوسف لم يأكله الذئب، ولكن غايتهم من هذا الإخبار التأثير في أبيهم، وإقناعه بصدق الخبر، وقد ارتكزوا في قولهم هذا على مرتكرات مسبقة يمكن تبينها بالآتي:

1- افتراضات مسبقة بأن الذئب يفترس الصغار ومن لا حيلة له، تولدت هذه الافتراضات بإشارة أبيهم في قوله لهم

قبل أن يأخذوا يوسف ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ يَأْكُلُهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾⁷⁰

2- الأثر النفسي لقولهم ﴿يا أبانا﴾ فاستعملوه ليضفي على كلامهم قوة تأثيرية باستعطافهم لأبيهم وتعاطفهم معه لما حل به من فاجعة فقد الابن.

⁶⁷ ينظر: مقاصد الكلام واستراتيجيات الخطاب في كتاب "كلىة ودمنة" د بلخير عمر/244.

⁶⁸ التوبة 30.

⁶⁹ يوسف 16-17.

⁷⁰ يوسف 13.

3-الماديات، إذ صحبوا قميص يوسف ملطخاً بالدماء ليقدموه شاهداً على صدق كلامهم، ودليلاً ملموساً على أن كلامهم مطابق للواقع، قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾⁷¹ وهي محاولة منهم لم تنجح بل فشلت كما تفشل كثير من المحاولات التي تشببها، وهذا يعود إلى عدم اقتناع المخاطب بالحجج التي قدمها المتكلم، إذ يذهب البعض إلى أن لبعض الأعمال أهدافاً تأثيرية واضحة كالإقناع مثلاً، ولكن هدف المتكلم في مقام المخاطبة قد يتحقق وقد لا يتحقق، ولا يوجد دليل يمكننا من خلاله احتساب رد فعل المخاطب ومدى اقتناعه.⁷²

وقد ترسّمت هذه الجهات جلية واضحة في كلام الكافرين المبثوث في القرآن الكريم الذي قال عنه تعالى:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾⁷³

تناقش هذه الآيات قضية ادعاء الكافرين أن الحقائق التي جاء بها الأنبياء المرسلون من الله تعالى إنما هي افتراءات وأباطيل مردوا عليها، وهو قول كاذب، وأولئك هم الكاذبون على الحقيقة المنتهون في الكذب، لأن تكذيب آيات الله أعظم الكذب وأخطره على صاحبه وعلى غيره، أو أولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء، لا تحجبهم عنه مروءة ولا دين،⁷⁴ وقد وصف كلامهم بالكذب لأنه أضمر الغش والخداع، (فالكذب هو كل قول ترافقه الرغبة في التزوير والتحويل).⁷⁵

ومن هذه الأقوال ما يوصف بأنه تكذيب، كما في آيتي سورة النحل وسورة سبأ، وهو في المسلك القصدي نفسه للكذب؛ لأن غايته تُحدّد بالرغبة في تغيير الواقع الخارجي، وكذلك التأثير في السامعين لتغيير قناعاتهم.

تتجه هذه الدعاوى الصادرة عن الكافرين أو غير المؤمنين وهي حاملة مقاصدهم وغاياتهم إلى مخاطب مباشر ومخاطب غير مباشر ويتحدد المخاطب المباشر تبعاً لسياق الآيات المذكورة- كما عرفنا أمثاله في ما تقدم- أما غير المباشر فهو دائماً يتمثل في من يسمع الكلام أو من وصل إليه الكلام بأي وسيلة كانت، فيبدو المتكلم وهو يبيث دعواه ومعتقداته

⁷¹ يوسف 18.

⁷² دائرة الأعمال اللغوية، شكري المبخوت/68.

⁷³ النحل 105.

⁷⁴ ينظر: الكشف الزمخشري، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود (475/3).

⁷⁵ اللغة والكذب هـرالد فاينرش، ترجمة: أ.د. عبد الرزاق بنور/53.

بين الناس كي تنتشر وتُعتنق ويكون لها مؤيدون، وفي مثل هذه الحالة يصدر الكلام في الغالب من قادة الكفر ليؤثروا على أتباعهم، فهم يكذبون الآيات النبوية الواضحة البينة كي يستقيم لهم انقياد الأتباع وبقاؤهم على طاعتهم لهم وولائهم لهم، قال البقاعي (ت 885 هـ): "ولما كان المستكبرون يرون ما للرسالة من الظهور، وللرسول من القبول، وأن أتباعهم قد ظهر لهم ذلك، فمالوا إليه بكلياتهم، أكدوه قولهم: {ما هذا} أي التالي لها على ما فيه من السمات المعلوم بأنه أصدق الخلق وأعلاهم همة وأبينهم نصيحة {إلا رجل} أي مع كونه واحداً هو مثل أي واحد من رجالكم، وتزيدون عليه أنتم بالكثرة، وأسندوا فعل الصد إلى النبي ﷺ اتهاماً له وإلهاباً للمخاطبين فقالوا: {يريد أن يصدكم} أي بهذا الذي يتلوه {عما كان} دائماً {يعبد آباؤكم} أي لا قصد له إلا ذلك لتكونوا له أتباعاً، وألهبوا السامعين بتصوير آبائهم بذكر — كان — والفعل المضارع ملازمين للعبادة ليشبوا على كفرهم بما لا دليل عليه ولا شبهة ولا داع سوى التقليد، ولما كانت أدلة الكتاب واضحة، خافوا عاقبتها في قبول الاتباع لها، فجزموا بأنها كذب ليوقفوهم بذلك ويصدونهم عنه".⁷⁶

⁷⁶ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي (523/15).

3. الفصل الأول: المعاني

علم المعاني:

وهو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بما يطابق مقتضى الحال،⁷⁷ وهذا ما ذكره السيّد الهاشمي في كتابه جواهر البلاغة "أصول وقواعد يعرف بها كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحيث يكون وفق الغرض الذي سيق له"⁷⁸ وبهذا نكون قد توقعنا عند أساس من أسس البلاغة والذي يهتم باللفظ العربي وفي هذا البحث سنتناوله ضمن آيات القرآن الكريم للوقوف على الإعجاز القرآني الحاصل في أساليب التكذيب في القرآن الكريم. وقسم علماء البلاغة الكلام إلى قسمين خبر وإنشاء فالخبر في تعريفه "ما يحمل الصدق والكذب لذاته"⁷⁹ والإنشاء لغة هو الإيجاد واصطلاحاً هو الذي لا يصح أن نحكم عليه بالصدق أو الكذب، وينقسم الإنشاء إلى قسمين إنشاء طلبي ومن موضوعاته (الأمر، النهي، الاستفهام، النداء، التمني) وإنشاء غير طلبي ومن موضوعاته (المدح والذم، التعجب، القسم، ألفاظ العقود، الرجاء). والكلام بقسميه هو أسلوب له أغراض منها ما هو حقيقي يؤدي معنى واضحاً، ومنها ما هو بلاغي له معاني لا يفهمها إلا الفطن الحذق.

وكما ذكر في نظم مائة المعاني لابن الشّحنة

والصدق: أن يطابق الواقع ما يقوله، والكذب: أن ذا يُعدما

وعربيّ اللّفظِ ذو أحوال يأتي بما مطابقاً للحال

⁷⁷ مفتاح العلوم، ليوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي (ت: 626هـ)، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط 2، 1987م/161. وينظر: الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان والبدیع القزويني (ت 739هـ) محمد شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1، 2003م/23. وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي (ت: 773هـ) المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداي الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2003م/96.

⁷⁸ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي (ت: 773هـ) المحقق: الدكتور عبد الحميد هنداي الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2003م/96. وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (ت: 1362هـ) ضبط وتديق وتوثيق: د. يوسف الصميلي الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 1996م/46.

⁷⁹ المصدر نفسه/55.

عرفانها علم هو المعاني منحصر الأبواب في ثمان⁸⁰

وستتناول فيما يأتي الآيات الكريمة التي تضمنت تلك الأساليب (الأمر، النهي النداء، التمني القسم..)

1.3 المبحث الأول: الخبر الابتدائي

الخبر الابتدائي "هو الخبر الذي يكون خاليا من المؤكدات؛ لأن المخاطب خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه الخبر، فهو ليس بمتردد ولا منكر له".⁸¹

1.1.3.1. المطلب 1: الخبر الابتدائي الاسمي

1.1.1.3.1. أشرف قوم نوح

المؤمنون ك 24

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾⁸²

1- فيمن نزلت:

قالت جماعة أشرف قوم نوح، الذين جحدوا توحيد الله، وكذبوه لقومهم: ما نوح أيها القوم إلا بشر مثلكم، إنما هو إنسان مثلكم وكبعضكم (يريد أن يتفضل عليكم) يقول: يريد أن يصير له الفضل عليكم، فيكون متبوعا وأنتم له تبع (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) يقول: ولو شاء الله أن لا نعبد شيئا سواه؛ لأنزل ملائكة، يقول: لأرسل بالدعاء إلى ما يدعوكم إليه نوح ملائكة تؤدي إليكم رسالته. وقوله: (ما سمعنا بهذا) الذي يدعوننا إليه نوح، من أنه لا إله لنا غير الله في القرون الماضية، وهي آباؤهم الأولون.⁸³ نزلت في جماعة أشرف قوم نوح.⁸⁴

⁸⁰ دفع المحنة عن قارئ منظومة ابن الشحنة في علم البلاغة، محمد المساوي التهامي، دار الكتب العلمية بيروت، ط 1/16.

⁸¹ دراسات في البلاغة العربية من بلاغة القرآن الكريم، محمد علوان، نعمان علوان/36.

⁸² المؤمنون 24.

⁸³ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي/ (120/9)، تفسير للطبري/ (28/19).

⁸⁴ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (25/19).

2- الإعراب:

(الفاء): حرف استئناف. (قال): فعل ماض مبني على الفتح. (المألأ): فاعل مرفوع بالضممة، والجملة استئنافية. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع صفة للمألأ. (كفروا) فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة صلة. (من): حرف جر. (قومه): اسم مجرور بالكسرة، والهاء: ضمير متصل مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بحال من فاعل كفروا. (ما): حرف نفي. هذا: ها: حرف تنبيه، وذا: اسم الإشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، (إلا): حرف حصر. (بشر): خبر اسم الإشارة مرفوع بالضممة. (مثلكم): صفة لبشر مرفوعة بالضممة، والكاف: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه، والجملة مقول القول، (يريد): فعل مضارع مرفوع بالضممة، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، والجملة صفة ثانية لبشر، (أن): حرف ناصب ومصدر. (يتفضل): فعل مضارع منصوب بالفتحة، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو، والمصدر المؤول في محل نصب مفعول به. (عليكم): على: حرف جر، والكاف: ضمير متصل مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بـ يتفضل. والمصدر المؤول (أن يتفضل) في محل نصب مفعول به عامله يريد (في آياتنا) جار ومجرور متعلق ب (سمعنا) بحذف مضاف أي في أخبار آياتنا.⁸⁵

3- التحليل:

من وجهة نظر المشركين فإن الرسول لا بد له من التميز عن سائر البشر ولا يكون مثل الناس في الفهم والقوة والعلم ولا بُدَّ وأن يكون معظماً عند الله وحبباً له، والحبيب لا بد أن يختص عن غير الحبيب بمزيد الدرجة والعزة، فلما انتفتت هذه الأشياء علمنا انتفاء الرسالة، وكذلك عندهم شبهة وتهمة ثانية أن يقال: إن هذه الإنسان مشارك لكم في جميع الأمور، ولكنه أحب الرياسة والمتبوعة فلم يجد إليهما سبيلاً إلا بادعاء النبوة، فصار ذلك شبهة لهم في القدح في نبوته.⁸⁶ إنها

⁸⁵ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (169/18). وينظر: إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (327/2).

⁸⁶ ينظر: الباب في علوم الكتاب، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي لدمشقي النعماني (ت: 775هـ) تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان الطبعة: 1، 1419هـ-1998م/ (195/14).

فلسفة مريضة، وسفاهة عمياء أن يجعلوا النبوة مخصوصة للملائكة مرفوضة، لا تجوز في حق البشر، واتهموه أنه يريد أن يتفضل؛ أي يتشرف بأن يكون له الفضل عليكم فيصير متبوعاً وأنتم له تبع.⁸⁷

هكذا رأى القوم بجهلهم في هذا الداعي والنبى الذي يدعوهم إلى الله إنه طالب سلطان عليهم واستعلاء فيهم، إذ كيف يقودهم فينقادون ويدعوهم فيستجيبون وهو واحد منهم لا فضل له عليهم؟ فمن أين جاء هذا السلطان فيهم؟ إنما لا أكثر من دعوى يدعيها، وإنه ليس أكثر من قول يقوله: أنا رسول الله إليكم وإذا كان لله رسل، فلم لم يكونوا من الملائكة، وهم أقرب إلى الله، وأكثر اتصالاً به، وإذن فالقوم كانوا يعرفون الله، ويعرفون أن الله سبحانه وتعالى ملائكة، نعم، ولكنهم كانوا أشبه بمشركي العرب يعرفون الله هذه المعرفة المطموسة بتلك التصورات الفاسدة، التي لا ترتفع بجلال الله إلى ما يليق به، فرموا نبيهم بالجنون والخلل يهذي بهذا الكلام الذي يقوله لهم فما أشبه مشركي قريش بمشركي قوم نوح وما أشبه الكفر عبر كل الأزمنة.⁸⁸ فكانت جملتهم مفتتحة بالنفي بـ"ما" ثم الإشارة بـ"هذا" لإفادة التحقير والانتقاص من مقام المكذّب، والحرص بـ"إلا كذلك" للتحقير وإظهار مقامه أنه لا يتعدى كونه بشراً مثله مقل أي بشر غيره وهذا يتكرر كثيراً في أسلوب الكفار والمشركين في مختلف الأمم والأزمنة.

وتكذيبهم إياه ظاهر في دعاء النبي في الآية بعده حين قال: ﴿رَبِّي انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ والباء هنا للاستعانة وليست للسببية بمعنى انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ به.⁸⁹

وقد خولفت في حكاية جواب الملائكة من قوم نوح الطريقة المألوفة في القرآن في حكاية المحاورات وهي ترك العطف التي جرى عليها قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾⁹⁰ فعطف هنا جواب الملائكة من قومه بالفاء لوجهين:

الأول: أنهم لم يوجهوا الكلام إليه، بل تركوه وأقبلوا على قومهم يفندون لهم ما دعاهم إليه نوح.

⁸⁷ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: 671هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964م/ (118/12). ومعالم التنزيل في تفسير القرآن، للبغوي 19/ (415/5).

⁸⁸ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب (ت: 1390هـ) الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة/ (1130/9).

⁸⁹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (1130/9).

⁹⁰ البقرة 30.

والثاني: ليفاد أنهم أسرعوا بتكذيبه وتزييف دعوته قبل النظر والفهم، ووصف الملائكة بأنهم الذين كفروا للإيماء إلى أن كفرهم هو الذي أنطقهم بهذا الرد على نوح، وهو تعريض بأن مثل ذلك الرد لا نحوض له ولكنهم روجوا به كفرهم خشية على زوال سيادتهم، فجملة: "ما هذا إلا بشر مثلكم" خاطب به بعضهم بعضاً، إذ الملائكة هم القوم ذوو السيادة والشارة، أي فقال عظماء القوم لعامتهم بهذا الكلام والادعاء الكاذب.

وإخبارهم بأنه بشر مثلهم، مستعمل كناية عن تكذيبه في دعوى الرسالة بدليل من ذاته، أوهمهم أن المساواة في البشرية مانعة من الوساطة بين الله وبين خلقه، وهذه من أكثر الأوهام التي ضل بها الكثير من الخلق والأمم، واسم الإشارة منصرف إلى نوح وهو يقتضي أن كلام الملائكة وقع بحضرة نوح في وقت دعوته، فعدلوا من اسمه العلم إلى الإشارة لأن مقصودهم تصغير أمره وتحقيره لدى عامتهم كيلا يتقبلوا قوله، ولما كانت مطامح أنفسهم حب الرئاسة والتوسل إليها بالانتصاب لخدمة الأصنام توهموا أن الذي جاء بإبطال عبادة الأصنام إنما أراد منازعتهم سلطانهم وما يحبون.⁹¹

فكبراء قومه من الكفار لا يناقشون هذه الكلمة ولا يتدبرون شواهداها، ولا يستطيعون التخلص من النظرة الضيقة المتعلقة بأشخاصهم وبشخص الرجل الذي يدعوهم، ولا يرتفعون إلى الأفق الرفيع لينظروا إلى تلك الحقيقة الضخمة مجردة عن الأشخاص والدوات، فتركوا الحقيقة الكبرى التي يقوم عليها الوجود، ويشهد بها كل ما في الوجود، ليتحدثوا عن شخص نوح أنه مجرد بشر مثلهم يريد أن يتفضل عليهم، من هذه الزاوية الضيقة الصغيرة تحجب عنهم جوهرها فنظر القوم إلى تلك الدعوة الكبيرة، فما كانوا إذن ليدركوا طبيعتها ولا ليروا حقيقتها، فإذا القضية كلها قضية رجل منهم لا يفتقر في شيء عنهم، يريد أن يتفضل عليهم، وأن يجعل لنفسه المنزلة والتفضل والسيادة، وهم في اندفاعهم الصغير لرده -أي نوح- عن المنزلة التي يتوهمون أنه يعمل لها، ويسعى لها بدعوته ورسالته؛ ففي اندفاعهم هذا الصغير لا يردون فضل نوح وحده، بل يردون فضل الإنسانية جمعاء و التي هم منها ويرفضون تكريم الله لهذا الجنس، ويستكثرون عليه أن يرسل الله رسولا من البشر بل لا بد أن يكون ملكا.⁹²

⁹¹ ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم البقاعي/ (131/13). الدر المنثور، جلال الدين السيوطي/ (98/8). الجواهر

الحسان في تفسير القرآن، الفعالي/ (147/4). التحرير والتنوير، لطاهر بن عاشور/ (42/18).

⁹² ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (2464/4).

2.1.1.3. قريش

القمر ك 44:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾⁹³

1- فيمن نزلت:

ذكر الطبري في جامع تفسيره: "أكفاركم يا معشر قريش خير من أولئكم الذين مضوا. يقول تعالى ذكره لكفار قريش الذين أخبر الله عنهم أنهم (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) أكفاركم معشر قريش خير من أولئكم الذين أحللت بهم نعمتي من الأقوام السابقة من قوم نوح وقوم عاد وقوم ثمود وقوم لوط وآل فرعون، فهل يطمعون بأن ينجوا من عذاب الله ونقمه على كفرهم بالله تعالى، وتكذيبهم الرسول ﷺ، فيخبرهم الله تعالى إنما أنتم في كفركم بالله وتكذيبهم رسوله، كبعض هذه الأمم التي وصفت لكم أمرهم، وعقوبة الله بكم نازلة على كفركم به، كالذي نزل بهم إن لم تتوبوا وتنبهوا، ويقول الله تعالى لهم أن ليس كفاركم خيرا من قوم نوح وقوم لوط".⁹⁴

2- الإعراب

(أم) حرف استئناف للإضراب الانتقالي، (يقولون) فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، و(نحن): ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ، و(جميع): خبر مرفوع بالضممة، و(منتصر): صفة ل(جميع) مرفوعة بالضممة.⁹⁵

3- التحليل

جاء كلام كفار قريش مرسلاً عارياً عن المؤكدات، وهذا يصوّر مدى اغترارهم بقوتهم وعددهم واجتماعهم، فجعلوا انتصارهم أمراً بعيداً عن الشك أو الاعتراض عليه، وكأنّ حصوله شيء واقع لا محالة لا يحتاج إلى تعزيز لزيادة الإقناع أو

⁹³ القمر 44.

⁹⁴ جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (600/22-601).

⁹⁵ ينظر: الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود بن عبد الرحيم صافي (ت: 1376هـ) الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، 1418هـ/ (82/14).

توكيد لإزالة شك، أضف إلى ذلك صياغة هذا المعنى بجملة اسمية دالة على الثبوت والدوام، مما يزيد في توضيح الحالة النفسية التي كانوا فيها ذاك الوقت، فهذا يعطي صورة أدق لما كان قد استقرّ في أذهان كفّار قريش.

ومما يلاحظ أيضًا في كلامهم اختيار (منتصر) بحالة الأفراد، دون (منتصرون) وهو جائزٌ وواردٌ في آية أخرى، كما في قوله تعالى: {وَإِنَّا لَجَمِيعٌ خَاذِرُونَ} ⁹⁶، فأوردت الآية الكريمة لفظ (محضرون) جمعًا، وذلك أنّ كلمة (منتصر) جاءت في الآية الكريمة على سبيل مراعاة لفظ (جميع)، لأنّ (لفظه لفظ واحد ومعناه جمع فيه الكثرة، ويحتمل أن يقال: معنى ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ﴾ أن جميعاً بمعنى كل واحد، كأنّه قال: نحن كل واحد منا منتصر. كما تقول: هم جميعهم أقوياء. بمعنى أنّ كل واحد منهم قوي، وهم كلهم علماء. أي: كل واحد عالم. فترك الجمع واختار الأفراد لعود الخبر إلى كل واحد، فإنهم كانوا يقولون كل واحد منا يغلب محمدًا ﷺ، وهذا فيه معنى لطيف وهو أنهم ادعوا أن كل واحد غالب) ⁹⁷ هذا من جهة، ومن جهة أخرى ناسب مجيء "منتصر" مفردةً فاصلةً الآيات السابقة واللاحقة، مما يبرز ملمحًا جماليًا صوتيًا موسيقيًا، جعل النظم أجمل إيقاعًا وأبعد أثرًا في السامع، ومن ناحية أخرى نجد أن هذا الاختيار يساهم في رسم صورة الاغترار والاطمئنان إلى فكرة تفوقهم وقدرتهم على هزيمة المسلمين، لذلك استخدموا صيغة المفرد، التي هي أقلّ مبالغة من استخدام الجمع. ⁹⁸

أمّا ذكر لفظة (جميع) - وكان ممكنًا للمعنى أن يكون دونها، كما لو قلنا في غير القرآن (نحن منتصرون) - فقد ذكر الرازي لذكرها فائدتين فقال: "إحداهما: الكثرة، والأخرى: الاتفاق. كأنه قال: نحن كثير متفقون فلنا الانتصار، ولا يقوم غير هذه اللفظة مقامها من الألفاظ المفردة، إنّما قلنا إنّ فيه فائدتين لأنّ الجمع يدل على الجماعة بحروفه الأصلية من - ج م ع- وبوزنه وهو فعيل بمعنى مفعول، ... ويحتمل أن يقال: معناه نحن الكل لا خارج عنا، إشارةً إلى أنّ من اتّبع النبي ﷺ لا اعتداد به". ⁹⁹

⁹⁶ الشعراء 56.

⁹⁷ مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: 606هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - 1420هـ (60/29).

⁹⁸ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي/ (146/17)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (168/5). زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي/ (539/3).

⁹⁹ تفسير الرازي: مفاتيح الغيب. العلمية (60/29).

3.1.1.3. أصحاب الكهف

الكهف ك 22:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾¹⁰⁰

1- فيمن نزلت:

سيقول بعض الخائضين في أمر الفتية من أصحاب الكهف، هم ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقول بعضهم أنهم خمسة سادسهم كلبهم، قذفا ورميا بالظن غير يقين علم وهو أقرب للكذب لأن من يجزم بشيء غير متأكد منه فهو بمقام الكاذب في ادعائه، أي قذفا بالغيب، يقول عز وجل لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام بأن يقول لقائلي هذه الأقوال في عدد الفتية من أصحاب الكهف رجما منهم بالغيب أن يقول لهم: ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ﴾ أي ما يعلم عددهم إلا القليل من خلقه.¹⁰¹

2- الإعراب:

(سَيَقُولُونَ): السين: حرف للاستقبال، ويقولون: فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، والجملة مستأنفة. (ثَلَاثَةٌ): خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم مرفوع بالضممة، والجملة مقول القول. (رَابِعُهُمْ): مبتدأ مرفوع بالضممة، (كَلْبُهُمْ): خبر مرفوع بالضممة، والهاء: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه، والجملة صفة لثلاثة. (ويقولون): الواو: حرف عطف، يقولون: فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، والجملة معطوفة. (خَمْسَةٌ): خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم مرفوع بالضممة، والجملة مقول القول. (سادسهم): مبتدأ مرفوع بالضممة، (كَلْبُهُمْ): خبر مرفوع بالضممة، والهاء: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه، والجملة صفة خمسة. (ويقولون): الواو: حرف عطف، يقولون: فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، والجملة معطوفة. (سَبْعَةٌ): خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم مرفوع بالضممة، والجملة مقول القول. (وثامنهم):

¹⁰⁰ الكهف 22.

¹⁰¹ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (641/17).

الواو: للحال والافتتان، ثامنهم: مبتدأ مرفوع بالضمّة، (كَلْبُهُمْ): خبر مرفوع بالضمّة، والهاء: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه، والجملة في محل نصب حال.¹⁰²

وقيل في هذه الواو أنها واو الثمانية التي جعلها بعضهم واو للعد تأتي بعد نهاية العقد العددي - سبعة - فتفصل بها العرب بين السبعة والثمانية.

ذكر الثعلبي في تفسيره: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾¹⁰³ قال بعضهم هذه الواو واو الثمانية، وأن العرب يقولون: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، لأجل عقد العدد، لأن العقد كان عندهم سبعة كما هو اليوم عندنا عشرة، ونظيره قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾¹⁰⁴، وقوله في صفة أهل الجنة ووصف حالهم عند دخولهم الجنة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾¹⁰⁵، وقوله لأزواج النبي ﷺ: ﴿ثِيَابَ وَأَبْكَارًا﴾¹⁰⁶، فهي تأتي بعد العد إلى سبعة أو بعد العدد سبعة.¹⁰⁷

3- التحليل:

وجملة "وثامنهم كلبهم" الواو فيها واو الحال، وهي في موضع الحال من المبتدأ المحذوف المقدر بـ "هم"، أو من اسم العدد الذي هو خبر المبتدأ، وهو وإن كان نكرة، فإن وقوعه خبر عن معرفة أكسبه تعريفًا، ومن عجائب فتن الابتكار في معاني القرآن قول من زعم أن الواو بالآية هي واو الثمانية، وهو قول منسوب في كتب العربية إلى بعض ضعفة النحاة

¹⁰² إعراب القرآن الكريم، لأحمد عبيد الدعاس / (214/2).

¹⁰³ الكهف 22.

¹⁰⁴ التوبة 112.

¹⁰⁵ الزمر: 73.

¹⁰⁶ التحريم: 5.

¹⁰⁷ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت: 427هـ) تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة: 1، 1422هـ - 2002م، عدد الأجزاء 10 / (162/6-163) وينظر: الجني الداني في حروف المعاني، أبو محمد علي المرادي المصري المالكي (ت: 749هـ)، تحقيق: د فخر الدين قباوة - الأستاذ محمد نديم فاضل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: 1، سنة 1413هـ - 1992م / 167.

كما ذكر ابن هشام في كتاب مغني اللبيب؛ أن من القائلين بذلك، بعض ضعفة النحاة كابن خالويه والثعلبي من المفسرين.¹⁰⁸

وهنا ابتدأ المرجفون الكلام بالعدد ثلاثة أو خمسة أو سبعة وذلك لأن كل واحد منهم يريد إثبات ادعائه بعلمه بعدد أصحاب الكف الذين كانوا قد هربوا من بطش أهل الكفر والوثنية، فقدموا الخبر وأخروا للمبتدأ وذلك لأهميته في إعطاء المعلومة وذلك لأن موضع الخلاف ليس في الحكاية نفسها وإنما في عدد تلك الفتية ولهذا كان التركيز على الخبر والذي يتمثل في عددهم كم كان؟ وكل مدع كاذب كان يريد إظهار يقينه بذكره للعدد - الخبر - وافتتاحه جملته في كلامه، وفي ثنايا القصة التي بالآيات إنكار على من يتحدثون عن عددهم رجما بالغيب، وتوجيه للإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعده، ويترك ما ليس له به علم ويفوضه إلى الله.¹⁰⁹

والحكمة من هذا الإنذار بعد تبين كذب المدعين بعلم عددهم، هي أن تعود الأمة بترك الاشتغال بما لا يفيد، وفيما ليست منه فائدة للدين أو للناس.

2.1.3. المطلب: 2 الخبر الطلبي

1.2.1.3. الملأ من ثمود قوم صالح

المؤمنون ك 36

﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾¹¹⁰

1- فيمن نزلت:

هذا خبر من الله جل ثناؤه عن قول الملأ من ثمود أنهم قالوا: هيهات هيهات: أي بعيد ما توعدون أيها القوم، من أنكم بعد موتكم ومصيركم ترابا وعظاما مخرجون أحياء من قبوركم، يقولون: ذلك غير كائن. وهذا قمة الإنكار والتكذيب.

¹⁰⁸ ينظر: التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: 1393هـ) الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس سنة النشر: 1984م / (291/15).

¹⁰⁹ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب / (2258/4).

¹¹⁰ المؤمنون 36.

فينكرونه ويردون ذلك الخبر وصدقه، بل يجعلونه أبعد ما يمكن حدوثه، عن ابن عباس، في قوله: (هيهات هيهات)

يقول: بعيد بعيد.¹¹¹

2- الإعراب:

(هيهات) هي اسم فعل ماض بمعنى بعد، وهيهات الثاني توكيد لفظي للأول لا محل له من الإعراب (لما): اللام: حرف جر زائد، ما: حرف مصدري. (توعدون): فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع نائب فاعل، والجملة صلة،¹¹² والمصدر المؤول (ما توعدون) في محل جر لفظاً رفع محلاً فاعلاً لهيهات، مجرور باللام أي بعد وعد الرسول بإخراجكم بعد الموت، وذكر العكبري في هيهات هو اسم للفعل، وهو خبر واقع بموقع بعد. وفي فاعله وجهان، أحدهما: هو مضمَر، تقديره: بعد التصديق لما توعدون، (ما)، واللام زائدة؛ أي بعد ما توعدون من البعث.¹¹³ واختلف فيها أي فعل أم اسم فجمهور النحاة ذهبوا إلى أن (هيهات) اسم فعل للماضي من البعد، فمعنى هيهات كذا: بعد. فيكون ما يلي (هيهات) فاعلاً. وهو ما عليه أغلب النحاة، وقيل (هيهات) اسم للبعد، أي فهي مصدر جامد وهو الذي اختاره الزجاج، وقيل: هيهات ظرف غير متصرف، وهو قول المبرد.

وجملة: (هيهات.. لما توعدون) استئنافية لا محل لها، مقررة لمضمون ما سبقها من الكلام.¹¹⁴

3- التحليل:

بدأ الملاء من قوم النبي صالح عليه السلام جملتهم التكنذية باسم الفعل الذي هو في محل رفع خبر بمعنى بعد هذا الأمر بعداً كبيراً أي أنهم عبروا بهذا التعبير ليظهروا بعد ما يوعدون به، فبدأ كلامهم بخبر لدلالته على اليقين والتأكد من المعلومات التي عندهم.

¹¹¹ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري / (30/19).

¹¹² إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس / (330/2).

¹¹³ ينظر: التبيان في إعراب القرآن عبد الله العكبري / (954/2).

¹¹⁴ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي / (178/18).

وفي هيهات لغات: هيهة، وهيهة، وهيهات، وهيهات، وأيهات، وأيهات، وأيهات، وأيهات، وأيهان بكسر النون، وهيهات مثلها التي في بيت جرير حين كان يتحسر على بعد خليله:

فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الْعَقِيقُ وَمَنْ بِهِ ... وهيهات خل بالعقيق نواصله

من قصيدة له يجيب فيها الفرزدق على إحدى نقائضه¹¹⁵

"البعد لما توعدون، أو بعد لما توعدون فيمن نون، فنزله منزلة المصدر. وفيه وجه آخر وهو أن يكون اللام لبيان المستبعد ما هو بعد التصويت بكلمة الاستبعاد، كما جاءت اللام في هيت لك لبيان المهيت به، وهذا ضمير لا يعلم ما يعنى به إلا بما يتلوه من بيانه، وأصله (إن الحياة إلا حياتنا الدنيا) ثم وضع هي موضع الحياة، لأن الخبر يدل عليها ويبينها".¹¹⁶

إنهم بهذا يؤكدون استبعاد البعث والنشور بعد الموت ويؤكدون أنه لا حياة ولا بعث إلا هذه الحياة التي هم فيها، وأنهم إنما يدورون في هذين المدارين، حياة وموت، ثم موت وحياة فيموت ناس، ويولد ناس وهكذا دواليك، أما أن يبعث الموتى من قبورهم، ويعودوا إلى الحياة، فذلك ما لا تقبله عقولهم ولا يتصوره خيالهم، والإيمان بالبعث هو جزء لا يتجزأ من الإيمان بالآخرة وهو فرع من الإيمان بالله تعالى وبصفاته، فرموه بالافتراء والكذب على الله.¹¹⁷

والضمير "هي" عائد إلى ما لم يسبق في الكلام، بل عائد على مذكور بعده قصدا للإيحاء ثم التفصيل ليتمكن المعنى في ذهن السامع. وهذا من مواضع عود الضمير على ما بعده إذا كان ما بعده بيانا له، ولذلك يجعل الاسم الذي بعد الضمير عطف بيان، وأفاد صوغ الخبر في الجملة الاسمية تقوية مدلوله وتحقيقه.¹¹⁸

فهؤلاء لا يمكن أن يدركوا حكمة الحياة الكبرى ودقة التدبير في أطوارها للوصول بها إلى غايتها البعيدة والعميقة فرويتهم للحياة مجرد رؤية مادية بحثة لا روح فيها ولا عقل، فلا وعي لهم أن من خلق كل تلك الأطوار في الحياة جعل لهم تكملة

¹¹⁵ ينظر: الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: 392هـ) الناشر: الهيئة لمصرية العامة للكتاب الطبعة: الرابعة. 1991م/ (44/3).

¹¹⁶ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (187/3).

¹¹⁷ ينظر: مفاتيح الغيب التفسير الكبير، فخر الدين الرازي/ (276/23)، و روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، شهاب الدين الألوسي/ (233/9)، زهرة التفاسير، لأبي زهرة/ (344/10) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (1135/9).

¹¹⁸ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (55/18).

واستمرار لما بعد الموت لينال كل ظالم جزاءه وليأخذ كل ذي حق حقه ولينال الصابر ثمرة صبره في تلك الحياة الظالمة، لذلك هم يتعجبون ويستعجبون من ذلك الذي يعدهم أنهم مخرجون ويستبعدون في جهالة أن ذلك يكون حقاً، ويمزمون في تبجح بأنه ليس هنالك إلا حياة واحدة وميتة واحدة، ولا يقفون عند هذه الجهالة، إنما هم يتهمون الرسول بالافتراء على الله. ولا يعرفون الله إلا في هذه اللحظة، ولهذا الغرض من اتهام الرسول تكذيبه واتهامه بالكذب على الله والعياذ بالله من وقاحتهم وفريتهم.¹¹⁹ فدل تصدر كلامهم بالخبر على غرض تثبيت المعنى وترسيخه في ذهن السامع، وكأنهم يقولون ابتداء هو بعيد جداً وبعيد فيتساءل السامع وما البعيد؟ فيقولون له البعث بعد الموت.

3.1.3.3. المطلب 3: خبر إنكاري

وهو ما زاد على الخبر الطلبي؛ والطلبي هو "أن يكون المخاطب مُتَرَدِّدًا في الحكم طالبًا أن يصل إلى اليقين في معرفته، وفي هذه الحال يحسن توكيده له ليتمكن من نفسه".¹²⁰

والأهم منه والأبلغ في الدلالة على الإنكار والتكذيب هو الخبر الإنكاري وهو "أن يكون المتلقي منكراً للحكم الذي يلقي إليه، فيؤكد بمؤكد أو مؤكدين أو أكثر وفق قوة وضعف الإنكار".¹²¹

1.3.1.3.1. فرعون وقومه

يونس ك 76

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾¹²²

1- فيمن نزلت:

(فلما جاءهم الحق من عندنا) يريد فرعون وقومه (قالوا إن هذا لسحر مبين) حملوا المعجزات على السحر. قال لهم موسى: (أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) قيل: في الكلام حذف، المعنى: أتقولون للحق هذا سحر. ف"أتقولون"

¹¹⁹ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (4/2467).

¹²⁰ البلاغة الواضحة ودليل البلاغة الواضحة، علي الجارم - مصطفى أمين، الناشر: دار المعارف، مجلدات: 2، 2008 م/155.

¹²¹ ينظر: عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي، السيد أحمد الهاشمي/358.

¹²² يونس 76.

إنكار وقولهم محذوف أي هذا سحر، ثم استأنف إنكاراً آخر من قبله فقال: أسحر هذا، فحذف قولهم الأول اكتفاءً بالثاني من قولهم، منكرًا على فرعون وملئه.¹²³

2- الإعراب:

(قالوا) فعل ماضٍ مبنيٌّ على الضمِّ، وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم (إنَّ) حرف مشبَّه بالفعل - ناسخ - (ها) حرف تنبيه (ذا) اسم إشارة مبني في محلِّ نصب اسم إنَّ (اللام) المرحلة تفيد التوكيد (سحر) خبر إنَّ مرفوع (مبين) نعت لسحر مرفوع.¹²⁴

3- التحليل:

الآيات التي بعث بها موسى إلى فرعون وملئه هي الآيات التسع المذكورة في سورة الأعراف. ولكنها لا تذكر هنا ولا تفصل لأن السياق لا يقتضيها، والإجمال في هذا الموضع يغني. والمهم هو تلقي فرعون وملئه الآيات ولكنهم استكبروا وأجرموا،¹²⁵ ثم اتهموه بعد ما رأوا كل تلك الآيات وكذبوه فاتهموه بالسحر كخلاصة لتكذيبهم ذلك فلا بد لكل مكذَّب ضعيف الحجة أن يتبع تكذيبه بكذبة ليصد الحق، وإلا فهو عاجز على رد الحق بالحجج المقنعة، فلا بد له من اللعب بأحاسيس ومشاعر قومه ليوقظ فيهم النزعة العصبية ليجعلهم عمياً لا يعون ما يسمعون وما يرون فهو بكذبه يغلق عقولهم أمام التفكير السليم ويستسلموا فكرة أن الرجل ساحر، فلا حاجة بعدها للبحث في ما وراء ذلك، وهذا خبث ينتهجه أغلب المكذبين والصادقين عن الحق. فلا سبيل لهم إلا طمس الحق والحقائق بالكذب والافتراء.

بهذا التوكيد المتبجح الذي لا يستند مع هذا إلى دليل: "إن هذا لسحر مبين" كأنها جملة واحدة يتعارف عليها المكذبون في جميع العصور، فهكذا قال مشركو قريش، كما حكى عنهم في مطلع السورة، على تباعد الزمان والمكان، وعلى بعد ما بين معجزات موسى ومعجزة القرآن.¹²⁶

¹²³ ينظر الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي 17/ (366/8).

¹²⁴ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (172/11).

¹²⁵ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (1813/3).

¹²⁶ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (1820/3).

فأخبر فرعون قومه أن هذا الرجل ساحر فتلقاها قومه كما سمعوها ورددوها ولهذا نجدها ترد تارة بالجمع وتارة بالإفراد، فأيات الإفراد تدل على قول فرعون ملئه والتي ترد بصيغة الجمع تدل على ما رددته الملأ والقوم بينهم ونشروه بين الناس، وهذا الخبر إنكاري، ينكرون على موسى دعوته وينكرون سحره بأن يذكروا ما يدل على إنكارهم لدعوته ورميها بالسحر. فقد كان الفراعنة طغاة جبابة فكانوا يعتبرون أنفسهم آلهة للقبض وكانوا قد وضعوا شرائع لا تخلو عن جور، وكانوا يستعبدون الغرباء، وقد استعبدوا بني إسرائيل وأذلهم قروناً، ولم يكونوا يتقبلون من عبدهم أي فضل أو تفوق أمامهم، وعلموا أن موسى صادق فيما ادعاه، تدرجوا من مجرد الإباء المنبعث عن الاستكبار إلى البهتان المنبعث عن الشعور بالمغلوبة، والحق هو ما قابل الباطل وهو العدل الصالح الذي يطلق وصفاً على الثابت الذي لا ريب فيه، ومجيء الحق هنا هو مجازاً يقصد به الآيات التي أظهرها النبي موسى لفرعون وملئه، وكلمة الحق لها من الوقع في الدلالة على تمام المعنى المراد والمقصود، وكلمة "من عندنا" لها ما ليس لغيرها في الإيجاز والدلالة وهذا من حد الإعجاز، وهنا الآية تدل على أن المكذبين ظهرت لهم الآيات الدالة على صدق الرسالة و أنهم أيقنوا بصدق موسى وصدق رسالته وأن ما جاء به هو الحق، أما تحججهم بأن ما جاء به هو سحر، فهو حجة المغلوب العديم الحجة والمقهور بالحق وحججه البينة والمغلوب بسلطان الحق، فيلجأ إلى إنتحال معارضات بمعاذير لا تدخل تحت التمهيد ولا النقد، بل هي تم وأباطيل تطلق على المتهم، ويسهل تصديقها من طرف السامع، والسحر هو إظهار غير الحق وتخيل وتوحيه يُخدع به الناس، و مدلوله هو مدلول السحر وهو إنشاء تخيل باطل في نفوس المسحورين، وقد حملهم استشعارهم وهن معذرتهم على أن أبرزوا دعواهم في صورة الكلام المثبت صاحبه فأكدوا الكلام بما دل عليه حرف التوكيد ولام الابتداء إن هذا لسحر، وزادوا ذلك ترويجاً بأن وصفوا السحر بكونه مبيناً، أي شديد الوضوح، والإشارة بأن هذا إلى ما هو مشاهد بينهم حين إظهار المعجزة مثل انقلاب العصا حية، فأكدوا خبرهم الكاذب بحرف التوكيد إن واللام، فهم ينكرون بخبرهم هذا صحة ما جاء به ويردونه للسحر البين الواضح، بطراً منهم.¹²⁷

¹²⁷ ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم الغرناطي/ (360/1). معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي/ (144/4). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية الأندلسي/ (134/3). ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (250/11).

فبسبب تكذيبهم المستمر عذبهم الله، وهكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويحتم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم أي أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسول، وأنجى من آمن بهم، وما ذلك عن فرعون وملته وعن قريش المكذبة ببيعه.¹²⁸

2.3.1.3 - منافق بن أبي بن سلول

المنافقون م 1:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾¹²⁹

1- سبب النزول:

أخرج البخاري وغيره عن زيد بن أرقم قال سمعت عبد الله بن أبي يقول لأصحابه لا تنفقوا على من عيّد رسول الله حتى ينفضوا فلئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فذكرت ذلك لعمي فذكر ذلك للنبي ﷺ فدعاني النبي ﷺ فحدثته فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا فكذبتني وصدقه فأصابني شيء لم يصيبني قط مثله فجلست في البيت فقال عمي ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك فأنزل الله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ فبعث إلي رسول الله ﷺ فقرأها ثم قال: (إن الله قد صدقك) له طرق كثيرة عن زيد وفي بعضها أن ذلك في غزوة تبوك وأن نزول السورة ليلاً.¹³⁰ فهي في المنافق عبد الله بن أبي.

2- الإعراب:

(إذا) اسم شرط؛ غير جازم مبني على السكون في محل نصب مفعول فيه، ظرف زمان متعلق بالفعل قالوا. (جاءك): فعل ماض مبني على الفتح، والكاف: ضمير متصل مفعول به. و(المنافقون): فاعل مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم. (قالوا): فعل ماض مبني على الضم، والواو: ضمير متصل فاعل. (نشهد): فعل مضارع مرفوع بالضممة، والفاعل ضمير

¹²⁸ تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: 774هـ) تحقيق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999م / (286/4).

¹²⁹ المنافقون 1.

¹³⁰ ينظر: لباب النقول للسيوطي/266.

مستتر نحن، (إِنَّكَ): حرف مشبه بالفعل، والكاف: ضمير متصل في محل نصب اسم إن. (لرسول): اللام: اللام المرحقة حرف توكيد. ورسول: خبر إن مرفوع بالضممة والله لفظ الجلالة، مضاف إليه مجرور بالكسرة.¹³¹

3- التحليل

الآية في معرض فضح المنافقين وبيان كذبهم في ادعائهم التصديق بنبوّة محمد ﷺ وبأنّه مبعوث برسالة الإسلام. فكان كذبهم هذا ونفاقهم واضح التأثير في شكل خطابهم النبي الكريم، إذ جاء تركيباً خبرياً إنكارياً فيه مؤكّداً بالقسم و(إنّ) واللام المرحقة، وهذا مناسب إذا كان المخاطب منكراً لخبر المتكلم. في حين أنّ سياق المنطق يقتضي أن إعلان الإيمان واعتناق الإسلام والاعتراف برسالته الشريفة لا يحتاج إلى مؤكّدات، بل على العكس، إذ الإقدام على مثل هذا الفعل لا يجب أن يستدعي الشك والريبة، لأنّه أمر جديد لا اضطراب فيه. لكن (كاد المريب أن يقول: خذوني)، فبكلام المنافقين هذا يمكن أن نلمس حالتهم النفسية عند إدلائهم بهذه الشهادة، فلعلمهم أنهم كاذبون حاولوا توكيد كلامهم بالمؤكّدات، كما يمكن نستشف ما كان يدور في خلدهم وهم ينطقون به أمام النبي عليه الصلاة والسلام، فهم عارفون بأنّه عارف بنفاقهم، ومنكرٌ لاعترافهم بنبوته، لكنهم مع ذلك مصرّون على إظهار الإسلام والتصديق، وحشد ما يمكن من المؤكّدات في كلامهم ويقسمون على صحة قولهم، فالفعل (نشهد) قدي يجري مجرى الحلف في التأكيد، عساهم بذلك كله يصلون إلى خداع النبي ﷺ وأصحابه الكرام.¹³²

ومما يلاحظ أيضاً في كلامهم اختيار (نشهد) وهي من ألفاظ القسم، فيستخدم هذا الفعل مجرّداً، ومقيّداً بشبه جملة، نحو: (نشهد بالله)، لكن المنافقين آثر الصيغة المطلقة، ولم يقولوا: (نشهد بالله)، وفي ذلك تحقيق لنفاقهم، وانسجام مع تكذيبهم، واتساق مع كفرهم، إذ الحلف بالله لا يكون إلا من مؤمن، لا ممن كانت حاله من حالهم.¹³³

¹³¹ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (252-253).

¹³² ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي/ (126/8). التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم الغرناطي/ (377/2). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ابن عطية الأندلسي/ (311/5).

¹³³ ينظر: تفسير الرازي، مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير (549-546/30).

2.3. المبحث الثاني: التوكيد بحرف الجر الزائد

حروف التوكيد: هي حروف تذكر في الكلام لدفع توهم المتلقي وإبعاد الشك عنه،¹³⁴ وأشهر هذه الحروف (إِنَّ، أَنَّ، لام الابتداء، التنبيه، القسم، ونونا التوكيد، الحروف الزائدة، التكرار، أمّا الشرطية، إنما) فيؤكد الحكم في الجملة. وأما حروف الجر الزائدة فهي "ما يستغنى عنه إعراباً ولفظاً، وإنما جيء به للتوكيد"¹³⁵ ومن هذه الحروف (من، به) ويكون حرف الباء زائداً إذا سبقته واحدة من الحروف: (ليس، ما النافية، الفعل كفي فعل التعجب)، أما الحرف "من" فيكون زائداً إذا سبق إما بنفي، أو استفهام ودخل على اسم نكرة.¹³⁶

1.2.3. المشركين

الأنعام ك 29

﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾¹³⁷

1- أسباب النزول:

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المشركين، العادلين به الأوثان والأصنام، الذين ابتدأ هذه السورة بالخبر عنهم، فهو يخبر عنهم أنهم ينكرون أن الله يُحيي خلقه بعد أن يميتهم، ويقولون: "لا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور بعد الفناء". فهم بجحودهم ذلك، وإنكارهم ثواب الله وعقابه في الدار الآخرة، لا يبالون ما أتوا وما ركبوا من إثم ومعصية، لأنهم لا يرجون ثواباً على إيمان بالله وتصديق برسوله وعمل صالح بعد موت، ولا يخافون عقاباً على كفرهم بالله ورسوله وسيي من عمل يعملونه.¹³⁸

¹³⁴ ينظر: قواعد الصرف والنحو، فؤاد نعمة/54.

¹³⁵ المرجع في اللغة العربية نحوها وصرفها، علي رضا/515.

¹³⁶ ينظر: الإبداع في النحو، خالد منير/35.

¹³⁷ الأنعام 29.

¹³⁸ ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (322/11).

وكان ابن زيد يقول: هذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء الكفرة الذين وقفوا على النار: أنهم لو ردُّوا إلى الدنيا لقالوا: "إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين".

2- الإعراب:

(وقالوا): الواو: حرف عطف. قالوا: فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (إن): حرف نفي. (هي) ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ. (إلا): حرف حصر. (حياتنا): حياة: خبر مرفوع بالضممة، ونا: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه. (الدنيا): صفة للحياة مرفوعة بالضممة المقدرة على الألف. (وما): الواو: حرف عطف. وما: حرف مشبه بالفعل الناقص. (نحن): ضمير منفصل مبني في محل رفع اسم ما. (بمبعوثين): الباء: حرف جر زائد، ومبعوثين: خبر ما مجرور لفظاً منصوب محلاً، وعلامة جره الياء لأنه جمع مذكر سالم.¹³⁹

3- التحليل:

أي ما نحن بمبعوثين مرة ثانية كما كانوا يقولون قبل لا محالة فلا فائدة من إجابة طلبهم على تقدير إمكانها،¹⁴⁰ وذكر الزمخشري: وقالوا عطف على لعادوا. أي ولو ردوا لكفروا ولقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة. ويجوز أن يعطف على قوله: وإهم لكاذبون، على معنى:

وإهم لقوم كاذبون في كل شيء، وهم الذين قالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا. وكفى به دليلاً على كذبهم.¹⁴¹

ويظهر كذبهم الآية التي قبلها "بَلْ بَدَأْتُمْ مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ" الإضراب عن إرادة الإيمان المفهومة من التمني، وتأسيس لهم منها، والمعنى أنه ظهر لهم ما كانوا يخفون من نفاقهم، أو قبائح أعمالهم فتمنوا ذلك ضجراً لا عزمًا على أنهم

¹³⁹ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (116/7).

¹⁴⁰ ينظر: بيان المعاني، عبد القادر بن ملاً حويش السيد محمود آل غازي العاني (ت: 1398هـ) الناشر: مطبعة الترقى - دمشق، الطبعة: 1، 1382هـ - 1965م/ (334/3).

¹⁴¹ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (16/2).

لو ردوا لآمنوا. لأنها أمان لم تجيء إلا عن خوف وهلع من هذا الموقف الذي هم فيه، حين انكشف لهم ما كانوا يخفون من شرك بالله،

وَلَوْ رُدُّوا أَيْ إِلَى الدُّنْيَا بَعْدَ الْوُقُوفِ وَالظُّهْرِ. لَعَادُوا لِمَا كُفُّوا عَنْهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي. وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فيما وعدوا به من أنفسهم.¹⁴² فتوكيدهم بحرف الجر "ب" مجرد حركة خداع ومحاولة اظهار استحالة حدوث ذلك البعث الذي يُوعده من قبل الرسل والأنبياء، بل هم كاذبون حتى في وعدهم ذلك وتمنيهم العودة فحتى لو عادوا لأنكروا البعث، هكذا كان دينهم في الحياة الدنيا، دين يقطع أصحابه عن النظر فيما وراء هذه الحياة الدنيا التي استغواهم فيها الغي، وركبهم الضلال، فأضافوا وجودهم كله إلى هذه الأيام التي يعيشونها من مولدهم إلى موتهم.. ومن هنا أخذوا كل ما قدروا على أخذه في الحياة، بحق أو باطل، وأغرقوا أنفسهم فيما وقع لأيديهم من مطعوم أو مشروب، حلالا كان أو حراما فلا يهم فما هي إلا حياة واحدة نأخذ فيها مانريد ولا فرصة لنا في غيرها هذا هو مقال حالهم ومقال لسانهم.¹⁴³

و (إن) نافية للجنس، والضمير بعدها مبهم يفسره ما بعد الاستثناء المفرغ. قصد من إجماله الإيجاز اعتمادا على مفسره، والضمير لما كان مفسرا بنكرة فهو في حكم النكرة، وليس هو ضمير قصة وشأن، لأنه لا يستقيم معه معنى الاستثناء، والمعنى إن الحياة لنا إلا حياتنا الدنيا، أي انحصر جنس حياتنا في حياتنا الدنيا فلا حياة لنا غيرها فبطلت حياة بعد الموت، فالاسم الواقع بعد إلا في حكم البدل من الضمير.

وجملة: وما نحن بمبعوثين نفي للبعث، وهو يستلزم تأكيد نفي الحياة غير حياة الدنيا، لأن البعث لا يكون إلا مع حياة. وإنما عطفت ولم تفصل فتكون مؤكدة للجملة قبلها لأن قصدهم إبطال قول الرسول ﷺ إنهم يحيون حياة ثانية، وقوله تارة إنهم مبعوثون بعد الموت، فقصدوا إبطال كل باستقلاله. فأكدوا إنكارهم ذلك البعث بنوعيه بأداة تأكيد لنفي جنس البعث¹⁴⁴ والله تعالى يعلم أن الاعتقاد على هذا النحو يستحيل أن تنشأ في ظلله حياة إنسانية رفيعة كريمة، فهذه الآفاق الضيقة في الشعور والتصور، التي تلصق الإنسان بالأرض، وتلصق تصوره بالمحسوس منها كالبهيمة، فتطلق السعار في النفس، والتكالب على المتاع المحدود، والعبودية لهذا المتاع الصغير، كما تطلق الشهوات من عقالها تعريد وحدها بلا

¹⁴² ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (159/2).

¹⁴³ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (155/4).

¹⁴⁴ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (187/7).

كابح، ولا هدنة، ولا أمل في عوض، إن لم يقضوا شهواتهم تلك، وهذه الأنظمة والأوضاع، التي تنشأ في الأرض منظورا فيها إلى هذه الرقعة الضيقة من الزمان والمكان بلا عدل ولا رحمة، ولا قسط ولا ميزان، إلا أن يصارع الأفراد و الأجnas والطبقات بعضهم بعضا، وينطلق الكل في الغابة انطلاقا لا يرتفع كثيرا على انطلاق الوحوش والغيلان، لهذا فهم ينكرون البعث إنكارا تاما وبأدوات النفي ليثبوا فكرتهم، ويدافعوا على وجهة نظرهم ومنهجهم في الحياة الذي يعتمد على البقاء للأقوى ولا عزاء للضعيف والمظلوم.¹⁴⁵

3.3. المبحث الثالث: القسم

القسم "يكون باللفظ الصريح مثل أقسم بالله، لعمرك، يمين الله، أيمان الله أو بالأحرف مثل، واو، التاء، الباء"¹⁴⁶ ويستخدمه المتكلم لتأكيد كلامه وإبعاد الشك والنفي عنه، وجعل المخاطب في حالة استسلام وانقياد لما يقال والتصديق به، وينقسم القسم إلى قسمين: **أولا القسم الصريح**: ويستدل عليه بحرف من حروف القسم، أو يستدل عليه بفعل القسم "أقسم"، أو يستدل عليه بالحرف والفعل معا، أو يستدل عليه بلفظ من ألفاظ القسم،¹⁴⁷ اسما كان أو مصدرا "يَمِينُ الله"¹⁴⁸ **ثانيا القسم غير الصريح** أو المضمّر: وهو ما لا يعلم بمجرد لفظه كون الناطق به مقسما (كَعَلِمْتُ) فالقسم المضمّر ما لم يُذكر معه القسم صريحا أو ظاهرا ويكون على قسمين؛ قسم دلّت عليه لام القسم، كقوله تعالى: {لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ}¹⁴⁹. وقسم دلّ عليه المعنى، كقوله تعالى: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا}¹⁵⁰ وتقديره والله.¹⁵¹ والألفاظ مثل (شَهِدْتُ، وَعَلِمْتُ، وَجَاهَدْتُ، وَأَوْثَقْتُ) تستعمل في القسم المضمّر في الخبر.¹⁵²

¹⁴⁵ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (1071/2).

¹⁴⁶ ينظر دراسات في البلاغة العربية من بلاغة القرآن الكريم، محمد علوان، نعمان علون/39.

¹⁴⁷ ينظر: الأساليب الإنشائية في النحو العربي/165. وأساليب القسم في اللغة العربية/ (32-34)، وينظر إعراب الجمل وأشباه

الجمل/89، وأسلوب القسم واجتماعه مع الشروط في رحاب القرآن الكريم/123.

¹⁴⁸ كقول: امرئ القيس: يَمِينُ الله أَتْرُجُ قَاعِدًا... وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي

¹⁴⁹ آل عمران 186.

¹⁵⁰ مريم 71.

¹⁵¹ البرهان في علوم القرآن (42/3).

¹⁵² ينظر تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد/150، وجمع الهوامع/ (498/2).

1.3.3.1. المطلب 1: قسم ب بما

1.1.3.3. إبليس

الحجر ك 39

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾¹⁵³

1- فيمن نزلت:

قال إبليس: (رب بما أغويتني) بإغوائك (لأزينن لهم في الأرض) وكأن قوله (بما أغويتني) خرج مخرج القسم، كما يقال: بالله، أو بعزة الله لأغوينهم. وعنى بقوله (لأزينن لهم...) لأحسنن لهم معاصيك، ولأحببنها إليهم في الأرض (ولأغوينهم أجمعين) أي لأضلنهم عن سبيل الرشاد.¹⁵⁴

2- الإعراب:

(قَالَ): فعل ماض مبني على الفتح، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا، والجملة استئنافية. (رَبِّ): منادى بحرف نداء محذوف، منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة (بِمَا) ما مصدرية (أَغْوَيْتَنِي) ماض وفاعله والتون للوقاية والياء في محل نصب مفعول به وهو في تأويل المصدر في محل جر ومتعلقان بفعل أقسم المحذوف والجملة مقول القول (لَأُزَيِّنَنَّ) اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر (هُمْ) متعلقان بأزينن (فِي الْأَرْضِ) متعلقان بأزينن (وَأُغْوِيَنَّهُمْ) إعرابها مثل لأزينن والهاء مفعول به (أَجْمَعِينَ) توكيد للهاء وهو منصوب بالياء.¹⁵⁵

بما أغويتني الباء للقسم، و (ما) مصدرية وجواب القسم لأزينن المعنى:

¹⁵³ الحجر 39.

¹⁵⁴ ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري / (103/17).

¹⁵⁵ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس / (143/2).

أقسم بإغوائك إياي لأزينن لهم معاصيهم، ومعنى إغوائه إياه: تسببه لغيه، بأن أمره بالسجود لآدم عليه السلام، فأفضى ذلك إلى غيه - وهذا كذب وافتراء على الله - وما الأمر بالسجود إلا حسن وتعرض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك.¹⁵⁶

3- التحليل:

يقول تعالى مخبرا عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ قال بعضهم: أقسم بإغواء الله له.¹⁵⁷ إن إبليس عصى وشرذ عن أمر الله فكانت عليه اللعنة جزاء العصيان والشرود حينها تظهر وتطفو خليقة الحقد وخليقة الشر فيه، لقد طلب النظرة إلى يوم البعث لا ليندم على خطيئته في حضرة الخالق العظيم ولا ليتوب ويرجع إلى الله، أو يكفر عن إثمه العظيم، وإنما طلب الإمهال لينتقم من آدم وذريته جزاء ما لعنه الله وطرده. يربط لعنة الله له بآدم، ولا يربطها بعصيان الله في تبجح نكير فقال: "رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين"، أي كما أضللتني عن الهدى،¹⁵⁸ وبذلك حدد إبليس ساحة المعركة. إنها الأرض، وحدد عدته فيها أنها تزيين القبيح وتحميله، والإغراء بزينة المصطنعة على ارتكابه، وهكذا لا يجترح الإنسان الشر إلا وعليه من الشيطان مسحة تزينه وتحمله، وتظهره في غير حقيقته وردائه.¹⁵⁹

فأقسم بالله وبما أغواه به، فكان قسمه ووعدته زيادة كفر وعصيان فبين أنه مصر على مضيه في العصيان والكفر، ومكمل في غرقه في غضب الله، وفي قسمه تقليل أدب مع المولى عز وجل حين يجعل الأمر كأنه إغواء من الله له في حين أنه يغطي حقيقة أن أصل المشكل في عصيانه لله ورفضه لأمره الذي نفذته الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس الذي أبى، وبعد رفضه للأمر، فجعل يلوم تارة آدم أنه عدوه ولا بد له من الانتقام منه وتارة يتهم الله سبحانه وتعالى أن من أغواه بآدم.

¹⁵⁶ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (578/2).

¹⁵⁷ ينظر: تفسير القرآن العظيم، عمر بن كثير/ (535/4).

¹⁵⁸ ينظر: تنوير المقيبس من تفسير ابن عباس، يعقوب الفيروزآبادي/ (218/1).

¹⁵⁹ ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب/ (2142/4).

والباء في بما أغويتني للسببية، و (ما) موصولة، أي بسبب إغوائك إياي، أي بسبب أن خلقتني غاويا فسأغوي الناس، واللام في لأزوين لام قسم محذوف مراد بها التأكيد، وهو القسم المصرح به في قوله: قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين في سورة ص آية 82، والتزيين: التحسين، أي جعل الشيء زينا، أي حسنا. وحذف مفعول لأزوين لظهوره من المقام، أي لأزوين لهم الشر والسيئات فيرونها حسنة، وأزوين لهم الإقبال على الملاذ التي تشغلهم عن الواجبات، والإغواء: جعلهم غاوين. والغواية- بفتح الغين-: الضلال، أي: لأضلّهم.¹⁶⁰

وبهذا القسم يتحدى إبليس أبناء آدم، ويلقاهم على طرق الضلال، فيغويهم بركوبها، ويغريهم بمتابعة خطوه عليها، ويميّهم الأُمانيّ الكاذبة التي تلقى بهم بين يديه، فالباء في قوله تعالى: (بِمَا أُغْوَيْتَنِي) هي باء القسم، والتقدير بحق ما أغويتني أي أضللّني (لَأُزَيِّنَنَّ هُمْ فِي الْأَرْضِ) أي لأفتننهم بما على الأرض من أشياء، أزيناها لهم، وأغريهم بها، فيشغلون عن ذكرك، ويكفرون بنعمك، فيقعون تحت طائلة نقيمتك وعذابك، ويجوز أن تكون الباء للسببية، أي بسبب إغوائك لي، وأن تكون اللام في قوله تعالى: (لَأُزَيِّنَنَّ) لام الأمر، الداخلة على الفعل المضارع، وأن إبليس قد ألزم نفسه بهذا العمل إلزاما، ليردّ به على هذا الإغواء.¹⁶¹

2.3.3.2. المطلب 2: قسم مضمّر

1.2.3.3. إبليس

الأعراف ك 21

﴿وَقَاسِمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾¹⁶²

1- فيمن نزلت:

يعني جل ثناؤه بقوله: (وقاسمهما)، وحلف لهما، كما قال في موضع آخر: (تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ)، من سورة النمل آية 49، بمعنى تحالفوا بالله، وقوله: (إني لكما لمن الناصحين) أي: لمن ينصح لكما في مشورته لكما، وأمره إياكما بأكل

¹⁶⁰ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (50/14).

¹⁶¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (237/7).

¹⁶² الأعراف 21.

ثمر الشجرة التي نهيتهما عن أكل ثمرها، وفي خبري إياكما بما أخبركما به، من أنكما إن أكلتماه كنتما ملكين أو كنتما من الخالدين (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين)، فحلف لهما بالله حتى خدعهما، وقد يُخدع المؤمن بالله، فقال: إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما بتفاصيل لا تعرفونها، فاتبعاني أرشدكما لما يفيدكما، وكان عبد الله بن عمر يقول: "من خادعنا بالله خُدعنا له".¹⁶³ فهي نزلت في الشيطان.

2- الإعراب:

(وَقَاسَمَهُمَا): أقسم لهما، والمفاعلة هنا ليست على باهما، بل للمبالغة، ويجوز أن تبقى على باب المفاعلة كما قرر الزمخشري، كأنه قال أقسم لكما أي لمن الناصحين، وقالوا له: أتقسم بالله أنك لمن الناصحين؟ فجعل ذلك مقاسمة بينهم.¹⁶⁴ أو أقسم لهما بالنصيحة وأقسما له بقبولها، أو أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة، لأنه اجتهد فيه اجتهد المقاسم فدلاهما فنزلهما إلى الأكل من الشجرة بغرور بما غرهما به من القسم بالله.¹⁶⁵

(وَقَاسَمَهُمَا) فعل ماض والهاء مفعوله والميم والألف للتثنية والفاعل هو يعود إلى الشيطان. (إِنِّي) إن وياء المتكلم اسمها. (لَكُما) متعلقان بالناصحين بعدها. (لَمِنَ النَّاصِحِينَ) اللام هي المرحلقة (من النَّاصِحِينَ) متعلقان بمحذوف خبر إن. والجملة الاسمية (إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ) لا محل لها جواب القسم، وجملة (قَاسَمَهُمَا) معطوفة على جملة قال ما نهاكما.¹⁶⁶

دل على معنى هذه الآية نيته في الآية السابقة قوله تعالى: (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) كان حق الصراط أن يجزَّ بعلی لأن فعل قعد يتعدى بهذا الحرف، وللنحاة كلام حول انتصاب أمثاله، قال سيبويه: إنه نصب على الظرفية، ورجَّح أبو حيان انتصابه بنزع الخافض، وللعرب كلام كثير ورد على قاعدة نزع الخافض وجوازه، ولكنه سماعي لا يقاس عليه

¹⁶³ ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (351/12).

¹⁶⁴ ينظر: إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (ت: 1403هـ) الناشر: دار الإرشاد للشفون الجامعية - حم/ -

سورية، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت)، الطبعة: الرابعة، 1415 هـ/ (322/3).

¹⁶⁵ ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (95/2).

¹⁶⁶ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (355/1).

فلا يقال (جلست الخشبة) وقال الزجاج: والأسلم من كل ذلك أن نضمّن فعل القعود معنى آخر مثل (ألزم) فيتعدى بنفسه ويصبح الصراط مفعولا به.¹⁶⁷

3- التحليل:

الغرور: إظهار النصح وإبطان الغش. وغرّه غرّا وغرّة وغرورا: أي خدعه وأطمعه بالباطل

وقاسمهما وأقسم لهما إني لكما لمن الناصحين. فإن قلت: المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك، تقول: قاسمت فلانا حالفته، وتقاسما تحالفا. ومنه قوله تعالى تقاسموا بالله لنبيته.¹⁶⁸

والمقاسمة ظاهرها المشافهة. وقال بعضهم، وذكره عبد الرزاق عن وهب بن منبه، دخل الجنة في فم الحية وهي ذات أربع كالبحثية من أحسن دابة خلقها الله تعالى، بعد أن عرض نفسه على كثير من الحيوان فلم يدخله إلا الحية، فلما دخلت به الجنة خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشجرة التي نهى الله آدم وزوجه عنها فجاء بها إلى حواء فأغواها وأقسم لهما بالنصح والإرشاد إلى مفيه صلاحهما وخيرهما ولم يكن يعلم آدم أنه يمكن لمخلوق أن يقسم بالله وهو كاذب لذلك انخدع بكذب الشيطان.¹⁶⁹

أي حلف لهما بما يوهم صدقه، والمقاسمة مفاعلة من أقسم إذا حلف، حذفت منه الهمزة عند صوغ المفاعلة، كما حذفت في المكارمة، والمفاعلة هنا للمبالغة في الفعل، وليست لحصول الفعل من الجانبين، ونظيرها: عافاه الله، وجعله في (الكشاف): كأنهما قالا له تقسم بالله إنك لمن الناصحين فأقسم فجعل طلبهما القسم بمنزلة القسم، أي فتكون المفاعلة مجازا، وتأكيد إخباره عن نفسه بالنصح لهما بثلاث مؤكدات دليل على مبلغ شك آدم وزوجه في نصحه لهما، وما رأى عليهما من مخائل التردد في صدقه، وإنما شكّا في نصحه لأنهما وجدا ما يأمرهما مخالفا لما أمرهما الله الذي يعلمان إرادته بهما الخير علما حاصلا بالفطرة.¹⁷⁰

¹⁶⁷ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (373/8).

¹⁶⁸ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (95/2).

¹⁶⁹ ينظر الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي/ (313/1).

¹⁷⁰ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (60/8).

لأنه يدلّهما على أمر نهما الله عنه، وإبليس استدّل لهما على نصحه بأن الله ما نهما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وهذا إيهام منه لهما بأن الله أخفى عنهما خيرا كثيرا أو أنه إنما منعهما منها منعاً لهم عن الخير الذي يطمحان إليه وإبليس خالَج الفطرة الإنسانية فيهما ليحتال عليهما لأن الفطرة البشرية تميل إلى صفتي الخلود، أو المثالية كالملائكة لكن خفي عليهما أن البشر بصدقته وتزكيتة لنفسه بالطاعة والعبادة يمكنه أن يرقى لمنزلة أعلى من منزلة الملائكة و بدخوله الجنة يحصل على الخلود بالجنة جزاء لما قدمه بالحياة الدنيا، صحيح أن تلك الفترة لم يبدأ بعد فيها التكليف لكن مآل البشر إلى ذلك ولذلك خلقهم الله.

أقسم لهما أنه ناصح، لا يبغي إلا الخير لهما، وهكذا كل منافق، يتكثّر من الحلف، ولو لم يشك فيه أحد، إنه يشعر بما في قلبه، وما على لسانه، من كذب وزور، فيحاول جاهداً أن يؤكّده ويقويه بالآيمان، وفي قوله تعالى: (وَقاسمهما) إشارة إلى تنازع الأقسام بينه وبينهما، وكأنّ في سكوتهما عنه قسما منهما باتهامه والحذر منه، ولهذا صح أن تكون المقاسمة شركة بينهما وبينه.¹⁷¹

ووسوسة الشيطان لا ندري نحن كيف تتم لأننا لا ندري كنه الشيطان حتى ندرك كيفيات أفعاله، وكذا اتصاله بالإنسان وكيفية إغوائه. ولكننا نعلم- بالخبر الصادق وهو وحده المصدر المعتمد عندنا عن هذا الغيب- أن إغواء على الشر يقع في صورة من الصور وإيحاء بارتكاب المحظور يتم في هيئة من الهيئات. وأن هذا الإيحاء وذلك الإغواء يعتمدان على نقط الضعف الفطرية في الإنسان. وأن هذا الضعف يمكن اتقاؤه بالإيمان والذكر حتى ما يكون للشيطان سلطان على المؤمن الذاكر، فهكذا وسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما من سواتهما، فكان هذا هو هدفه لقد كانت لهما سوات، ولكنها كانت مواراة عنهما لا يرياها وسنعمل من السياق أنها سوات حسية جسدية تحتاج إلى تغطية مادية، كعوراتهما، ولكنه لم يكشف لهما هدفه بطبيعة الحال، إنما جاءهما من ناحية رغائبهما العميقة، وعلى قراءة (ملكين) بكسر اللام، التي هي من الملك، يكون الإغراء بالملك الخالد والعمر الخالد وهما أقوى شهوتين في الإنسان.¹⁷²

2.2.3.3. المشركين

¹⁷¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (381/4).

¹⁷² ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (1268/3).

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾¹⁷³

1- فيمن نزلت:

يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين برهم، الداعين إلى عبادة أوثانهم: من الذين ينجيكم "من ظلمات البر"، إذا ضللتهم فيه فتحيرتم فهي نزلت في المشركين عامة.¹⁷⁴

2- الإعراب:

(لَئِنْ) اللام: موطئة للقسم، (إن) حرف شرط جازم، (أَنْجَانَا): فعل ماض مبني على الفتحة المقدرة للتعذر، في محل جزم فعل الشرط، ونا: ضمير متصل في محل نصب مفعول به مقدم، والفاعل ضمير مستتر هو. (مِنْ): حرف جر. (هَذِهِ): اسم إشارة في محل جر بحرف الجر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. (لَنُكَوِّنَنَّ) اللام: واقعة في جواب القسم، نكونن: فعل مضارع ناقص مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، واسمه ضمير مستتر تقديره نحن. (مِنْ): حرف جر. (الشَّاكِرِينَ): اسم مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم. والجار والمجرور متعلقان بخبر نكونن المحذوف، والجملة لا محل لها جواب القسم، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، لأنه إذا اجتمع قسم وشرط فالجواب للسابق.¹⁷⁵

3- التحليل:

في قوله تعالى: ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ استفهام تقرير، مطلوب الجواب عليه، ممن يدخلون في مثل هذه التجربة القاسية، التي لا يسلم منها إنسان، في جميع أحواله وظروفه، فيقر هؤلاء الكاذبين الذين يعدون ويدعون ويتضرعون بأن يكونوا من الشاكرين والمؤمنين لكن بعد أن ينجيهم يعودوا ويرجعوا لكفرهم، وذكر ظلمات البر والبحر إشارة إلى أن الشدائد التي تصيب الإنسان في البر والبحر تشبه الظلمات، يقال يوم مظلّم، إذا حصلت فيه شدائد.

¹⁷³ الأنعام 63.

¹⁷⁴ ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (414/11).

¹⁷⁵ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (310/1).

استعيرت الظلمة للشدة لمشاركتها في الهول وإبطال الإبصار فقليل لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب، أو من الخسف في البر والغرق في البحر.

وفي قوله تعالى: (لَئِنْ أَتَجَانَا مِنْ هَذِهِ) ما يكشف عن تلك الطبائع المنكرة، وهذه القلوب القاسية، التي تأبى أن تخلص الإيمان، حتى وهي في مواجهة الموت، فلا يدعون الله دعاء من هو حاضر في نفوسهم، مستول على كيانه، بل يدعونه دعاء الغائب، البعيد عنهم (لَئِنْ أَتَجَانَا) ولم يقولوا لئن أنجيتنا، لأنهم لا يعرفونه، ولا يعلمون أنه قريب منهم، يسمع سرهم ونجواهم. ويقسمون باستخدام لام القسم.¹⁷⁶

فهنا نجد اللام الموطئة للقسم، فاجتمع القسم والشرط، فاللام موطئة ودالة على وجود قسم، "ئن" حرف شرط جازم، أنجانا فعل الشرط، ل لام جواب القسم "نكونن" لأنه متصل بالفعل المضارع، والذي أكد أن "نكونن" جواب قسم وليس جواب الشرط اتصال الفعل باللام وتوكيد الفعل بالنون، وجملة جواب القسم سدت مسد جواب الشرط. فأكدوا ووعدوا بالشكر إن أنجاهم الله، ومع ذلك أخلفوا الله ما وعدوه بمجرد اطمئنانهم ونجاتهم من الخوف والخطر.¹⁷⁷

لما كان هذا الكلام تهديدا وافتتح بالاستفهام التقريري تعين أن المقصود بضمائر الخطاب المشركون دون المسلمين. وأصرح من ذلك قوله: ثم أنتم تشركون. في الآية 64 بعدها. وجملة لئن أنجيتنا في محل نصب بقول محذوف، أي قائلين. وحذف القول كثير في القرآن إذا دلت عليه قرينة الكلام. واللام في لئن الموطئة للقسم، واللام في لنكونن لام جواب القسم. وجيء بضمير الجمع إما لأن المقصود حكاية اجتماعهم على الدعاء بحيث يدعو كل واحد عن نفسه وعن رفاقه. وإما أريد التعبير عن الجمع باعتبار التوزيع مثل: ركب القوم خيلهم، وإنما ركب كل واحد فرسا.¹⁷⁸ استعيرت الظلمة للشدة لمشاركتها في الهول وإبطال الإبصار فقليل لليوم الشديد يوم مظلم ويوم ذو كواكب، أو من الخسف في البر والغرق في البحر.¹⁷⁹

¹⁷⁶ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي/ (8/7)، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم، شهاب الدين الألوسي (170/4)، زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي/ (39/2). التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (205/4).

¹⁷⁷ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (206/4).

¹⁷⁸ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (281/7).

¹⁷⁹ ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (166/2).

فتتجلى لنا دروس من هذه الآيات، منها حلم الله على المكذبين، وعدم استجابته لاقتراحاتهم أن ينزل عليهم خارقة مادية - كأن ينزل لهم كنزا من السماء أو يفجر لهم أنهارا أو ينزل عليهم كتابا من السماء يقرؤونه - حتى لا يعجل لهم بالعذاب عند تكذيبهم بها، وتتجلى في فطرة المكذبين أنفسهم، حين يواجهون الهول فلا يدعون إلا الله لرفعه عنهم ثم هم مع ذلك يشركون، وينسون أن الله، الذي يدعونه لكشف الضر، قادر على أن يذيقهم ألوان العذاب فلا يدفعه عنهم أحد، إن تصور الخطر، وتذكر الهول، قد يردان النفوس الجامحة، ويرققان القلوب الغليظة، ويذكران النفس لحظات الضعف والإنابة كما يذكرانها رحمة الفرج ونعمة النجاة، إنها تجربة يعرفها كل من وقع في ضيقة، أو رأى المكروبين في لحظة الضيق وظلمات البر والبحر كثيرة وليست بالليل فقط بل إن التيه ظلام والخطر ظلام والخوف ظلام، إن الفطرة تتعري حينئذ من الركام فتواجه الحقيقة الكامنة في أعماقها، حقيقة الألوهية الواحدة، لكن ما تفتأ تلك الفطرة تتغطى وتُحجب برب الكافرين وعناد المشركين، بمجرد زوال تلك الكربة وتلك الظلمة يعودون لكذبهم وريبهم ويكفرون ويخلفون وعدهم الذي أقسموا لله به أن يشكروه ويخلصوا له الدين.¹⁸⁰

4.3. المبحث الرابع: أسلوب الطلب

1.4.3. المنافقون

الفتح م 15

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَاخِذُهَا ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ

اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾¹⁸¹

1 - فيمن نزلت:

¹⁸⁰ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (2/1124).

¹⁸¹ الفتح 15.

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: سيقول يا محمد المخلفون - من المنافقين - في أهلهم عن صحبتك إذا سرت معتمرا تريد بيت الله الحرام، إذا انطلقت أنت ومن صحبتك في سفرك ذلك إلى ما أفاء الله عليك وعليهم من الغنيمة (لِتَأْخُذُوا) وذلك ما كان الله وعد أهل الحديبية من غنائم خيبر (ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ) إلى خيبر، فنشهد معكم قتال أهلها (يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ) يقول: يريدون أن يغيروا وعد الله الذي وعد أهل الحديبية، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم، ووعدهم ذلك عوضا من غنائم أهل مكة إذا انصرفوا عنهم على صلح، ولم يصيبوا منهم شيئا.¹⁸²

2- الإعراب

(سَيَقُولُ): السين حرف استقبال، ويقول: فعل مضارع مرفوع بالضممة. (الْمُخَلَّفُونَ): فاعل مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم، والجملة مستأنفة. (إِذَا): اسم مبني على السكون في محل نصب مفعول فيه ظرف زمان، متعلق بالفعل يقول. (انْطَلَقْتُمْ): فعل ماض مبني على السكون، والتاء ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة في محل جر مضاف إليه. (إِلَى): حرف جر. (مَغَانِمٍ): اسم مجرور بالفتحة لأنه ممنوع بالصرف. والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. (لِتَأْخُذُوا): اللام: حرف جر للتعليل. تأخذوها: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل وعلامة نصبه حذف النون لأنه من الأفعال الخمسة. والواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل، وها: ضمير متصل في محل نصب مفعول به، والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بلام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بانطلقتم. (ذَرُونَا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل، ونا: ضمير متصل في محل نصب مفعول به. (نَتَّبِعْكُمْ): فعل مضارع مجزوم بالسكون لأنه جواب الطلب، والكاف: ضمير متصل في محل نصب مفعول به، والفاعل مستتر نحن، وجملة ذرونا: مقول القول.¹⁸³

3- التحليل:

يخبر الله تعالى عن المنافقين الهالكين عنده والمستوجبين لسخطه وعقابه. وادعوا أن المؤمنين يحسدوهم لهذا يمنعوهم من الخروج معهم، سيقول المخلفون الذين تخلفوا عن الحديبية إذا انطلقتم إلى مغام أي غنائم خيبر، أن يبدلوا كلام الله وقرئ

¹⁸² ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (215/22).

¹⁸³ إعراب القرآن الكريم، لأحمد عبيد الدعاس/ (244/3).

كلم الله، أي يريدون أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية، وذلك أنه وعدهم أن يعوضهم من مغائهم مكة ومغائهم خير إذا قفلوا مواعدين لا يصيبون منهم شيئاً.¹⁸⁴

بعد صلح الحديبية واشتداد ذلك على الصحابة لما كانوا طمعوا دخول مكة وزيارة البيت الحرام، فبشره ربه بفتح خير والغنيمة لهم، فعند ذلك لما انتهى إلى المنافقين المخلفين عن الحديبية تلك البشارة له بفتح خير عليهم - قالوا: ذرونا نتبعكم؛ فنصيب معكم الغنائم؛ وإنما رغبوا في اتباعهم معهم؛ لما علموا أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصدق فيما يخبر من البشارة له والفتح والغنيمة له بلا مؤنة قتال ولا حرب تقع هنالك، فطلبهم ليس للقتال، ولكن طمعا في الغنيمة بسهولة، ففي طلبهم كذب وخداع للمسلمين.¹⁸⁵

وقوله - عز وجل -: (يريدون أن يبدلوا كلام الله)؛ لأن البشارة بفتح خير، وجعله غنيمة لمن شهد الحديبية، فأما من تخلف عنها، فليس له في ذلك من نصيب، فأخبر الله - تعالى - أنهم يريدون أن يبدلوا ما وعد الله - تعالى - للمؤمنين الذين شهدوا الحديبية - فتح خير خاصة؛ بأن يشركوا فيها، وفي ذلك تبديل ما وعد؛ إذ لم يشهدوا هم الحديبية، والبشارة بالفتح لمن شهدوا، فأما من تخلف عنها فلا.

هو إخبار من الله سبحانه وتعالى، لما سيكون من هؤلاء المخلفين، بعد أن يلتقوا بالنبي، وقد رجع من مسيرته منتصرا غائما، من حيث قدروا الهزيمة، سيعرضون على النبي أن يقبلهم في المجاهدين إذا هو سار مسيرة كتلك المسيرة، وهذا ما يكشف عما في قلوبهم من إيمان زائف فهم إنما يكونون في المؤمنين المجاهدين، إذا كان من وراء هذا الإيمان والجهاد، سلامة ومغنم، ولكن الإيمان - في حقيقته - هو بذل، وتضحية، غير منظور فيه إلى تحصيل كسب، أو ظفر بمغنم.¹⁸⁶

ويشعر قولهم ذرونا، بأن النبي ﷺ سيمنعهم من الخروج معه إلى غزو خير لأن الله أمره ألا يخرج معه إلى خير إلا من حضر الحديبية، وقوله: نتبعكم حكاية لمقاتلتهم وهو يقتضي أنهم قالوا هذه الكلمة استنزالا لإجابة طلبهم بأن أظهروا

¹⁸⁴ ينظر: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (337/4).

¹⁸⁵ تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (ت 333هـ) المحقق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان ط الأولى، 1426هـ - 2005 م/ (303/9).

¹⁸⁶ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (166/26). وينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/

(411/13).

أنهم يخرجون إلى غزو خير كالأتباع، فطلبوا من النبي أن يقبل وجودهم بينه، وكذبهم في طلبهم هو أنهم يظهرهم أنهم مستعدون للقتال ولكنهم في الحقيقة مستعدون للمغنم وليس للقتال والجهاد وذلك دليله قوله تعالى في الآية التالية " يريدون تبديل كلام الله " أي مخالفة وحيه من الأمر والنهي والوعد كرامة للمجاهدين وتأييدا للمخلفين عن الخروج إلى الحديبية. فالمراد بكلام الله ما أوحاه إلى رسوله ﷺ من وعد أهل الحديبية بمغانم خير خاصة لهم.¹⁸⁷

القرآن لا يكتفي بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها، ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس، وهواجس القلوب، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيدا لعلاجها والطب لها، ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة، وقواعد الشعور، والتصور والسلوك.

فالمخلفون من الأعراب ممن حول المدينة سيقولون اعتذارا عن تخلفهم: (شغلتنا أموالنا وأهلونا) وليس هذا بعذر. فللناس دائما أهل وأموال. ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة، وعن الوفاء بحقها ما نخض أحد قط بها وهم ليسوا صادقين في طلبهم.¹⁸⁸

5.3. المبحث الخامس: الأمر

والأمر "هي صيغة يطلب بها على وجه التكليف والإلزام حصول شيء لم يكن حاصل وقت الطلب"¹⁸⁹، وله أربع صيغ وهي (فعل الأمر، المضارع المقرون بلام الأمر، اسم فعل الأمر، المصدر النائب عن فعل الأمر) وهي تفيد المعنى الحقيقي الذي وضعت له، لكنها تخرج إلى معاني أخرى بلاغية تفهم من سياق النظم ومنها (الدعاء، التعجيز، التهديد، النصح والارشاد، التخيير، الإباحة، الإهانة والتحقير، التسوية، التلهيف، التقويض).

1.5.3. المطلب 1: الأمر

¹⁸⁷ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي/ (325/19)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (159/16) لتحرير والتنوير، ابن عاشور/ (168/26).

¹⁸⁸ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (3321/6).

¹⁸⁹ البلاغة الواضحة علي الجارم، مكتبة لسان العرب، المكتبة العلمية، بيروت لبنان/178.

1.1.5.3. بني إسرائيل

البقرة 70

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾¹⁹⁰

1- فيمن نزلت:

قال أبو جعفر: وهذه الآية مما وبخ الله بها المخاطبين من بني إسرائيل، في نقض أوائلهم الميثاق الذي أخذه الله عليهم بالطاعة لأنبيائه، فقال لهم: واذكروا أيضا من نكنكم ميثاقي، "إذ قال موسى لقومه" - وقومه بنو إسرائيل، إذ أدارؤوا في القتل الذي قتل فيهم،¹⁹¹ وهم بنو إسرائيل زمن سيدنا موسى.

2- الإعراب:

(قَالُوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل. (ادع): فعل أمر مبني على حذف حرف العلة من آخره، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت. (لنا): اللام: حرف جرّ ونا: ضمير متصل مبني على السكون في محلّ جرّ، والجار والمجرور متعلقان بادع، (رَبِّكَ): مفعول به منصوب بالفتحة، والكاف: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه. (يُبَيِّنْ): مضارع مجزوم بالسكون لأنه جواب الطلب، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو. (لنا) اللام: حرف جرّ ونا: ضمير متصل مبني على السكون في محلّ جرّ والجار والمجرور متعلقان بيبين.¹⁹²

3- التحليل:

في هذه القصة القصيرة التي يعرضها السياق القرآني، مجال للنظر في جوانب شتى، منها دلالتها على طبيعة بني إسرائيل وجبلتهم الموروثة، وجانب دلالتها على قدرة الخالق، وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة، ويبدو لنا من خلال سياق هذه الآية معان عدة وتبين لنا طبيعة بني إسرائيل وطبعهم، فنرى انقطاع الصلة بين قلوبهم، وذلك النبع الشفيف الرقراق، نبع الإيمان بالغيب، والثقة بالله، والاستعداد لتصديق ما يأتيهم به الرسل. ثم التلكؤ في الاستجابة للتكاليف، وتلمس

¹⁹⁰ البقرة 70.

¹⁹¹ جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (182/2).

¹⁹² ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (156/1).

الحجج والمعاذير، والسخرية المنبعثة من صفاقة القلب وسلاطة اللسان. وكان أمر الله تعالى لهم بذبح بقرة عادية دون شروط تذكر، فكان هذا القول بهذه الصيغة يكفي للاستجابة والتنفيذ، فماذا كان الجواب؟ لقد كان جوابهم سفاهة وسوء أدب¹⁹³، لقد جمعوا بين الجهل والسفاهة، فأبوا أن يقولوا (ادع لنا ربنا) وقالوا: (ادع لنا ربك) وكأنه رب موسى وليس ربا لهم، وجاءت بصيغة الأمر وليس بطلب أو رجاء فيه دعاء، بل أمر كأن النبي عبد عندهم يأمرونه ليبي طلبتهم وفي نفس الوقت يماطلونه في تطبيق ما أمرهم به فعجب لأسلوبهم الوقح في التعامل مع الله وأنبيائهم وعجب لمن يرجو بعد كل هذا من اليهود حسن تعامل واحترام!؟

ومع كل هذا فقد أجابهم الله تعالى إلى ما طلبوا: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ، عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾¹⁹⁴ وقد تبههم الله على لسان نبيه أن يفعلوا ما يؤمرون به إن كانوا يعقلون وأن ينتهوا ويتوقفوا عند هذا، وألا يطلبوا وراء هذه الصفات صفات أخرى، ولكن يأبي القوم إلا أن يلبسوا بقرتهم أثوابا لا ترى.¹⁹⁵

وقوم موسى يظهرون من خطابهم لربهم ما فيهم من غلظ أفهامهم، ورقة عقولهم، وسوء أدبهم. فالأمر هو طلب الشيء من المخاطب باستعلاء أو على وجه الاستعلاء، عكس الطلب الذي يكون طلب الشيء بتودد بغرض الاستغاثة، أو العون، أو التضرع، أو استدعاء مطلوب غير حاصل في وقت الطلب. فهم كذبوا سيدنا موسى بتعاملهم ذلك وتكبروا عليه وعلى المولى سبحانه وتعالى حين أمره وكذبوه واتهموه بالهزؤ والسفاهة والتي مؤداها على الجهالة التي برأ سيدنا موسى نفسه منها حين خاطبهم قائلا: "أعوذ بالله من الجاهلين".

2.1.5.3. 2.1.5.3. فرعون

الزخرف ك 49

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرِ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾¹⁹⁶

¹⁹³ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (78/1).

¹⁹⁴ البقرة 68.

¹⁹⁵ ينظر: مفاتيح الغيب التفسير الكبير، فخر الدين الرازي/ (544/3)، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم، شهاب الدين الألوسي

(286/1)، زهرة التفاسير، لأبي زهرة/ (267/1) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (97/1).

¹⁹⁶ الزخرف 49.

1- فيمن نزلت:

وقال فرعون وملؤه لموسى: (يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ) وعنوا بقولهم "بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ" أي بعهد الذي عهد إليك أنا إن آمننا بك واتبعناك، كُشف عنا الرجز، وفي قول الله عز وجل (بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ) أي لئن آمننا ليكشفن عنا العذاب. فكذبوا على سيدنا موسى بوصفه ساحرا، ثم كذبوا بتظاهرهم ووعدهم له أنهم سيؤمنون إذا حقق لهم طلبهم ودعا لهم ربه ليرفع عنهم غضبه، فقالوا يا موسى ادع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك، ثم نقضوا عهدهم ووعدهم له بعد أن حقق لهم ما طلبوه.¹⁹⁷

2- الإعراب:

(قَالُوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل. (يَا): حرف نداء. (أَيُّهَا): منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب. (السَّاحِرُ): بدل من أي مرفوع بالضمّة. (ادْعُ): فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، والفاعل ضمير مستتر أنت. (لَنَا): اللام: حرف جرّ ونا: ضمير متصل مبني على السكون في محلّ جرّ، والجار والمجرور متعلقان بادع، (رَبِّكَ): مفعول به منصوب بالفتحة، والكاف: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه. (بِمَا): الباء: حرف جر. ما: اسم موصول مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بادع. (عَهِدَ): فعل ماض مبني على الفتح، والفاعل ضمير مستتر هو. (عِنْدَكَ): مفعول فيه ظرف مكان منصوب بالفتحة، والجملة صلة ما. (إِنَّنَا): إن: حرف مشبه بالفعل، ونا: ضمير متصل في محل نصب اسم إن. (لَمْهُتَدُونَ) اللام المزحلقة، ومهتدون: خبر إن مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم. وما بعد القول في محل نصب مقول القول.¹⁹⁸

3- التحليل:

تدل الآية على أنهم كانوا كلما نزل بهم البلاء، وأحاط بهم الكرب، جاؤوا إلى موسى يسألونه أن يرفع عنهم هذا البلاء والعذاب، على أن يؤمنوا بالله الذي يؤمن به هو، ويدعوهم إليه وفي قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ) - إشارة كاشفة عما في نفوسهم من إصرار على الكفر، وإن نطقت ألسنتهم بالإيمان فهم لا يرون في موسى إلا ساحرا كبيرا. وأنه قادر

¹⁹⁷ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (615/21).

¹⁹⁸ إعراب القرآن الكريم، لأحمد عبيد الدعاس/ (201/3).

بسحره هذا على أن يسوق إليهم البلاء، وأن يمسه إذا شاء فهم بهذه الصفة يتعاملون معه أما دعواه بأنه رسول من رب العالمين، فهذا ادعاء لم يصحّ عندهم، وإن قبلوه منه، فهو إلى أن ينكشف البلاء عنهم ثم يكفرون ويعودون لما كانوا عليه من قبل فهو أمر بدعاء رب موسى الذي لا يؤمنون به لكنهم يؤمنون بوجود أثره ويؤمنون باستجابته لعبد موسى ومع ذلك رفضوا أن يكونوا عبادا لرب موسى مع ما رأوه من الآيات وهذا قمة الطغيان.¹⁹⁹ وهكذا لم تكن الآيات التي ظهرت على يدي موسى - عليه السلام - مدعاة إيمان، وهي تأخذهم متتابعة فكل آية أكبر من أختها. مما يصدق قول الله تعالى في مواضع كثيرة، وفحواه أن الخوارق لا تهدي قلبا لم يتأهل للهدى وأن الرسول لا يسمع الصم ولا يهدي العمي، والعجب هنا فيما يحكيه القرآن عن فرعون وملئه قولهم ادع لنا ربك، فهم أمام البلاء، وهم يستغيثون بموسى ليرفع عنهم البلاء، وسألوه أن يدعو الله بكشف العذاب عنهم. ومع ذلك يقولون له: (يا أيها الساحر) ويقولون كذلك: (ادع لنا ربك بما عهد عندك) وهو يقول لهم: إنه رسول (رب العالمين) لا ربه هو وحده على جهة الاختصاص، بل رب كل الناس من الجن والإنس، ولكن لا الخوارق ولا كلام الرسول مس قلوبهم، ولا خالطتها بشاشة الإيمان.²⁰⁰

والعهد: هو الائتمان على أمر مهم، وليس مرادهم به النبوة لأنهم لم يؤمنوا به وإذا لم يعرفوا كنه العهد عبروا عنه بالموصول وصلته. والباء في قوله: بما عهد عندك متعلقة ب ادع وهي للاستعانة. ولما رأوا الآيات علموا أن رب موسى قادر، وأن بينه وبين موسى عهدا يقتضي استجابة سؤله.²⁰¹

قولهم إننا لمهتدون، وعد منوي إخلافه، وعهد معزوم على نكته، معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب. ألا ترى إلى قوله تعالى فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون فما كانت تسميتهم إياه بالساحر بمنافية لقولهم: إننا لمهتدون.²⁰²

3.1.5.3. الخواريين/ اليهود بني اسرائيل

¹⁹⁹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (142/13).

²⁰⁰ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (3193/5). وينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (227/25).

²⁰¹ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي/ (98/16)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (93/5). زاد المسير في علم التفسير،

ابن الجوزي/ (80/4). التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (228/25).

²⁰² الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (257/4).

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ

مُسْلِمُونَ﴾²⁰³

1- أسباب النزول:

مكروا، يعني كفار بني إسرائيل الذين أحس منهم الكفر، أي قتله. وذلك أن عيسى عليه السلام لما أخرجه قومه وأمه من بين أظهرهم عاد إليهم مع الخواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطئوا على الفتك به، فذلك مكروهم. ومكر الله: استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون²⁰⁴، أي ممن قالوا آمنا وهم لم يؤمنوا وكانوا كاذبين ويمكرون بالنبي.

2- الإعراب

(قال): فعل ماض مبني على الفتح. (الخواريون) فاعل مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم. (نحن): ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ، (أنصار): خبر مرفوع بالضممة. (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور بالكسرة. (آمنّا): فعل ماض مبني على السكون و(نا) ضمير متصل في محل رفع فاعل. (بالله): الباء: حرف جر، لفظ الجلالة: اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور متعلقان بآمنّا. (الواو): حرف عطف. (اشهد): فعل أمر مبني على السكون، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت. (بأنّا): الباء: حرف جرّ، أنّ: حرف مشبّه بالفعل، ونا: ضمير مبني في محل نصب اسم أنّ. (مسلمون): خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم.²⁰⁵

3- التحليل

فلما استبان له من عنادهم ولجاجهم، ومكروهم بآيات الله ومعجزاته، أنهم لن ينتفعوا بتلك الآيات، ولن يجدوا فيها طريقا يهديهم إلى الحق - لما تبين له ذلك من بني إسرائيل ولمسه لمسا واقعيا، ورأى المكر الذي مكره اليهود وهو ما بينوه من أمر المسيح، وتدبيرهم التّهم لمحاكمته، وصلبه، وإقامة شهود الزور عليه، بأنه مشعوذ، ومفتر على الله، ومدّع أنه المبعوث

²⁰³ آل عمران 52.

²⁰⁴ ينظر الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي (97/4 - 98).

²⁰⁵ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (192/3).

ملكاً على اليهود، فتظاهر اليهود بالإيمان ولم يمنعهم ذلك من أن يكيدوا للنبي عليه السلام، فكان خطابهم وامرهم بأن يكتبوا مع الشاهدين محض مداراة وتغطية لواقعهم وحقيقتهم، والأمر هنا يدل على التحضيض.²⁰⁶

لما أراهم الآيات الموعود بها، ودعاهم إلى التصديق به وطاعته، كفروا به، فلما أحس منهم الكفر قال " من أنصاري إلى الله "، أي أحس الكفر من جماعة من الذين خاطبهم بدعوته، وسمع تكذيبهم إياه وأخبر بتماثلهم عليه من المولى بالوحي. (ومنهم) متعلق بأحس، وضمير منهم عائد إلى معلوم من المقام يفسره وصف الكفر، لكن الحواريين بادروا إلى هذا الانتداب وفرعوا على ذلك الدعاء دعاء بأن يجعلهم الله مع الشاهدين أي مع الذين شهدوا لرسول الله بالتبليغ، ومع ذلك فقد خان أحدهم النبي عيسى بن مريم مع أنه كان من الحواريين وممن ادّعوا أنهم آمنوا بالله وطلبوا بأن يكتبوا مع الشاهدين. وأن يشهدوا للنبي بالصدق.²⁰⁷ وإنما طلبوا شهادته بإسلامهم تأكيداً لإيمانهم، لأن الرسل يشهدون يوم القيامة لقومهم وعليهم مع الشاهدين مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم أو مع الذين يشهدون بالوحدانية.²⁰⁸

بعد ما أراهم كل تلك المعجزات التي لا تنهياً لبشر والتي تشهد بأن الله وراءها وليست من قدرات البشر، وأن قوة الله تؤيدها، وتؤيد من جاءت على يده. ثم على الرغم من أن المسيح جاء ليخفف عن بني إسرائيل بعض القيود والتكاليف ومع ذلك رفضوا دعوته وكفروا بربه، ومكروا به كثيراً، والمكر الذي مكره اليهود الذين لم يؤمنوا برسولهم - عيسى عليه السلام - مكر طويل عريض. فقد قذفوه عليه السلام وقذفوا الطاهرة أمه مع يوسف النجار خطيبها الذي لم يدخل بها كما تذكر الأناجيل وقد اتهموه بالكذب والشعوذة ووشوا به إلى الحاكم الروماني (بيلاطس) وادّعوا أنه (مهيح) يدعو الجماهير للانتفاض على الحكومة وأنه مشعوذ يجدف ويفسد عقيدة الجماهير.²⁰⁹

2.5.3. المطلب 2: الأمر باسم الفعل

1.2.5.3. المنافقون

²⁰⁶ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (470/2).

²⁰⁷ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي / (167/4)، التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (256/3).

²⁰⁸ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري / (366/1).

²⁰⁹ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب / (402/1).

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾²¹⁰

1- فيمن نزلت:

قد يعلم الله الذين يعوقون الناس منكم عن رسول الله ﷺ فيصدونهم عنه، وعن شهود الحرب معه، نفاقا منهم، وتحديلا عن الإسلام وأهله (والقائلين لإخوانهم هلم إلينا): أي تعالوا إلينا، ودعوا محمدا، فلا تشهدوا معه مشهده، فإننا نخاف عليكم الهلاك بهلاكه (ولا يأتون البأس إلا قليلا) يقول: ولا يشهدون الحرب والقتال إن شهدوا إلا تعذيرا، ودفعنا عن أنفسهم المؤمنين، عن قتادة قوله: (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم) قال هؤلاء ناس من المنافقين كانوا يقولون لإخوانهم: ما محمد وأصحابه إلا أكلة رأس، ولو كانوا لحما لالتهمهم أبو سفيان وأصحابه، دعوا هذا الرجل فإنه هالك.²¹¹

2- الإعراب:

(إخوانهم): اللام: حرف جر، إخوان: اسم مجرور بالكسرة، والهاء: ضمير متصل في محل جر مضاف إليه، والجار والمجرور متعلقان بالقائلين. (هلم): اسم فعل أمر بمعنى تعالوا، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنتم. (إلينا): إلى: حرف جر، ونا: ضمير متصل في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بهلم. (الواو): للحال والافتزان. (لا) حرف نفي. (يأتون): فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل. (الناس): مفعول به منصوب بالفتحة. (إلا): حرف استثناء للحصر. (قليلا) مفعول مطلق نائب عن المصدر منصوب بالفتحة. (هلم) في محل نصب مفعول القول وعامله القائلين.²¹²

3- التحليل:

²¹⁰ الأحزاب 18.

²¹¹ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (230/20).

²¹² ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (143/21).

على لغة أهل الحجاز. وغيرهم يقولون: "هلموا" للجماعة، وهلمي للمرأة، لأن الأصل: "ها" التي للتنبيه ضمت إليها "لم" ثم حذفت الألف استخفافاً وبنيت على الفتح، ولم يجز فيها الضم ولا الكسر لأنها لا تنصرف، ومعنى "هلم" أقبل.²¹³

وكان يهود المدينة، من بنى قريظة وبنى النضير، في غزوة الخندق، قد حرّضوا قريشاً على حرب رسول الله ﷺ. فقد جاء إلى مكة نفر من رؤساء اليهود، وقالوا لقريش إنا سنكون معكم حتى نستأصله، ونخرجه من المدينة، فنشطت قريش لذلك، وأخذت تستعد للحرب، وتدعو لها أحلافها، فاستعدت قريش للحرب وأما اليهود، فقد استعدوا في داخل المدينة، ليأخذوا النبي والمسلمين من ظهورهم، والمعوقون: هم الذين يمسكون غيرهم عن الخروج مع المؤمنين إلى القتال، بعد أن فعلوا هذا بأنفسهم أولاً، فهم لم يخرجوا إلى القتال، ثم تَبَطَّوا غيرهم، وزينوا لهم القعود، ثم سعوا إلى تحريض الذين خرجوا للقتال وزينوا لهم الرجوع إليهم وأن يقعدوا معهم كما قعدوا هم. قائلين لهم: هَلُمَّ إِلَيْنَا أي أقبلوا إلينا، وهلم اسم فعل أمر، يلزم حالا واحدة في الأفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث، فيقال للآخرين: هلم، وللجمع: هلم.²¹⁴ وهي فعل عند بني تميم فلذلك يلحقونها العلامات يقولون: هلم وهلمي وهلمما وهلموا وهلممن. فطلبوا من إخوانهم أن يخذلوا الجيش ويرجعوا لقومهم أي انخذلوا عن جيش المسلمين وأقبلوا إلينا.²¹⁵

وهذا الأسلوب يظهر ما يخفونه من حقد وكره للمسلمين فهم فوق تخلفهم وحضهم لآخرين على القعود فلم يكتفوا بهذه الأذية فقط للمسلمين والنبي ﷺ بل تجاوزوا الأمر بأن يدعوا ويأمرؤا أصحابهم ممن خرجوا للقتال أن يرجعوا في رأيهم ويعودوا ويتركوا القتال وهذا من أقوى أشد الطعن في نفوس ومعنويات المقاتلين حين يرون من خرج معهم وظنوا أنه سيقاتل جنباً لجنب معهم، أنهم قد شقوا الصفوف ورجعوا وأعرضوا عن القتال. وهذه الدعوة بفعل الأمر بدل الأمر للدلالة على الاستعطاف والأمر الطلبي كأنهم يدعونهم لما فيه خير لهم ومصلحة ويصدونهم عن هلاكهم والمخاطر التي تترقبهم.

²¹³ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي/ (151/14).

²¹⁴ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (671/11).

²¹⁵ ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم البقاعي/ (311/15). الدر المنثور، جلال الدين السيوطي/ (580/6).

الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي/ (340/4). التحرير والتنوير، لطاهر بن عاشور/ (296/21).

ولكن الآيات تنص بتقرير علم الله المؤكد والعليم بالمعوقين الذين يسعون بالتخذيل في صفوف الجماعة المسلمة، ومحالهم وهم الذين يدعون إخوانهم إلى القعود (ولا يأتون البأس إلا قليلا) ولا يشهدون الجهاد إلا قليلا، فهم مكشوفون لعلم الله، ومكرهم بين وصفاتهم معلومة عند الله، وقد وصفهم بدقة في القرآن الكريم حتى لا يغتر بهم أحد من المؤمنين، ومشخصة في قول: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ وهي صورة شاخصة، واضحة الملامح، متحركة الجوارح، وهي في الوقت نفسه مضحكة، تثير السخرية من هذا الصنف الجبان، الذي تنطق أوصاله وجوارحه في لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوار.²¹⁶

فظهرت لنا كذبة المنافق حتى في استعماله للأسلوب الذي يسمى الأسلوب الإنشائي والذي يعرفه البلاغيون أو النحويون بأنه الأسلوب الذي لا يقبل التكذيب والتصديق، لكن الله يخبرنا بباطن ودواخل هؤلاء القوم وما نووه بذلك الأمر من تكذيب وكذب على الحق وأهله واستخفافا منهم بقدرة الله.

3.5.3. المطلب 3: أمر باللام

1.3.5.3. الكافرون من قريش

العنكبوت ك 12

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾²¹⁷

1- أسباب النزول:

وقال الذين كفروا بالله من قريش للذين آمنوا بالله منهم (اتبعوا سبيلنا) يقول: قالوا: كونوا على مثل ما نحن عليه من التكذيب بالبعث بعد الممات وجحود الثواب والعقاب على الأعمال (ولنحمل خطاياكم) يقول: قالوا فإنكم إن اتبعتم

²¹⁶ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (5/2840).

²¹⁷ العنكبوت 12.

سبيلنا في ذلك، فبعتتم من بعد الممات، وجوزيتم على الأعمال، فإننا نتحمل آثام خطاياكم حينئذ. فكذبوا على الله بادعائهم تحملهم لأثقال الآخرين، وكذبوا على أتباعهم أنهم سيعملون عنهم ثقل وإثم الكفر.²¹⁸

2- الإعراب:

(وَقَالَ): الواو حرف استئناف، قال: فعل ماض مبني على الفتح. (الَّذِينَ): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل. (كَفَرُوا) فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة صلة لا محل لها (لِلَّذِينَ): اللام حرف جر، والذين: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قال. (آمَنُوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة صلة لا محل لها من الإعراب. (اتَّبِعُوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل. (سَبِيلَنَا): مفعول به منصوب بالفتحة، ونا: ضمير متصل في محل جر مضاف إليه، والجملة مقول القول (وَلَنُحْمِلَ): الواو: حرف عطف، واللام: حرف جازم، نحمل: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر وعلامة جزمه السكون، والفاعل مستتر نحن. (خَطَايَاكُمْ) مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة للتعذر، والكاف: ضمير متصل مبني على الضمة في محل جر مضاف إليه، والجملة معطوفة على ما قبلها.²¹⁹

3- التحليل:

ومما يبتلى به المؤمنون على طريق الإيمان، هذه الفتن التي تطلع عليهم من إخوان السوء، وأهل الضلال والكفر، من الآباء والأهل والأصدقاء، حيث يزينون لهم الضلال، ويدعونهم إليه، فإذا حدثوهم عن الآخرة، وعن الحساب، هَوَّنوا عليهم الأمر، وقالوا لهم: لا تخشوا شيئا إن كان هناك آخرة، وكان حساب وجزاء، فنحن الذين دعوناكم إلى ما نحن فيه، ونحن نحمل تبعه هذا عنكم، فما أنتم إلا تبع لنا في هذا المقام ونحن نتحمل عنكم الإثم والحمل واستعملوا معهم أسلوب الأمر اتبعونا ولنحمل خطاياكم فلام الأمر في الأمر الثاني بعد الأمر بالإتيان وقد كذبهم الله سبحانه وتعالى في دعواهم تلك

²¹⁸ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (15/20).

²¹⁹ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (448/2).

بقوله تعالى: (وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) إذ كل نفس بما كسبت رهينة، وليس لإنسان أن يتولى أمر إنسان، ويحمل تبعته وذنبه.²²⁰

فصيغة أمرهم أنفسهم بالحمل أكد من الخبر عن أنفسهم بذلك، ومن الشرط وما في معناه، لأن الأمر يستدعي الامتثال فكانت صيغة الأمر دالة على تحقيق الوفاء بالحالة.

وواو العطف لجملة ولنحمل على جملة اتبعوا سبيلنا مراد منها المعية بين مضمون الجملتين في الأمر وليس المراد منه الجمع في الحصول فالجملتان في قوة جملي شرط وجزاء، والتعويل على القرينة، فكان هذا القول أدل على تأكيد الالتزام بالحالة إن اتبع المسلمون سبيل المشركين، من أن يقال: إن اتبعوا سبيلنا نحمل خطاياكم، بصيغة الشرط، أو أن يقال: اتبعوا سبيلنا فنحمل خطاياكم، بفاء السببية.

والحمل: مجاز تمثيلي لحال الملتزم بمشقة غيره بحال من يحمل متاع غيره فيقول إلى معنى الحمال والضمان، ودل قوله خطاياكم على العموم لأنه جمع مضاف وهو من صيغ العموم.

وقوله وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إبطال لقولهم ولنحمل خطاياكم، نقض العموم في الإثبات بعموم في النفي، لأن "شيء" في سياق النفي يفيد العموم لأنه نكرة، وزيادة حرف "من" تنصيص على العموم.²²¹ وقد كان الذين كفروا يقولون هذا تماشياً مع تصورهم القبلي في احتمال العشيرة للديات المشتركة والتبعات المشتركة. يحسبون أنهم قادرون على احتمال جريرة الشرك بالله عن سواهم وإعفائهم منها. فنجد في خطابهم استخفافاً بعقاب الآخرة حين يشبهونه بعقاب الدنيا مع البشر وذلك التهم على مسألة الجزاء في الآخرة يظهر في إطلاقهم: (اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم) ومن ثم يرد عليهم الرد الحاسم، فيرد كل إنسان إلى ربه فرداً، يؤاخذه بعمله، لا يحمل أحد عنه شيئاً ولا يرده، ويجيبهم بما في قولتهم هذه من كذب وادعاء، فيؤكد بأنهم كاذبون.²²²

²²⁰ ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم الغرناطي / (124/2). معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي / (235/6). والتفسير

القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (413/10).

²²¹ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (220/20).

²²² ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب / (2724/5).

6.3. المبحث السادس: النهي

تعريف: هو طلب عدم فعل شيء ويكون باستخدام حرف النهي " وللنهي حرف واحد وهو لام الجزم، كما في قولك: لا تدخل، والنهي يجري مجرى الأمر لأن أصل استعمال: لا تفعل، أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور²²³ بمعنى طلب الكف عن فعل معين بالاستعلاء والإلزام لكراهية منهية كالأمر بفعل شيء، وله أغراض بلاغية منها (الدعاء، النصح والإرشاد، التبييس، التحقير، بيان العاقبة، التوبيخ، الالتماس، الإلتئاس).

1.6.3. المطلب 1: النهي ب لا

1.1.6.3. المنافقون/ رأس النفاق

المنافقون م 7

﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾²²⁴

1- سبب التنزيل:

ذكر الواحدي في سبب النزول حديثاً طويلاً عن زيد بن أرقم حين قال: "غزونا مع رسول الله ﷺ، وكان معنا (ناس من الأعراب)، وكنا نبتدر الماء... فأتى رجل من الأنصار فأرعى زمام ناقته لتشرب، فأبى أن يدعه الأعرابي... فشج الأعرابي رأس الأنصاري، فأتى الأنصاري عبد الله بن أبي رأس المنافقين، فأخبره وكان من أصحابه، فغضب عبد الله بن أبي ثم قال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، يعني الأعراب، ثم قال لأصحابه: إذا رجعتم إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل، قال زيد بن أرقم وأنا ردف عمي: فسمعت عبد الله، فأخبرت عمي، فانطلق فأخبر رسول

²²³ مفتاح العلوم للسكاكي/320.

²²⁴ المنافقون 7.

الله... قال زيد بن أرقم: جلست في البيت لما بي من الهم والحياء، فأنزل الله تعالى سورة المنافقين في تصديقي وتكذيب
عبد الله...".²²⁵

فهي نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق.

2- الإعراب:

(يَقُولُونَ): فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. والجملة صلة. (لا): حرف
جازم. (تَنْفِقُوا): فعل مضارع مجزوم بحذف النون، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، والجملة مقول القول.
(على): حرف جر. (مَنْ): اسم موصول في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل. (عِنْدَ): مفعول فيه ظرف مكان
منصوب بالفتحة، متعلق بفعل الصلة المحذوف. (رَسُولٍ): مضاف إليه مجرور. (الله): لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور
بالكسرة.²²⁶

3- التحليل:

فكذبه حين ادعى أنهم من ينفقون على رسول الله ﷺ، والحقيقة كانت عكس ذلك، فحين حل النبي على المدينة حلت
البركة وتكاثرت الأرزاق على الأنصار والمهاجرين جميعاً، فأعلمهم الله سبحانه أن خزائن السموات والأرض له، ينفق
كيف يشاء.²²⁷

فلما بان كذب عبد الله بالوحي من الله تعالى، قيل له من قومه قد نزلت فيك آي شداد، فاذهب إلى رسول الله ﷺ
تستسمحه وتراضيه ليستغفر لك، فلوى رأسه و قال أمرتموني أن أؤمن فأمنت بالله، وأمرتموني أن أركي مالي ففعلت، فما
بقي إلا أن أسجد لمحمد، وقد قال مع قوله ذلك؛ أي نفيه للأنصار عن الإنفاق على من عند رسول الله، قال إنه الأعز
في المدينة، والأذل هم المهاجرين فبين الله له ولغيره من المنافقين ألا عزة إلا لله ولرسوله وللمؤمنين، وكم تكرر ويتكرر هذا

²²⁵ ينظر أسباب نزول القرآن للواحدي/430-433. وينظر: الصحيح من أسباب النزول، عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار

الذخاير، مؤسسة الريان، ط1 1420هـ - 1999م، بيروت لبنان/458.

²²⁶ إعراب القرآن الكريم، لأحمد عبيد الدعاس/ (346/3).

²²⁷ ينظر الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي/ (128/18).

القول من منافقي كل زمن وكل قوم نراهم يعيدون قول أبيّ حين يدعون أن العزة لأصحاب بلد ما ويتهمون المهاجرين بالمذلة والدنية فلا عزة إلا لله ولأهل الله.²²⁸

وموقع الجملة، أي موقع الآية في السورة الاستئناف الابتدائي، المبين لمكرهم وسوء نواياهم، وفي الآية، انتقالاً من وصف إعراضهم عن التقرب من الرسول - ﷺ - والاعتذار منه، إلى وصف لون آخر من كفرهم وهو الكيد للدين في صورة النصيحة.

وافتحت الجملة بالضمير الظاهر "هم" دون الاكتفاء بالمستتر في يقولون معاملة لهم بنقيض مقصودهم فإنهم ستروا كيدهم بإظهار قصد النصيحة ففضح الله أمرهم بمزيد التصريح.²²⁹

2.6.3.2. المطلب 2: النهي بلا بعد الأمر

1.2.6.3.1. منافق

التوبة م 49

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَذُنٌ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾²³⁰

1- سبب النزول:

ذكر الواحدي في كتابه أسباب النزول أنها "نزلت في (جد بن قيس المنافق)، وذلك أن رسول الله ﷺ لما تجهز (لغزوة تبوك) قال له: يا أبا وهب، هل لك في جلال بني الأصفر تتخذ منهم سراري ووصفاء؟ فقال: يا رسول الله لقد عرف قومي أنني رجل مغرم بالنساء، وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن، فلا تفتني بهن، واذن لي في القعود عنك فأعينك بمالي، فأعرض عنه النبي ﷺ، وقال: قد أذنت لك".²³¹ فأنزل الله تعالى هذه الآية، وقيل في الجد بن قيس نزلت.

²²⁸ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (543/4).

²²⁹ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (246/28).

²³⁰ التوبة 49.

²³¹ ينظر أسباب نزول القرآن للواحدي/ 252.

وأخرج الطبراني "عن ابن عباس أنه قال: لما أراد النبي ﷺ أن يخرج إلى غزوة تبوك قال للجد بن قيس: يا جد بن قيس ما تقول في مجاهدة بني الأصفر، فقال: يا رسول الله إني امرؤ صاحب نساء ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتن فائذن لي ولا تفتني، فأنزل الله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِذْنٌ لِي وَلَا تَفْتِنِي﴾ الآية. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه من حديث جابر بن عبد الله مثله، وأخرج الطبراني من وجه آخر عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: اغزوا تغنموا بنات الأصفر، فقال ناس من المنافقين: إنه ليفتنكم بالناس، فأنزل الله الآية".²³²

2- الإعراب:

(اِئْذَنْ): فعل أمر مبني على السكون، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت. (لي): اللام: حرف جر، الياء: ضمير متصل مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل، والجملة مقول القول. (ولا) الواو: حرف عطف، ولا: حرف جازم. (تَفْتِنِي): فعل مضارع مجزوم بالسكون، والنون: حرف وقاية، والياء: ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت.²³³

وذكر النحاس فيها: "أذن يأذن فإذا أمرت زدت همزة مكسورة وقبلها همزة هي فاء الفعل ولا يجتمع همتان فأبدلت من الثانية ياء لكسرة ما قبلها فقللت: ائذن لي، فإذا وصلت زالت العلة في الجمع بين همتين فهمزت فقللت: ومنهم من يقول أذن لي"،²³⁴ ورواها ورش عن نافع أنها تقرأ (اذن) بتخفيف الهمزة.

3- التحليل:

يعني أن منهم أي المنافقين من يقول أقم فلا أشخصُ معك، ولا تفتني ولا تبتلني برؤية نساء بني الأصفر وبناتهم، فلإني بالنساء مغرمٌ، فأخرج معكم وآئمٌ بذلك.²³⁵

²³² ينظر: لباب النقول للسيوطي/135.

²³³ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (460/1).

²³⁴ إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس/ (121/2). ينظر الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي/ (158/8).

²³⁵ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (286/14).

يأخذ السياق في عرض نماذج من المنافقين، ونماذج من معاذيرهم المفتراة ثم يكشف عما تنطوي عليه صدورهم من التريص بالرسول - ﷺ - وبالمسلمين، حين يطلبون ألا يفتنهم النبي، ويستأذونه عن القتال والتخلف.²³⁶ وكلامهم فيه إشعار بأنه لا محالة متخلف أذن له أم لم يأذن.²³⁷

وهذا من عجائب البلاغة القرآنية حين تظهر لنا كذبة المنافق حتى في استعماله للأسلوب الذي يسمى الأسلوب الإنشائي بالنهي، - أو كما رأينا من قبل بالأمر في كلام المنافقين - فبين الله تعالى باطنهم الخبيث ونيتهم السيئة التي يبيتونها من ذلك الكلام حيث يظهر كذبهم حتى في نهيهم للنبي ﷺ، عن أن يفتنهم فهم كذبوا في ذلك لعلمهم أن النبي ﷺ لم ولن يفتنهم وهو جاء بعكس ذلك، وليس ليفتنهم، فاتهموه أنه لو أخرجهم معه - سعيًا للهروب والفرار من الحرب والمعارك - اتهموه أنه سيفتنهم بإخراجهم لهم معه للقتال، فكذبوا على الرسول الأعظم بأن نسبوا له مثل هذه النسبة ولا فتنة إلا فتنهم لأنفسهم وفتنهم لغيرهم من ضعيفي الإيمان في كل الأزمان، لكن اللطيف هنا هو إمكانية الكذب والصدق حتى في الأسلوب الإنشائي ولهذا نرى أنه ذلك المقياس في تعريف والتفريق بين الأسلوب الإنشائي والخبري ليس صحيحًا في القرآن الكريم وحين دراسته.

7.3. المبحث السابع: النفي

1.7.3. المطلب 1: النفي ب ما

1.1.7.3. أشرف قوم نوح

المؤمنون ك 24

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾²³⁸

1- فيمن نزلت:

²³⁶ ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب/ (1664/3).

²³⁷ ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (83/3).

²³⁸ المؤمنون 24.

نزلت في جماعة أشرف قوم نوح.²³⁹ وسبق ذكر سبب النزول في صفحة 31.

2- الإعراب:

سبق ذكر إعرابها في صفحة 32.²⁴⁰

3- التحليل:

ما سمعنا بمثل هذا الكلام، أو بمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول الله، وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر، ولم يرضوا النبوة لبشر، وقولهم ما سمعنا بهذا يدل على أنهم وآباؤهم كانوا في فترة متطاوله، أو تكذبوا في ذلك لاهماكهم في الغي، وتشمرهم لأن يدفعوا الحق بما أمكنهم وبما عن لهم، من غير تمييز منهم بين صدق وكذب. ألا تراهم كيف رموه بالجنون وقد علموا أنه أرجح الناس عقلا وأوزنهم قولاً.²⁴¹

ما سمعوا بهذا الذي يدعوههم إليه نوح، من أنه لا إله لهم غير الله في القرون الماضية، وهي آباؤهم الأولون.²⁴²

ولم تذكر الآية وتفسيرها في الكثير من التفاسير منها:

معاني القرآن للزجاج، ومعاني القرآن للفراء، مجاز القرآن لمعمر بن المثنى، غريب القرآن لابن قتيبة،

تفسير التستري، وإعراب القرآن للنحاس، وأحكام القرآن للجصاص، كتاب تفسير القرآن لابن المنذر النيسابوري...

وهذا تكرر معنا مع الكثير من الآيات التي لا نجد لها تفسيراً أو تعريفاً في التفاسير.

ونفوا بحرف النفي "ما" مرتين مرة نفوا عنه أن يكون نبيا فحسروا فيه البشرية وحسروا صفاته في البشرية، ولينفوا عنه

النبوة، فاتهموه بمحبة الريادة والسيادة، أي أنه مجرد بشر يريد أن يطلب الفضل عليكم ويسودكم، ومرة نفوا سماعهم لمثل

هذا الكلام والادعاء من قبل في آبائهم وأجدادهم الأولين.²⁴³

²³⁹ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (25/19).

²⁴⁰ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (169/18). إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (327/2).

²⁴¹ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (183/3).

²⁴² ينظر: تفسير، لابن جرير الطبري/ (25/19).

²⁴³ ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (85/4).

فكبراء قومه من الكفار لا يناقشون هذه الكلمة، كلمة الحق التي لا تتبدل ولا تتغير ولا يتدبرون شواهدا، ولا يستطيعون التخلص من النظرة الضيقة المتعلقة بأشخاصهم وبشخص النبي الذي يدعوهم، ولا يرتفعون إلى الأفق الطليق الذي ينظرون منه إلى تلك الحقيقة الضخمة مجردة عن الأشخاص والذوات، وعوض أن يروا الأمور من منطلقاتها الواسعة، فإذا هم يتركون الحقيقة الكبرى التي يقوم عليها الوجود، ويشهد بها كل ما في الكون من مخلوقات، تركوا كل ذلك ليتحدثوا عن شخص نوح، فما هو إلا بشر، فنفوا عنه بذلك النبوة، وما سمعوا بهذا من قبل، فهم يحيلون الأمر إلى السوابق المألوفة لا إلى العقل المتدبر، فمثل هذا يقع دائما عند ما يطمس التقليد على القلب وحرته، وحركة الفكر، فلا يتدبر الناس فيما هو بين أيديهم من القضايا ليهتدوا إلى الحق، إنما يبحثون عن الحق في ركام السابق والماضي ويبحثون عن سابقة يستندون إليها في حكمهم على الأمور، فأن لم يجدوا تلك السابقة ردّوا وكذبوا بالحق وطرحوه، فهو إذاً كذبٌ بنظرهم مادام آباؤهم لم يسمعوا به من قبل فهو ليس صحيح وهو مجرد كذب أو به جنة فترصبوا به حتى حين ظهور كذبه وتبين بطلان ادعاءاته، فكذبوه وكذبوا دعوته، بمجرد حجج باطلة ضعيفة، فليس صفة البشرية بمانة النبوة عن أي نبيٍّ، فكل الرسل والأنبياء من البشر، وليس شرطاً لصحة الدعوة أن تكون قد سُمع بها في الأولين لأنها لو أتتهم واتبعوها لما كان هنالك نبي يرسل إليهم وهل يُرسل بالرسول إلا حين ضلال البشر وحيدهم عن الطريق الصحيح وتعطيلهم للفطرة وتوجههم للمخلوقات فيعبدهونها ويتركهم للتوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة والربوبية؟! 244

إنها فلسفة مريضة، وسفاهة عمياء، وحين يطلبون أن يكون المرسل ملكاً رسولاً إذن فالقوم كانوا يعرفون الله، ويعرفون أن الله سبحانه وتعالى ملائكة، نعم، ولكنهم كانوا أشبه بمشركي العرب، يعرفون الله هذه المعرفة المطموسة بتلك التصورات الفاسدة، فهذا هو حكمهم على نوح عليه السلام، إنه رجل مخبول، يهذى بهذا الكلام الذي يقوله لهم، ويحدثهم به عن الله، فموقفهم تجاهه هو التكذيب، وحكمتهم في تعاملهم معه هو الانتظار قليلاً، ليروا هل ما به جنون عارض سيشفى منه أم هو مرض متمكن منه ولا شفاء له منه، فيكون لهم معه شأن وتصرف آخر غير هذا. 245

244 ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب/ (4/2464).

245 ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (9/1129).

وجملة ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين مستأنفة قصدوا بها تكذيب الدعوة بعد تكذيب الداعي، فلذلك جيء بها مستأنفة غير معطوفة تنبيهها على أنها مقصودة بذاتها وليست تكملة لها قبلها، بخلاف أسلوب عطف جملة: "ولو شاء الله لأنزل ملائكة" إذ كان مضمونها من تمام غرض ما قبلها.

والإشارة بـ "هذا" إلى الكلام الذي قاله النبي نوح وليس إليه نفسه، ولما كان السماع المنفي ليس سماعاً بأذانهم لكلام في زمن آبائهم، بل المراد ما بلغ إلينا وقوع مثل هذا في زمن آبائنا، عدي فعل سمعنا بالباء لتضمينه معنى الاتصال، فجعلوا انتفاء علمهم بالشيء حجة على بطلان ذلك الشيء، وهي فلسفة باطلة، لأنه قد يكون انتفاء العلم بالشيء نابع عن تقصير في اكتساب المعلومات، أو لعدم وجود سبب يقتضي وقوع نفس العرض.²⁴⁶

2.7.3. المطلب 2: نفي بلا

1.2.7.3. الكافرون

سبأ ك 3

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾²⁴⁷

1- فيمن نزلت:

ويستعجلك يا محمد الذين جحدوا قدرة الله على إعادة خلقه بعد فنائهم ببيئتهم التي كانوا بها من قبل فنائهم من قومك بقيام الساعة؛ استهزاء بوعدهم وإياهم وتكذيباً لخبرك، قل لهم: بلى تأتاكم وربي، فسمما به لتأتينكم الساعة، ثم عاد جل جلاله بعد ذكره الساعة على نفسه، وتمجيداً فقال (عالم الغيب) وإنما وصف جل ثناؤه في هذا الموضع نفسه بعلمه الغيب إعلاماً منه خلقه أن الساعة لا يعلم وقت مجيئها أحد سواه، وإن كانت جائية فقال لنبيه محمد ﷺ: قل للذين

²⁴⁶ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (43/18).

²⁴⁷ سبأ 3.

كفروا برهم: بلى وريكم لتأتينكم الساعة، ولكنه لا يعلم وقت مجيئها أحد سوى علام الغيوب، الذي لا يعزب عنه
مثقال ذرة.²⁴⁸

2- الإعراب:

(قال): فعل ماض مبني على الفتح. (الَّذِينَ): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل. (كَفَرُوا) فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة صلة الموصول. (لا): حرف نفي. (تَأْتِينَا): فعل مضارع مرفوع بالضمة المقدرة للثقل، ونا: ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به. (السَّاعَةُ) فاعل مرفوع بالضمة، والجملة مقول القول. (قُلْ): فعل أمر مبني على السكون. (بَلَى): حرف جواب. (وَرَبِّي): الواو حرف جر وقسم، ربي: اسم مجرور بالكسرة، والياء: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه، والجار والمجرور متعلقان بفعل أقسم محذوف.²⁴⁹

3- التحليل:

(عالم الغيب) على مثال فاعل، بالرفع على الاستئناف، إذ دخل بين قوله (وري) وبين قوله (عالم الغيب) كلام حائل بينه وبينه، وهي قراءة أهل المدينة وبعض قراء البصرة والكوفة.²⁵⁰

نفى للبعث وإنكار لمجيء الساعة، أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية، كقولهم متى هذا الوعد.²⁵¹

نفوا مجيء الساعة ب حرف النفي " لا " فهي في مقام التكذيب لأنها حسب السياق كانت جوابا على إنذار النبي لهم من حساب يوم القيامة ومن أسماء يوم القيامة الساعة، فهذا رد للساعة ويوم القيامة واتيائها.

²⁴⁸ ينظر: تفسير للطبري / (349/20).

²⁴⁹ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي / (201/22). وينظر: إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس / (62/3).

²⁵⁰ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي / (260/14) تفسير للطبري / (349/20).

²⁵¹ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري / (567/3).

اقتضى هذا الإقرار من المؤمنين أن يؤمنوا بالآخرة وأن يعملوا لها، أما غير المؤمنين، فلم يقولوا هذا القول، ولم يؤمنوا بالله ولا باليوم الآخر فالصورة هي أن المؤمنون قالوا آمنا باليوم الآخر وبالساعة آتية لاريب فيها، فقال الكافرون جوابا لهم أنها لا تأتينا ولا نؤمن بها، ففي ردّهم نفى في طيه استفهام إنكاري، وكأنهم يقولون: (ألا تأتينا الساعة) مبالغة منهم في إنكارها، وفي تحدّي من يؤمن بها، وردّ النبي ﷺ عليهم هذا الزعم الباطل وتكذيبهم للبعث، فأجابهم ب: ﴿بلى وربّي ليأتينكم﴾ وبلى جواب لإثبات المستفهم عنه بالنفي، وإيجابه، فهو إنكار غليظ، في رد والتكذيب بالربوبية التي لا تنقطع فواضل إحسانها وإنعامها على الكون، وعلى الوجود، فهو عالم الغيب، ويعلم ما عليه هؤلاء الكافرون من محادة الله تعالى.²⁵²

فذكر إنكار المشركين الحشر والبعث، لأن إبطال زعمهم يعتبر من أهم مقاصد هذه السورة كما ذكر المفسرون، فقال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة﴾، الواو اعتراضية للاستطراد، وهي في الأصل واو عطف، تعطف الجملة المعترضة على ما قبلها من الكلام. ولما لم تفد إلا التشريك في الذكر دون الحكم، دعوها بالواو الاعتراضية وليست هنا للعطف لعدم تناسب بين الجملتين، وإنما جاءت المناسبة من أجزاء الجملة الأولى فكانت الثانية استطرادا واعتراضا، وتعريف المسند إليه بالموصلية لأن هذا الموصول صار كالعلم بالغلبة على المشركين في اصطلاح القرآن وتعارف المسلمين. والساعة: علم بالغلبة في القرآن يدل على يوم القيامة وساعة الحشر.

وعبر عن انتفاء وقوعها بانتفاء إتيانها على طريق الكناية لأنها لو كانت واقعة لأنت، لأن وقوعها هو إتيانها. وأجابهم ب " بلى " لإثبات إتيان الساعة، وبالقسم على ذلك للدلالة على ثقة المتكلم بأنها آتية وليس ذلك لإقناع المخاطبين، بل هو تأكيد يروع السامعين المكذبين.²⁵³

ويورد في نفس السورة عدة مشاهد للقيامة، وما فيها من تأنيب ووعيد للمكذبين بها، ومن صور العذاب الذي كانوا يكذبون به، أو يشكون في وقوعه، تأديبا لهم وتحذيرا من يوم لا ريب فيه، كهذا المشهد في، سبأ الآية 31، و51.²⁵⁴

²⁵² ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (776/11).

²⁵³ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (138/22).

²⁵⁴ ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب / (2888/5).

3.7.3. المطلب 3: النفي بـ(ليس).

1.3.7.3. قریش

الرعد ك 43

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتُ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾²⁵⁵

1- سبب النزول:

يقول تعالى ذكره أن الذين كفروا بالله من قومك يا محمد يدعون أنك لست مرسلًا تكذبا منهم لك، وجحودا لنبوتك، فقل لهم إذا قالوا ذلك: (كفى بالله شهيدا)، يعني قل حسبي الله شاهدا (بيني وبينكم)، عليّ وعليكم، بصدقي وكذبكم، ومن الصادق بيننا ومن الكاذب، ومن عنده علم من الكتاب بيننا.²⁵⁶

2- الإعراب:

(يقول): فعل مضارع مرفوع بالضممة. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل. (كفروا): فعل ماض مبني على الضم، والواو: ضمير متصل مبني على السكون في محل رفع فاعل. (لست): فعل ماض ناقص مبني على الفتح، والتاء: ضمير متصل في محل رفع اسم ليس. (مرسلًا): خبر ليس منصوب بالفتحة. جملة (كفروا): صلة الاسم الموصول لا محل لها من الإعراب. جملة (لست مرسلًا): في محل نصب مفعول به لـ(يقول).²⁵⁷

3- التحليل

تكرر ذكر تكذيب كفار قریش للنبي ﷺ في القرآن الكريم، وتنوعت أساليبهم في ذلك، منها الآية الكريمة السابقة، فهي تعرض قولاً لهم من أقوالهم في إنكار نبوة رسولنا الكريم ﷺ، وتصور مواجهة من المواجهات التي كانت بينه ﷺ وبينهم، وقد حكى الآية قولهم بصيغة المضارع ﴿وَيَقُولُ﴾ للدلالة على تجدد هذا منهم، ولاستحضار أمرهم واستمرارهم في

²⁵⁵ الرعد 43.

²⁵⁶ ينظر تفسير للطبري / (500/16).

²⁵⁷ الجدول في إعراب القرآن (275/8).

التكذيب، ثم جاء استخدام أسلوب النفي بالأداة (ليس) لنفي علاقته بالله، فقالوا: ﴿لَسْتُ مُرْسَلًا﴾، فنفوا الوصف (مرسلاً)، الذي هو اسم مفعول من مصدر الفعل (أُرْسِلَ)، وهذا نفي أكثر استمراراً، من ما لو قالوا: (ما أُرسِلْتُ)، لأنَّها في الأصل مبتدأ وخبر، وما كان ذلك شأنه فدلالته على الثبوت والاستمرار. فالكافرون ينطلقون من مبدأ واحد هو إنكار النبوة والرسالة، لذا جاء أسلوبهم منسجماً مع هذا الاعتقاد وإصرارهم عليه، لذا نجد أن الآية ذكرت بعد ذلك جواباً على قولهم هذا، يناسب هذا الإصرار، وخالياً من حجج لإثبات عكس كلامهم، إذ جاء ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾²⁵⁸، فهذا الجواب هو إثناء للمحاورة، لوضوح الإصرار على عقيدتهم، فما بين أيديهم من حجج كافية لتمييز الحق من الباطل، فمن كانت هذه حاله ولم يؤمن، فأمره إلى الله يحكم فيه.

8.3. المبحث الثامن: الاستفهام

لغة: "هو طلب الفهم ومعرفة الشيء المجهول"²⁵⁹

اصطلاحاً: "هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل بأداة مخصوصة"²⁶⁰ وهو الغرض الحقيقي ويخرج إلى أغراض بلاغية عديدة منها: (النفي، التقرير، الاستبطاء، الاهانة والتحقير، التهكم والسخرية، الوعيد والتهديد، التسوية، الإنكار، التعجب) والاستفهام يعطي الكلام قيمة إيحائية كبيرة ويضفي عليه جمالاً، فهو "أوفر أساليب الكلام معانيًا، وأوسعها تصرفاً، وأكثرها في مواقف الانفعال وروداً، ولذا ترى أساليبه تتوالى في مواطن التأثير، وحيث يراد التأثير، وهيج الشعور للاستمالة والإقناع، فإذا صحَّ القول: إن للكلام قمة عليا في البلاغة، كان أسلوب الاستفهام محتلاً أعلى مكان في تلك القمة"²⁶¹ وعند شرحنا للمعاني البلاغية التي يخرج إليها الاستفهام يستقيم المعنى عند القارئ.

1- النفي: وهو نفي الكلام بالسؤال والاستفسار وعدم إيراد المعنى الحقيقي للاستفهام كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَلْ

لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾²⁶²

²⁵⁸ الرعد 43.

²⁵⁹ دراسات في البلاغة العربية من بلاغة القرآن الكريم، محمد علوان، نعمان علون/51.

²⁶⁰ المرجع نفسه 51.

²⁶¹ فن البلاغة، عبد القادر حسين، دار غريب، القاهرة، مصر، 2006م/145-146.

²⁶² آل عمران 154.

2- التقرير: وهو جعل المخاطب يقر ويعترف بصورة من صور الاستفهام واستبعاد الإنكار والنفي كقوله تعالى:

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾²⁶³

3- التضييل والمراوغة، كما فعل فرعون مع سيدنا موسى حين غلبه وغلب السحرة فاتهم فرعون السحرة أنهم

تواطؤوا معه وأنه كبيرهم الذي علمهم السحر، فسألهم لماذا آمنتم به قبل أن آذن لكم قال تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ

آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُهُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقِطَعُونَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا تُصَلِّبُنَا فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ

أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾²⁶⁴، في رواية نافع تكتب بهمزتين ﴿ءآمنتكم له﴾ بالاستفهام.

4- التهكم والاستهزاء: "وهو إظهار السخرية وعدم المبالاة بالمتكلم عنه ولو كان إنسانا عظيما، وهذا قريب من

الإهانة والتحقير"²⁶⁵ كقوله تعالى: ﴿قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾²⁶⁶، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا

هُزُؤًا أَهْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾²⁶⁷

5- الإنكار وينقسم الإنكار إلى قسمين:

أ- التوبيخي: وهو توبيخ على فعل وقع في الماضي، ويجب أن لا يكون هذا الفعل.

ب- التكذيبي: ويكون تكذيب لأمر وقع في الماضي أو الحال والمستقبل.

6- التعجب: هو الاستغراب والاندعاش من شيء ما بصورة من صور الاستفهام.²⁶⁸

1.8.3. المطلب 1: استفهام تضييلي

1.1.8.3. الشيطان

²⁶³ النساء 141.

²⁶⁴ طه 71.

²⁶⁵ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي/60.

²⁶⁶ محمد 16.

²⁶⁷ الفرقان 41.

²⁶⁸ معاني النحو، د. فاضل صالح السامرائي الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الأردن الطبعة: 1، 1420هـ-2000م.

(36/2).

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾²⁶⁹

1- أسباب النزول:

فألقى إلى آدم الشيطان وحديثه قال له: هل أدلك على شجرة إن أكلت منها خلدت فلم تمت، وملكت ملكا لا ينقضي فيبلى. أو تكون من الخالدين فلا تموت أبدا.²⁷⁰ فالشيطان كذب على سيدنا آدم ووعدته وعودا كاذبة ليزله ويدفعه للخطأ وحينها كان سيدنا آدم عليه السلام لا يعرف أن الشيطان يكذب ولم يكن يستوعب بعد أنه يمكن أن يقسم أحد بالله وهو كاذب.

2- الإعراب:

(فَوَسْوَسَ) الفاء: حرف عطف. وسوس: فعل ماض مبني على الفتح. (إِلَيْهِ): جار ومجرور متعلقان بالفعل (وسوس). (الشَّيْطَانُ): فاعل مرفوع بالضممة الظاهرة. (قَالَ) فعل ماض مبني على الفتح، والفاعل ضمير مستتر تقديره: هو، والجملة تفسيرية لا محل لها من الإعراب. (يَا آدَمُ) يا: أداة نداء، وآدم: منادى مبني على الضم في محل نصب، والجملة: في محل نصب مفعول به. (هَلْ) حرف استفهام. (أَدُلُّكَ) فعل مضارع مرفوع بالضممة، وفاعله ضمير مستتر تقدير: أنا، والكاف: ضمير متصل في محل نصب مفعول به، (عَلَى شَجَرَةِ) جار ومجرور متعلقان بالفعل: أدلك. (الْخُلْدِ): مضاف إليه، والجملة: في محل نصب مفعول به (وَمُلْكٍ) الواو: حرف عطف، والملك: اسم معطوف على شجرة مجرور بالكسرة. (لَّا يَبْلَى) لا: حرف نفي، ويبلى: فعل مضارع مرفوع بالضممة المقدرة على آخره للتعذر، فاعله ضمير مستتر هو، والجملة: في محل جر صفة لملك.²⁷¹

3- التحليل:

²⁶⁹ طه 120.

²⁷⁰ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: 310هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: 1، 1420هـ - 2000 م عدد الأجزاء: 24 / (387/18).

²⁷¹ إعراب القرآن الكريم، أحمد عبيد الدعاس - أحمد محمد حميدان - إسماعيل محمود القاسم الناشر: دار المنير ودار الفارابي - دمشق الطبعة: 1، 1425هـ / (275/2).

لقد لمس في نفسه الموضع الحساس، فالعمر البشري محدود، والقوة البشرية محدودة. من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة وإلى الملك الطويل، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان، وآدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر، لأمر مقدور وحكمة مخبوءة، فخاطبه الشيطان بأسلوب السؤال والاستفهام لأنه يعلم أن سيدنا آدم يبحث عن ما يفقده، فاستعمل الأداة "هل" ليوهمه أن لديه سرًا ما يقدمه أو يعرضه عليك ويعرف مخبأها والسبيل إليها، فهل أدلك تعطي معنى للسامع أنه يعرف أي الشيطان يعرف أين تلك الشجرة التي فيها ما يغوي سيدنا آدم، أي هل تريد أن أدلك على الشجرة التي لو أكلت منها أصبحت خالدًا وصاحب ملك لا يبلى؟²⁷² فهي من أساليب الاستدراج للإغواء والإغراق. ودفع المخاطب للتصديق والانخداع بكذب المتكلم، بالتظاهر أن لديه معلومات لا يعلمها المخاطب والتظاهر بأنه يريد ويسعى لإفادته بها والجلود عليه بمعلومات وإفادات تجعل المخاطب بحال أفضل وأحسن، دون أن يشعر السامع ببحث ومكيدة المتكلم.

2.8.3. المطلب 2: استفهام للنفي

1.2.8.3. منافقو المدينة

آل عمران 154:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾²⁷³

1- سبب النزول:

²⁷² ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي/ (255/11)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (41/4). في ظلال القرآن لسيد قطب/ (2354/4).

²⁷³ آل عمران 154.

روي عن الزبير أنه قال: لقد رأيتني يوم أحد حين اشتد علينا الخوف، وأرسل علينا النوم، فما منا أحد إلا ذقنه في صدره، فوالله إني لأسمع كالحلم قول معتب بن قشير: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا، فحفظتها، فأنزل الله في ذلك الآية. فهي نزلت في المنافقين منافقي المدينة.²⁷⁴

2- الإعراب:

(يَقُولُونَ) فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل. (هَلْ) حرف استفهام. و(لنا) جار ومجرور متعلقان بخبر محذوف (مِنْ) حرف جر. (الْأَمْرُ): اسم مجرور بمن والجار والمجرور متعلقان بحال محذوف لشيء. (مِنْ شَيْءٍ) من: حرف جر زائد وشيء: اسم مجرور لفظاً مرفوع محلاً مبتدأ.²⁷⁵

3- التحليل:

تحليل لغوي: قوله تعالى: يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ. في الذي أخفوه ثلاثة أقوال: أحدها: أنه قولهم: (لو كنا في بيوتنا ما قتلنا هاهنا) والثاني: أنه إسرارهم الكفر، والشك في أمر الله. والثالث: الندم على حضورهم مع المسلمين بأحد،²⁷⁶ فنفسهم مليئة بالهواجس والوساوس، حافلة بالاحتجاجات والاعتراضات، وسؤالهم: (هل لنا من الأمر من شيء). يخفي وراءه شعورهم بأنهم دفعوا إلى مصير لم يختاروه وأنهم ضحية سوء القيادة، وأنهم لو كانوا هم الذين يديرون المعركة ما لاقوا هذا المصير.²⁷⁷

2.2.8.3. المنافقون

محمد 16:

²⁷⁴ ينظر تسهيل الوصول إلى معرفة أسباب النزول، الجامع بين روايات الطبري والنيسابوري وابن الجوزي والقرطبي وابن كثير والسيوطي، تصنيف الشيخ خالد عبد الرحمن العكّ، دار المعرفة، بيروت - لبنان، طبعة 1، سنة 1419 هـ، 1998م/83.

²⁷⁵ إعراب القرآن الكريم، لأحمد عبيد الدعاس/ (167/1).

²⁷⁶ ينظر زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: 597هـ) تحقيق: عبد الرزاق

المهدي الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: 1 - 1422هـ (338/1).

²⁷⁷ ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب/ (496/1).

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾²⁷⁸

1- سبب النزول:

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبي ﷺ فيسمع المؤمنون منهم ما يقول ويعونه أي ويسمعه المنافقون فلا يعونه فإذا خرجوا سألوا المؤمنين ماذا قال آنفا فنزلت: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ الآية.²⁷⁹ وهو سؤال استهزائي يظهر منهم السخرية وعدم الاهتمام بكلامه لدرجة أنهم لم يفهموا قوله أو لا يذكرونه أصلا، فنفوا الأهمية والقدسية عن كلام النبي صلى الله عليه وسلم وحيان كان بالقرآن أو حديثا شريفا.

2- الإعراب:

قالوا: فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل. (للذين): اللام حرف جر، الذين: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قال. (أوتوا): فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم المقدر على الياء المحذوفة لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل في محل رفع نائب فاعل، والجملة صلة الاسم الموصول لا محل لها. (العلم): مفعول به ثانٍ منصوب بالفتحة. (ماذا) اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدّم. (قال): فعل ماض مبني على الفتح، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو. (آنفا): مفعول فيه نائب عن ظرف الزمان منصوب بالفتحة، متعلق بالفعل قال.²⁸⁰

3- التحليل:

لفظة: (وَمِنْهُمْ) تحمل أن تكون إشارة للذين كفروا، أي الذين كان يدور الحديث عنهم في الآيات السابقة في السورة باعتبار أن المنافقين في الحقيقة فرقة من الكفار مستورة الظاهر، والله يتحدث عنها بحقيقتها في هذه الآية، كما تحمل

²⁷⁸ محمد 16.

²⁷⁹ ينظر: أسباب النزول المسمى "لباب التّقول في أسباب التّزول" لجلال الدين السيوطي، ت 911هـ، بيروت لبنان، مؤسسة الكتب الثقافية، ط 1، 1422-2002 م/234.

²⁸⁰ ينظر: الجدول في إعراب القرآن لصافي (221/26).

أن تكون إشارة للمسلمين باعتبار أن المنافقين مندمجون فيهم، متظاهرون بالإسلام معهم. وقد كانوا يعاملون معاملة المسلمين بحسب ظاهرهم، كما هو منهج الإسلام في معاملة الناس.

ولكنهم في كلتا الحالتين هم المنافقون كما تدل عليه صفتهم في الآية وفعلهم، وكما يدل السياق في هذه الآية من السورة، والحديث فيها عن المنافقين.²⁸¹

كما أنه قد يدل من جانب آخر على الغمز الخفي للثيم إذ يريدون أن يقولوا بسؤالهم هذا لأهل العلم: إن ما يقوله محمد لا يفهم، أو لا يعني شيئاً يفهم كذلك هم يعنون بهذا السؤال السخرية من احتفال أهل العلم بكل ما يقوله محمد - ﷺ - فهم يسألونهم أن يعيدوا ألفاظه التي سمعوها على سبيل السخرية الظاهرة أو الخفية. وكلها احتمالات تدل على اللؤم والخبث والانطماس والهوى الدفين لدى المنافق وسعيه جاهداً في غيظ المؤمنين وتشكيكهم في ما يؤمنون به ويجبونه ويقدسونه فهذا ديدن المنافق.²⁸²

وهو استهزاء علة لـ " قالوا " فإن الاستفهام يفيد بطريق المجاز، أو هو استفهام فهو على حقيقته و " أنفا " اسم فاعل على غير القياس أو بتجريد فعله من الزوائد لأنه لم يسمع له فعل ثلاثي، بل استأنف و ائتنف كما أشار إليه البيضاوي، وقال الزمخشري بأنه اسم للساعة التي قبل ساعتك التي أنت فيها من الأنف أي التقدم فهي تشير على تقدمها للزمان الحاضر، وهي بمعنى مؤتلفاً أي مبتدأ ومتقدماً وهو لا ينافي كونه اسم فاعل غلب على معنى الظرفية في الاستعمال كقولهم بادئ بدء.²⁸³

3.2.8.3. بني إسرائيل مع نبيهم " شمويل "

البقرة م 246

²⁸¹ ينظر: مفاتيح الغيب التفسير الكبير، فخر الدين الرازي/ (49/28)، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي/ (238/16)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (122/5).

²⁸² ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب/ (3294/6).

²⁸³ ينظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، المُسمَّاة: عناية القاضى وكفاية الرضى على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (ت: 1069هـ) دار النشر: دار صادر - بيروت، (424/8). وينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: 685هـ) تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: 1 - 1418 هـ/ (122/5).

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّهِمْ أَتَبْعُ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾²⁸⁴

﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هذا الجزء من الآية.

1- فيمن نزلت:

قال أبو جعفر: أي يا محمد، ألم تر بقلبك، فتعلم بخبري إياك، "إلى الملاء"، يعني: إلى وجوه بني إسرائيل وأشرافهم ورؤسائهم، من بعد ما قبض موسى فمات "إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله". فذكر لي أن النبي الذي قال لهم ذلك شمويل، فهي نزلت في بني إسرائيل مع نبي بعد موسى قيل إنه شمويل وقيل هو شمعون.²⁸⁵

2- الإعراب:

(قالوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل (لنبي) جازر ومجرور متعلقان بقالوا. (اللام): حرف جر. و(هم): ضمير في محل جر، وهما متعلقان بنعت محذوف لنبي. (ابعث): فعل أمر مبني على السكون. والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت. (لنا): مثل لهم، متعلقان بحال محذوفة للملك، (ملكاً): مفعول به منصوب بالفتحة. (نقاتل): مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن، (في): حرف جر. (سبيل): اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. (الله) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور. وجملة: (ابعث..) في محل نصب مقول القول.²⁸⁶

3- التحليل:

يظهر سياق الآيات حماسة بني إسرائيل للقتال في سبيل الله، فقالوا "ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله" وأي داع لنا إلى ترك القتال، وأي غرض لنا فيه وقد أخرجنا من ديارنا، لكن هذه الحماسة البالغة ما لبثت أن انطفأت شعلتها، وتهاوت على

²⁸⁴ البقرة 246.

²⁸⁵ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير الطبري/ (291/5).

²⁸⁶ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (522/2).

مراحل الطريق كما تذكر القصة وكما يقول السياق بالإجمال: (فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ). فظهر كذبهم وتظاهروهم بالشجاعة المزورة، ومع أن لبني إسرائيل طابعاً خاصاً في النكول عن العهد والإخلاف بها، والنكوص عن الوعد، والفرق في منتصف الطريق، إلا أن هذه الظاهرة هي ظاهرة بشرية على كل حال، في الجماعات التي لم تبلغ تربيتها الإيمانية مبلغاً عالياً من التدريب، لهذا فهذه الآيات عبر لابد من أن نتعلم منها ونتربى بها، لا أن ندرسها لمجرد الترف العلمي أو التبحر الفكري، فتظاهروا أنهم مستعدون للقتال لكنهم رفضوا ونكثوا بعد أول اختبار لهم، ورفضوا من وضعه واختاره الله لهم ملكاً ليقاتلوا معه ويساندوه فرفضوا واعتضوا، فأين طلبهم الذي طلبوه وأين تلك الحماسة التي أظهروها؟²⁸⁷

فقد كذبوا بادعائهم حرصهم واستعدادهم للقتال، ونفوا تراجعهم وقعودهم عن القتال بسؤال واستفهام، أو بسؤال استفهامي بغرض نفي تلك التهمة وتلك الشبهة، لإقناع المخاطب و البرهان له أنهم لن يخذلوه ولن يقعدوا عن القتال وبعدها ذكروا بعض الأسباب التي تجعلهم يفضلون أو يرجحون القتال والجهاد في سبيل الله، لكن في جوابهم نجد إدانتهم، ففي البداية طلبوا القتال في سبيل الله، لكن عند ذكر الأسباب ذكروا أسباباً شخصية ومادية محضة لا عقدية ولا دينية، فكذبهم وتظاهروهم بالاستعداد والسعي للقتال دفعهم للسؤال التساؤلي هذا، كأنهم يقولون ولماذا لا نقاتل ولماذا تظنون أننا لن نقاتل فنحن لدينا أسبابنا ودوافعنا الكافية والتي تجعلنا نقاتل دون تردد، لكن لما حصل ووصل القتال ارتعد وتراجع أغلبهم وقعدوا عن القتال.

إنهم يجدون أكثر من دافع يدفعهم إلى القتال والمقاومة، لقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم، وشردوا هم وأولادهم ونسلهم، فهل يصبر على هذا الضيم أحرار الرجال؟ ولكن أين هم الرجال؟ لقد فضحوا أنفسهم حين دخلوا في تجربة الجهاد والقتال والمواجهة والصبر، وكانوا من قبل أن يطلبوا الدخول فيها، في ستر من أمرهم، ولكن أبوا إلا بالتظاهر بالشجاعة والشوق للقتال، فزلت أقدامهم، وعفرت وجوههم في تراب الخزي والمهانة، إلا قليلاً ممن ثبتهم الله وأراد لهم السلامة والأمن والإيمان، فثبت أقدامهم، وربط على قلوبهم.²⁸⁸

²⁸⁷ ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (291/1) وظلال القرآن لسيد قطب/ (263/1).

²⁸⁸ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (305/1).

جملة: ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل، استئناف ثان من جملة ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم في البقرة آية 243، سيق مساق الاستدلال لجملة وقاتلوا في سبيل الله في الآية 190 من سورة البقرة، وفيها زيادة تأكيد لفظاعة حال التقاعس عن القتال بعد التهيؤ له في سبيل الله، والتكرير في مثله يفيد مزيداً من التحذير وتكريضا بالتوبيخ فإن المأمورين بالجهاد في قوله: وقاتلوا في سبيل الله لا يخلون من نفر تعريضهم هواجس تثبطهم عن القتال، حبا للحياة ومن نفر تعترضهم خواطر تهون عليهم الموت عند مشاهدة أكراد الحياة، ومصائب المذلة، فضرب الله لهذين الحالين مثلين: أحدهما ما تقدم في قوله: ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ والثاني قوله: ﴿ألم تر إلى الملا من بني إسرائيل﴾، وقد قدم أحدهما وآخر الآخر ليقع التحريض على القتال بينهما.

فسألوه القتال دون أن يفرض عليهم، فلما عين لهم القتال نكصوا على أعقابهم، وموضع العبرة هو التحذير من الوقوع في مثل حالهم بعد الشروع في القتال أو بعد كتبه عليهم، فله بلاغة هذا الكلام، وبراعة هذا الأسلوب تقديماً وتأخيراً، فقدم تشنيع حال الذين استسلموا فخرجوا من ديارهم مع كثرهم واستضعفوا أنفسهم وهذه الحالة أنسب أن تقدم بين يدي الأمر بالقتال والدفاع عن البيضة لأن الأمر بعدها يقع موقع القبول، أما الثانية فقد أخرجت لتمثيلها حال الذين عرفوا فائدة القتال والمبادرة له فسألوه دون أن يطلب منهم، لكن مع الأسف كان طلبهم كاذباً وغير نابع عن قناعة ومحبة وإرادة، بل نابعاً من اندفاع وتحمس فقط وتظاهر بالاستعداد للقتال وهذا كان حال أغلبهم.²⁸⁹

فقد بين الله لنا في هذا السياق وهذه القصة، كما في معظم الآيات المتعلقة باليهود، نفسية بني إسرائيل وتعنتهم، وكذبهم وخذلانهم للأنبياء، فبعد موسى اجتمع أهل الرأي فيهم إلى نبي لهم وطلبوا منه أن ينصب عليهم ملكاً ليقاتلوا تحت رايته. فقال لهم نبيهم وقد أراد أن يستوثق من صدق عزيمتهم: ألا يُنتظر منكم أن تجبئوا عن القتال إذا فرض عليكم؟ فأنكروا أن يقع ذلك منهم قائلين: وكيف لا نقاتل لاسترداد حقوقنا وقد أخرجنا العدو من أوطاننا، وتركنا أهلنا وأولادنا! فلما أجاب الله رغبتهم وفرض عليهم القتال أعرضوا عنه وتخلّفوا، إلا جماعة قليلة منهم، فكان إعراضهم وتخلّفهم هذا ظلماً منهم لأنفسهم ودينهم، والله عليم بالظالمين.

3.8.3. المطلب 3: استفهام انكاري

²⁸⁹ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (2/ 484). وتيسير التفسير لإبراهيم القطان (ت: 1404هـ) / (1/ 145).

1.3.8.3. بني إسرائيل / الفتي من قوم موسى

الفصل 19:

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَا يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾²⁹⁰

1- فيمن نزلت:

هذه السورة مكية، نزلت والمسلمون في مكة قلة مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الحول، والطول والجاه والسلطان. نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيم، نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود، ولو ضعفت في فترة ما، لكن الحق لا بد له من الظهور ولو بعد حين، وفي الآية حكاية عمّا دار بين سيدنا موسى والرجل من بني إسرائيل الذي أنقذه من قبل، فلما أراد موسى أن يبطش بالفرعوني الذي هو عدو له وللإسرائيلي، قال الإسرائيلي لموسى وقد ظن أنه إياه يريد (أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس).

وذكر الطبري أن أهل التأويل، ومنهم قتادة قالوا في تفسير الآية؛ أي خافه الذي من شيعته حين قال له موسى: (إنك لغوي مبين).

و عن السدي، قال موسى للإسرائيلي: (إنك لغوي مبين) ثم أقبل لينصره، فلما نظر إلى موسى قد أقبل نحوه ليطش بالرجل الذي يقاتل الإسرائيلي، (قال) الإسرائيلي، وفرق من موسى أن يبطش به من أجل أنه أغلظ له الكلام: (يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين) فتركه موسى، وكان من فعل الجبابة: قتل النفوس ظلما، بغير حق، فاتهمه أنه قاتل ظالم مفسد بالأرض مع أنه يعلم أنه هو من أنقذه وهو من وقف معه ونصره فكذب عليه بمجرد شكه أنه سيبطش به وهذه من عادات بني إسرائيل،²⁹¹

الاتهام بالبهتان والكذب ورمي الصالحين بالسوء وما ليس فيهم من أخلاق.

²⁹⁰ القصص 19.

²⁹¹ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (544/19).

2- الإعراب:

المصدر المؤول (أن يبطش) في محلّ نصب مفعول به عامله أراد والفاعل مستتر تقديره هو، (قال) فعل ماضي مبني على الفتح، والفاعل: ضمير مستتر هو، (موسى): منادى مفرد علم مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف للتعذر، في محل نصب. (الهمزة): للاستفهام الإنكاريّ. (أن تقتلني) المصدر المؤول في محلّ نصب مفعول به لتريد، (كما): الكاف: اسم بمعنى مثل مبني على الفتح في محل نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر. (ما) حرف مصدريّ. (قتلت): فعل ماض مبني على السكون، والتاء ضمير متصل في محل رفع فاعل. والجملة: صلة الحرف المصدري لا محل لها، والمصدر المؤول في محلّ جرّ مضاف إليه.²⁹²

3- التحليل:

اتهم النبي موسى بالمباشرة في القتل، واتهمه أنه يريد قتله بدون وجه حق دون أن يتبين أو يتأكد، مع أن النبي موسى كان يريد نصره ومساعدته، لكنه رماه واتهمه بالقتل والاعتداء والفساد في نفس اللحظة التي كان هو يريد مساعدته ونصرته فيها ومع أنه نصره قبلها لكن ذلك لم يشفع له عند ذلك الإسرائيلي.

الجانب الثاني في الآية هو إصاق تهمة ثانية بالنبي موسى وهو أنه يريد قتل الرجل اليوم كما قتل الآخر بالأمس فأظهر للناس والسامعين أن النبي قاتل مع أنه يعرف أنه كان قتل خطأ لكن الخطاب كان يتضمن تهمة بالقتل العمد وفوق ذلك جعل الغاية هي الفساد والتجبر بالأرض.²⁹³

وفي الآية السابقة (القصص 18) يظهر استنصار الكاذب بسيدنا موسى، ونجد استخدام "إذا" و (إذا) للمفاجأة، أي ففاجأه أن الذي استنصره بالأمس يستنصره اليوم²⁹⁴ ففي سؤاله الاستنكاري يتهم النبي بالقتل العمد، مع أنه كان قتل

²⁹² الجدول في إعراب القرآن، صافي / (238/20).

²⁹³ الدر المنثور، جلال الدين السيوطي / (400-402). الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي / (267/4). مفاتيح الغيب

التفسير الكبير، فخر الدين الرازي / (587/24).

²⁹⁴ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (93/20).

خطأ بعد وكزه إياه، ويتهمة بالفساد والتجبر في الأرض، فهذا الأسلوب التساؤلي الإنكاري يفيد الاتهام وإلصاق التهمة بالمخاطب وليس سؤالاً يريد منه جواباً.

2.3.8.3. المشركون

الأحقاف 17

﴿وَالَّذِي قَالَ لُؤَالِدٍ أُفٍّ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَكْبِرَانِ اللَّهُ وَبَلَّكَ آمِنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَخَفِيٌّ قَوْلُهُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾²⁹⁵

1- سبب النزول:

الآية لا تعني شخصاً معيناً وإنما المراد منها فريق أسلم آبائهم ولم يسلموا حينئذ، نسب مروان بن عبد الملك إلى عبد الرحمن بن أبي بكر أن الآية نزلت فيه ﴿وَالَّذِي قَالَ لُؤَالِدٍ أُفٍّ لَكُمْ﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب أن الله لم ينزل فيهم شيئاً من القرآن إلا عذرها يوم برأها من حادثة الإفك، وروي عن مكّي أنه سمع عائشة تنكر أن تكون الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر وسمت رجلاً قالت أن الآية نزلت فيه، فقال الحافظ بن حجر معلقاً على هذه الحادثة أن نفى أمنا عائشة أولى بالقبول و أصح إسناداً، وقيل هي في الكافر العاق لوالديه، المكذب بالبعث، وفي كل الأحوال فهي قد نزلت في مشرك²⁹⁶ في حال إشراكه، أو نزلت في عموم المشركين الذين أسلم آبائهم من قبلهم فأنكروا عليهم.

2- الإعراب:

(أَتَعِدَانِي): الهمزة: حرف استفهام. تعداني: فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة، وألف الاثنين: في محل رفع فاعل. النون الثاني: حرف للوقاية، والياء: ضمير متصل في محل نصب مفعول به أول. (أَنْ أُخْرَجَ): أن: حرف ناصب مصدر. أخرج: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب، والمصدر المؤول في محل نصب مفعول به ثان لتعدان. (وَقَدْ خَلَتِ) الواو: للحال والافتتان. قد: حرف تحقيق، (خلت): فعل ماض مبني على الفتح

²⁹⁵ الأحقاف 17.

²⁹⁶ ينظر: لباب النقول للسيوطي/233.

المصدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين. (الْقُرُونُ): فاعل مرفوع بالضممة الظاهرة. (مَنْ قَبْلِي) متعلقان بخلت والجمله في محل نصب حال.²⁹⁷

3- التحليل:

هذه الآية بيان لصنفٍ من الأبناء، وهم الذين مضوا في عقوبتهم لأبويهم إلى آخر أيام حياتهم، فلم يكن لهم عند بلوغهم غاية ما يبلغه الإنسان من كمال عقلي، وتوازن شعوري، لم يكن لهم عند هذا واعظ من أنفسهم، يعظهم، وقيم وجوههم على الطريق القويم، ويجعلهم يسلكون ذلك الطريق، ثم إنه ليس مجرد التقصير في حق الأبوين فقط، بل تجاوز هذا إلى العدوان عليهما، فيلقاهما بهذا الردع والزجر، و يظهر تضجره وانزعاجه من كلامهما ودعوتهما له إلى اتباع ما يتبعاه، لظنه أنه ضلال أو كلام لا جدوى منه،²⁹⁸ استفهام إنكاري، ينكر به هذا الابن الضال العاق، على والديه أن يدعوا إلى الإيمان بالله، وأن يحدثاه عن البعث والحياة بعد الموت، وأن هذا أمر لا يصدق عقل، وقد مضت القرون، ولم يبعث الموتى من قبورهم، فكيف يكون هناك بعث؟ فيتحجج ويتساءل عن القرون الماضية، بسؤال إنكاري، هل تعداني أي سأخرج بعد موتي وأحاسب وقد خلت قبلي أمم ولم يحاسب منهم أحد، ولو كان ذلك أمرا كائنا لبعث الذين ماتوا من آلاف السنين.. هذا هو منطق الضالين الأغبياء.²⁹⁹

3.3.8.3. ثمود ثوم صالح

القمر 25:

﴿الَّذِي الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ﴾³⁰⁰

1- فيمن نزلت:

²⁹⁷ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس / (226/3).

²⁹⁸ ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي / (259/77). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي / (99/5).

التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (277/13).

²⁹⁹ ينظر: إيجاز البيان عن معاني القرآن، نجم الدين النيسابوري / (744/2)، والتفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب /

(278/13).

³⁰⁰ القمر 25.

يقول تعالى مخبراً عن قيل مكذّبي رسوله صالح ﷺ من قومه ثمود متسائلين استهزاءً ألقى عليه الذكر من بيننا، يعنون بذلك: أنزل الوحي عليه وخصّ بالنبوة من بيننا وهو واحد منا، إنكاراً منهم أن يكون الله يُرسل رسولا من بني آدم، قالوا: ما ذلك كذلك، بل هو كذاب أشتر، يعنون بالأشتر: المرح ذاك التجبر والكبرياء، فاتهموه بالكذب والكبر، وجاءهم الجواب فوراً من الله تعالى: ستعلمون غداً في القيامة من الكذاب الأشتر منكم معشر ثمود، ومن رسولنا صالح حين تردون على ربكم.³⁰¹

2- الإعراب:

(الهمزة): حرف استفهام للإنكار. (عليه): جار ومجرور متعلقان بالقي. (من بيننا): جار ومجرور متعلقان بحال محذوفة من الضمير في (عليه). (بل): حرف استئناف للإضراب الانتقالي. (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. (كذاب): خبر أول مرفوع بالضممة. (أشتر): خبر ثان للمبتدأ.³⁰²

3- التحليل:

نجد عرض نفس المواضيع في هذه السورة بشكل خاص، حيث يعطيهم جميعاً مظهراً جديداً، وأهم ما يميزهم في سياق السورة هو أنها تُعرض من مطلعها إلى ختامها حملة مرعبة مفرزة عنيفة على قلوب المكذبين بالندر، وحاسمة قاصمة يفيض منها الهول، ويتناثر حولها الرعب، ويظللها الدمار والفرع والانبهار، كل حلقة منها مشهد من مشاهد التعذيب للمكذبين، ويشهده المكذبون كأنهم يشهدون أنفسهم فيه، ويشعرون بإيقاع السوط. إذا انتهت النوبة وبدأوا في استعادة أزيز التنفس وألم التنفس، فإن الحلقة الجديدة العاجلة ستكون أكثر رعباً وخوفاً، فهي مشهد من مشاهد القيامة في المطلع ومشهد من هذه المشاهد في الختام، وبينهما عرض سريع لمصارع قوم نوح. وعاد وثمرود. وقوم لوط. وفرعون وملئه.³⁰³

³⁰¹ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (590/22).

³⁰² ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (75/27).

³⁰³ ينظر: في ظلال القرآن/ (3425/6).

والقول في انتظام جملة فقالوا أبشرا إلخ بعد جملة كذبت ثمود بالنذر كالقول في جملة فكذبوا عبدنا، بعد جملة كذبت قبلهم قوم نوح في سورة القمر 9، وهذا قول قالوه لرسولهم لما أنذرهم بالنذر لأن قوله: كذبت يؤذن بمخبر إذ التكذيب يقتضي وجود مخبر. وهو كلام شافهوا به صالحا وهو الذي عنوه بقولهم: أبشرا منا إلخ. وعدلوا عن الخطاب إلى الغيبة.

القول في إسناد حكم التكذيب إلى ثمود وهو اسم القبيلة معتبر فيه الغالب الكثير، فإن صالحا قد آمن به نفر قليل كما حكاها الله عنهم في سورة الأعراف، وينطبق الشيء نفسه على نسب الرفض إلى الاسم القبلي عاد، والنذر: جمع نذير، وهو اسم مصدر أنذر، بمعنى الإنذار، أي أنهم كذبوا في تحذير الله من خلال تحذير رسوله. ولا يمكن للقسم هنا أن يجعله جمع المنذر بمعنى المنذر، لأنه إذا كان فعل الإنكار ينتهك الشخص الذي يعتبر كاذبًا، فإنه يتجاوز اسمه بدون حرف واحد. قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا رَسُولِي﴾³⁰⁴ وقال: ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرَّسُلَ﴾³⁰⁵ فجمع اسم الرسول مع أنهم كذبوا رسولاً واحداً وهذا للدلالة على تكذيب الرسول الواحد هو تكذيب لكل الرسل ولكل دعواتهم لأنها واحدة.

فَقَالُوا فِي تَعْلِيلِ تَكْذِيبِهِمْ عَلَى الرَّسُولِ وَانذَارَاتِهِ مَسْتَفْهَمًا مُسْتَبْعِدًا أَبْشَرًا نَاشِئًا مِنَّا كَائِنًا مِنْ جِنْسِنَا مَعَ كَوْنِهِ وَاحِدًا مُنْفَرِدًا لَا رَهْطَ لَهُ وَلَا تَبِعَ تَتَّبِعُهُ نَوْْمَنٌ بِهِ وَنَقْلُهُ لَنَا نَحْنُ مَعَ أَنَّهُ لَا مَزِيَّةَ لَهُ عَلَيْنَا لَا بِالْحِسْبِ وَلَا بِالنَّسَبِ وَاللَّهُ إِنَّا أَنْفَعُنَا هَكَذَا وَاتَّبَعْنَا لَهُ إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ عَظِيمٍ إِذْ تَبِعَ أَرَادْنَا وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ قِيَادَتَنَا فَكَذَّبُوهُ بِحُجَّةٍ ضَعِيفَةٍ لَمْ يَدْعِيهَا هُوَ أَصْلًا إِذْ هُوَ دَعَاهُمْ لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَلَيْسَ بِقَبُولِ سِيَادَتِهِ عَلَيْهِمْ.³⁰⁶

فلما خالف القول الكاذب، قال: ﴿وَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِهِ﴾³⁰⁷ فقال: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾³⁰⁸، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾³⁰⁹ يعني أنهم ينكرون تحذيرات رسولهم، أي ينكرون عليها ثم ينكرون رسولهم. فحلف اليمين المتفرعة على حكم نفي ثمود أن جاءهم صالح مع تحذير وأنكره، أي كذبوا بالإنذارات التي أنذرهم الله بها على

³⁰⁴ سبأ 45.

³⁰⁵ الفرقان 37.

³⁰⁶ الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، نعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان (ت 920هـ)، الناشر: دار ركايب للنشر - الغورية، مصر، الطبعة: الأولى، 1419هـ - 1999 م / (370/2).

³⁰⁷ الأنعام 57.

³⁰⁸ الأنعام 66.

³⁰⁹ الأعراف 40.

لسان رسوله، وليس النذر هنا بصالح لحمله على جمع النذير بمعنى المنذر لأن فعل التكذيب إذا تعدى إلى الشخص المنسوب إلى الكذب تعدى إلى اسمه بدون حرف قال تعالى: ﴿فَكَذِبُوا رُسُلِي﴾³¹⁰.

وانتصب أبشرا على المفعولية ل تتبعه على طريقة الاشتغال، وقدم لاتصاله بجمرة الاستفهام لأن حقها التصدير واتصلت به دون أن تدخل على تتبع لأن محل الاستفهام الإنكاري هو كون البشر متبوعا لا اتباعهم له، وهذا من دقائق مواقع أدوات الاستفهام كما بين في علم المعاني، والاستفهام هنا إنكاري، أنكروا أن يرسل الله إلى الناس بشرا مثلهم، أي لو شاء الله لأرسل ملائكة، ووصف بشرا ب واحدا؛ إما بمعنى أنه منفرد في دعوته لا أتباع له ولا نصراء، أي ليس ممن يخشى، أي بعكس قول أهل مدين ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزير كما في آية 91 من سورة هود.³¹¹

كأن بينهم وبين الله عهدا أو اتفاقا بأن يرسل لهم ملائكة، فالقوم العادون من ثمود قوم صالح تساءلوا تساءلا إن كان الله يرسل إليهم بشرا رسولا من بينهم وفي نفس الوقت اتهموا سيدنا صالح بالكذب، بل وصفوه بأقصى مراتب الكذب فوصفوه بالكذاب الأشر.

وفي السورة عبرة ومؤانسة للنبي محمد ﷺ إذ يوجد تقارب بين هذا القوم (قريش) وقوم النبي صالح، أي أن صالحا جاءهم بالإنذارات فجحدوا بها وكانت شبهتهم في التكذيب ما أعرب عنه قولهم: أبشرا منا واحدا نتبعه، فهذا القول يقتضي كونه جوابا عن دعوة وإنذار، وإنما فصل تكذيب ثمود في سورة القمر وأجمل تكذيب عاد لقصد بيان المشابهة بين تكذيبهم ثمود وتكذيب قريش إذ تشابهت أقوالهم. وقوله "كذبت" يؤذن بمخبر إذ التكذيب يقتضي وجود مخبر وهو كلام شافهوا به صالحا وهو الذي عنوه بقولهم أبشرا منا إلخ. وعدلوا عن الخطاب إلى الغيبة للتحقير وللتقليل من شأنه.³¹²

4.8.3. المطلب 4: استفهام للاستهزاء والتهم

1.4.8.3 المنافقون

البقرة 13:

³¹⁰ سبأ 45.

³¹¹ التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (196/27).

³¹² ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (198/27).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾³¹³

1- سبب النزول:

أخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد قال: أربع آيات من أول البقرة نزلت في المؤمنين، وآيتان في الكافرين، وثلاث عشرة آية في المنافقين - أي من [8: 20] من سورة البقرة نزلت في المنافقين.³¹⁴

2- الإعراب:

(قَالُوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو، ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة: جملة جواب الشرط غير الجازم لا محل لها.. (أَنُؤْمِنُ): الهمزة: حرف استفهام للاستنكار، نؤمن: فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير مستتر نحن. الكاف: اسم بمعنى مثل مبني على الفتح في محل نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر. (ما) حرف مصدريّ. (آمن): فعل ماض مبني على الفتح.. (آمَنَ): فعل ماض مبني على الفتح. (السفهاء): فاعل مرفوع بالضمة. والجملة: صلة الحرف المصدري لا محل لها، والمصدر المؤول في محل جر مضاف إليه.³¹⁵

3- التحليل:

اتهموا المؤمنين بالسفه وقللوا من قيمتهم بكل استهزاء وتعالٍ، و(الهمزة) للاستفهام بغرض الاستهزاء، (كما آمن الناس) الكاف فيه للتشبيه أو للتعليل، واللام في (الناس) للجنس أو للاستغراق العري. والمراد بالناس من عدا المخاطبين، كلمة تقولها العرب في الإغراء بالفعل والحث عليه لأن شأن النفوس أن تسرع إلى التقليد والاقتداء بمن يسبقها في الأمر، فلذلك يأتون بآتونه الكلمة في مقام الإغراء، أنؤمن كما آمن السفهاء؟ استفهام للإنكار، قصدوا منه التبري من الإيمان على أبلغ وجه، وجعلوا الإيمان المتبرأ منه شبيها بإيمان السفهاء تشنيعاً له وتعريضاً بالمسلمين بأنهم حملهم على الإيمان سفاهة عقولهم، ودلوا على أنهم علموا مراد من يقول لهم كما آمن الناس أنه يعني بالناس المسلمين، فيقلل من قيمتهم،³¹⁶

³¹³ البقرة 13.

³¹⁴ ينظر أسباب النزول المسمى "لباب القول في أسباب النزول" لجلال الدين السيوطي/11.

³¹⁵ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (12/1).

³¹⁶ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (287/1).

والسفهاء جمع سفيه وهو المتصف بالسفاهة، والسفاهة خفة العقل وقلة ضبطه، سفيه: السَّفَهُ والسَّفَاهَةُ والسَّفَاهَةُ: نقيضُ الحِلْمِ.³¹⁷

لقد كانت هذه صورة واقعة في المدينة، ولكننا حين نتجاوز نطاق الزمان والمكان نجدها نموذجاً مكروراً في أجيال البشرية جميعاً. نجد هذا النوع من المنافقين من عليّة الناس الذين لا يجدون في أنفسهم الشجاعة لمواجهة الحق بالإيمان الصريح، أو يجدون في نفوسهم الجرأة لمواجهة الحق بالإنكار الصريح. وهم في الوقت ذاته يتخذون لأنفسهم مكان المترفع على جماهير الناس.³¹⁸

في إسناد مقول القول (آمنوا) إلى المبنى للمجهول، ما يشعر بأن ضلالهم - قد أصبح من الانكشاف والوضوح بحيث أنطق كل موجود في محيطهم، بدعوتهم إلى الاستقامة، والانتظام في موكب (الناس)، الذين صانوا إنسانيتهم عن هذا الانحراف السفيفي، الذي يعيش فيه المنافقون.

ولهذا جاء قول الله تعالى: (كَمَا آمَنَ النَّاسُ) ولم يحن: (كما آمن المؤمنون) وفيه ما يدل على أن الإيمان أقرب شيء إلى الفطرة التي فطر الناس عليها، وأن من شأن الناس أن يستجيبوا لدعوة الإيمان، وأن من استجاب للرسول - صلوات الله وسلامه عليه - هم الناس، ولا اعتبار لغيرهم وجاءت فاصلة الآية هنا: (لا يعلمون) على حين أنها جاءت في الآية السابقة عليها: (لا يشعرون) وذلك لاختلاف المقام هنا وهناك.

(هُمُ الْمُفْسِدُونَ.. وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) (هُمُ السُّفَهَاءُ.. وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ) الإفساد في الأرض - مع أنه مما يجابه الحواس، ويقع في محيط إحساسها - لا يشعر به أولئك المنافقون، لكثرة ما ألحقوا على هذه الحواس من خداع وتضليل، ولكثرة ما تعالوا معها بالتعمية والتمويه: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾³¹⁹.

³¹⁷ كتاب العين المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: 170هـ) تحقيق د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال / (9/4). وينظر الجيم، أبي عمرو إسحاق بن مزار الشيباني (ت: 206هـ) تحقيق إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، 1394هـ - 1974 م / (90/2).

³¹⁸ ينظر: في ظلال القرآن / (42/1).

³¹⁹ البقرة 12.

والسَّفه - مع أنه انحراف حاد عن طريق الحق والخير - لا يقع في علم هؤلاء السفهاء، ولا يرون فيه ما يرى الراشدون من الناس من حماقة ومنقصة.³²⁰

ومن الأساليب القرآنية في مخاطبة المكذبين بالخصوص هو "الإعراض" فالإعراض عن المكذِّبين والمنكرين بعد التبليغ الكامل، نَحْج رِبَائِيَّ قَرَأِيَّ، ولا أدلّ من نفي القسم على هذا النهج للإعراض عن هؤلاء وصنفهم (الصنف الذي بُلِّغ ودُكِّر فكذَّب وتولَّى) وقد ورد في القرآن الكريم أمر الإعراض عنه، وتَرْك شَأْن أَصْحَابِهِ وإِهْمَالِهِمْ بِصُورٍ متنوعةٍ في المصطلحات والمعاني، وجاءت صيغة نفي القسم (لَا أَقْسِمُ) ضمن سياقها في الآيات من أبلغ الصيغ وأجملها، جمال إجمال، وجمال بلاغة، وتجلّى ذلك في مواضع نفي القسم في سورة (الواقعة والحاقة والمعارج والقيامة والتكوير والانشقاق) ومؤدّى هذه الصيغة في هذا الغرض أنّ الله تبارك وتعالى لا يُقْسِمُ ولن يُقْسِمَ بعد أن أقسَمَ لمن كذَّب وأصرَّ في تكذيبه وعناده، فلا نفع من تكرار القسم للفت انتباهه، ولا طائل من أسلوب الإلحاح والتوكيد أمام مكذِّبٍ مُدْبِرٍ. فما فائدة أن تُؤكِّد الخبر والحقيقة أمام مكذِّبٍ أصمٍّ، كذَّب ثم أعطى ظهره. فكيف يسمع الخطاب أو يلمح الإشارة لو تابعت معه الخطاب واجتهدت في تأكيده.³²¹

ومثل هذا استعماله اللفظي (الكذب) و (كذب) بالتعريف والتنكير، فاستعمل (الكذب) بالتعريف لما هو خاص بأمر معين، و (كذباً) بالتنكير لما هو عام. قال تعالى:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَآئِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.³²²

فجاء بالكذب ههنا مُعَرِّفًا لأنه مخصص بهذه المسألة أي: مسألة الطعام. ومثله قوله تعالى:

³²⁰ التفسير القرآني للقرآن، ليونس الخطيب/ (34/1).

³²¹ ينظر: صيغة نفي القسم في القرآن الكريم، سمية محمد عناية حاج نايف، رسالة دكتوراه، إشراف: د. عبد الرحمن مطلق الجبوري،

1425هـ-2004م/201.

³²² آل عمران 93-94.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ* قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾³²³.

فعرّف الكذب لأنه مخصص بمسألة معينة وهي زعمهم اتخاذ الله ولداً سبحانه. ونحوه قوله تعالى:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾³²⁴.

فاستعمل الكذب معروفاً لأنه مخصص بمسألة الأنعام، في حين قال: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ* وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾³²⁵ فالكذب ههنا عام ولم يخص بمسألة معينة.³²⁶

2.4.8.3. الكفار - المستعجلون

الأنبياء 38

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾³²⁷

1- سبب النزول:

سؤال انكاري وفيه من الاستهزاء بالمخاطب ويقول هؤلاء - الكفار - المستعجلون ربهم بالآيات والعذاب لمحمد ﷺ: متى هذا الوعد: يقول: متى يجيئنا هذا العذاب إن كنت صادقاً فيما تعدنا به من ذلك. وقيل (إن كنتم صادقين) كأنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ وللمؤمنين به، ومتى في موضع نصب، لأن معناه: أي وقت هذا الوعد وأي يوم هو فهو نصب على الظرف لأنه وقت، والجواب يأتي في الآية التي بعدها (الآية 39) فلو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون عذاب

³²³ يونس 68-69.

³²⁴ المائدة 103.

³²⁵ الأنعام 92-93.

³²⁶ ينظر: أسرار البيان في التعبير القرآني، فاضل بن صالح السامرائي، 1999 م/122.

³²⁷ الأنبياء 38.

ربهم ماذا لهم من البلاء حين تلفح وجوههم النار، وهم فيها كالحون، فلا يكفون عن وجوههم النار التي تلفحها، ولا عن ظهورهم فيدفعونها عنها بأنفسهم (ولا هم ينصرون). أي ولا لهم ناصر ينصرهم، فيستنقذهم حينئذ من عذاب الله لما أقاموا على ما هم عليه من الكفر بالله.³²⁸

2- الإعراب:

(وَيَقُولُونَ) الواو استئنافية ومضارع وفاعله والجملة مستأنفة (متى) اسم استفهام في محل نصب على الظرفية متعلق بالخبر المقدم والجملة مقول القول (هَذَا) مبتدأ مؤخر (الْوَعْدُ) بدل من هذا (إِنْ كُنْتُمْ) إن حرف شرط جازم (كُنْتُمْ) ماض ناقص واسمها (صَادِقِينَ) خبر كان وجملة كنتم ابتدائية لا محل لها وجواب الشرط محذوف.³²⁹

3- التحليل:

وهؤلاء المشركون كانوا يستعجلون بالعذاب، ويسألون متى هذا الوعد. الوعد بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا، فهذا هو ذا القرآن يرسم لهم مشهداً من عذاب الآخرة ويحذرهم ما أصاب المستهزئين قبلهم لو يعلمون ما سيكون لكان لهم شأن غير شأنهم، ولكفوا عن استهزائهم واستعجالهم فلينظروا ماذا سيكون، وليحذروا الاستهزاء برسولهم، وبعد هذا الجدل التهكمي الذي يكشف عن سخف ما يعتقدونه المشركون وخوائه من المنطق والدليل يضرب عن مجادلتهم في ذلك السياق ويكشف عن علة إصرارهم على الكفر ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ الأنبياء 44، فهو المتاع الطويل الموروث الذي أفسدهم وأفسد عليهم فطرهم، فالتنعاع يؤدي للترف، والترف يفسد القلوب ويولد الخواس، وينتهي إلى ضعف الحساسية بالله، وانطماس البصيرة.³³⁰

فالمشركون يستعجلون كل شيء حتى الهلاك، والبلاء الذي أنذروا به، ويقولون في إلحاح ولجاج: متى هو؟ وفي قوله تعالى: ﴿سَأَرْبِكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾³³¹، هو الجواب على ما يستعجل به المشركون من عذاب الله، ومن الخزي الذي سيحل بهم يوم يحيي نصر الله والفتح، فهو تهديد للمشركين، وفي ما يليها من الآيات عزاء للنبي ﷺ، وتسرية لما يلقي

³²⁸ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (444/18).

³²⁹ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (286/2).

³³⁰ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (2381/4).

³³¹ الأنبياء 37.

من قومه من أذى، وما يواجه به من استهزاء وسخرية، بذكر ما لقيه باقي الأمم المستهزئة على شاكلة مشركي قريش، فهو ليس وحده من بين رسل الله، الذي وقف منه قومه هذا الموقف اللئيم، بل إن كثيرا من رسل الله قد أعتتهم أقوامهم، وأغروا بهم السفهاء منهم.³³²

لأن المسلمين يترقبون من حكاية جملة ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. ماذا يكون جوابهم عن تهكمهم. وحاصل الجواب أنه واقع لا محالة ولا سبيل إلى إنكاره، لهذا نجد في الآية التي تليها جملة " لو يعلم الذين كفروا" فهي مستأنفة للبيان، أي لو علموا وقته وأيقنوا بحصوله لما كذبوا به وبمن أنذرهم به ولما عدوا تأخيرهم دليلا على تكذيبه.³³³ فهو سؤال إنكاري بمعنى لو كان حقا فأين هو فهم ينكرون وجوده وبرهانهم هو عدم رؤيتهم لهذا الوعد وعدم علمهم بزمنه.

5.8.3. المطلب 5: استفهام تعجبي

1.5.8.3. إخوة يوسف

يوسف 11

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾³³⁴

1- فيمن نزلت:

قول تعالى ذكره: قال إخوة يوسف، إذ تأمروا بينهم، وأجمعوا على الفرقة بينه وبين والده يعقوب، لوالدهم يعقوب: (يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف) فتتركه معنا إذا نحن خرجنا خارج المدينة إلى الصحراء (وإننا له ناصحون)، نحوطه ونكلمه، كذبا وتلفيقا وهم يمكرون به ليقتلوه.³³⁵

³³² ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي/ (290/11)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (52/4). التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (900/9).

³³³ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (70/17).

³³⁴ يوسف 11.

³³⁵ ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (568/15).

2- الإعراب:

(يا): حرف نداء للقريب. (أبانا): منادى مضاف منصوب بالألف لأنه من الأسماء الخمسة. و(نا): ضمير متصل مبني على السكون في محل جر مضاف إليه. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. (اللام): حرف جرّ. و(الكاف): ضمير متصل مبني على الفتح في محلّ جرّ، والجار والمجرور متعلّقان بخبر ما. (لا): حرف نفي. (تأمّنا): فعل مضارع مرفوع بالضمة، وسكنت للإدغام العارض، و(نا): ضمير متصل في محل نصب مفعول به.³³⁶

3- التحليل:

سؤال فيه عتب وتعجب وفيه استنكار خفي، وفيه استجاشة لنفي مدلوله من أبيهم، والتسليم لهم بعكسه وهو تسليمهم يوسف. فهو كان يستبقي يوسف معه ولا يرسله مع إخوته إلى المراعي والخلاء والمناطق التي يرتادونها لأنه يحبه ويخشى عليه، فأكدوا له؛ بعد سؤالهم له إن كان لا يأمنهم على يوسف، أكدوا له أنهم له ناصحون وحافظون، كذبا وخداعا، فهم كانوا قد أجمعوا أمرهم على أن يلقوه بالجب، وكذبوا على والدهم بتظاهرهم بالحرص والحفظ للأخ الصغير المحبوب عند الوالد الشيخ الكبير.³³⁷

وهذا السؤال استفهام تعجبي، "مالك؟" يدل على أنه قد كانت بينهم وبين أبيهم مواقف من قبل هذا الموقف، طلبوا إليه فيها أن يصحبوا معهم أخاهم يوسف إلى حيث يسرحون بأغنامهم، وفي قولهم: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ تأكيد لإنكارهم على أبيهم هذا الموقف، فهو لا يأمنهم عليه متعللا بالخوف عليه أن يصيبه مكروه، حتى لكانه يتهمم بتدبير الشرّ له، والعدوان عليه، إذا هم انفردوا به. وهم ينكرون عليه هذا، ويدفعون عن أنفسهم تلك التهمة بالإنكار على أبيهم أن يكونوا متهمين عنده في مشاعرهم نحو أخيهم، فقد تظاهروا بخوفهم ونصحهم لأخيهم، وأنكروا على والدهم خوفه عليه منهم، وفي هذا القول الذي تواطؤوا عليه عند أبيهم عبرة من تواطئ أهل الغرض الواحد على التحيل لنصب الأحاييل لتحصيل غرض دنيء، وكيف ابتدأوا بالاستفهام عن عدم أمنه إياهم على أخيهم وإظهار أنهم نصحاء له، وحققوا ذلك

³³⁶ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (389/12).

³³⁷ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (1974/4).

بالجملة الاسمية وبحرف التوكيد؛ وهي "حروف تذكر في الكلام لدفع توهم المتلقي وإبعاد الشك عنه"³³⁸ وأشهر هذه الحروف (إِنْ، أُنَّ، لَامِ الْإِبْتِدَاءِ، التَّنْبِيهِ، الْقَسَمِ، وَنَوْنِ التَّوَكِيدِ، الْحُرُوفِ الزَّائِدَةِ، التَّكْرَارِ، أَمَّا الشَّرْطِيَّةُ، إِنَّمَا) فيؤكد الحكم في الجملة، ثم أظهروا أنهم ما حرصوا إلا على فائدة أخيهم وأنهم حافظون له وأكدوا ذلك أيضا.³³⁹

وهكذا يأتي طلبهم الذي أرادوه من أبيهم، بعد كل ذلك الإنكار الذي واجهوه به، وبعد هذا العتاب الذي عاتبوه عليه، يأتي طلبهم الأخير مباشرة، دون أن يدعوا لأبيهم فرصة للرد عليهم وتوضيح الأمر لهم، بتقدير أن الأمر واضح، وأن ليس لأبيهم أي عذر يعتذر به لهم، وأنه ليس بمقبول عندهم أي عذر منه في اتهمهم بأخيهم، وعدم النصح له منهم، وإنه لا يرد إليهم اعتبارهم، ولا يدفع هذه التهمة عنهم إلا بأن يرسله معهم: (أَرْسَلُهُ مَعَنَا غَدًا) أي في غير تردد أو انتظار. فذلك هو الذي يقطع الشك عندهم في اتهام أبيهم لهم! وإلا فهو الاتهام، والشك المريب، وهذا ما لا يرضونه من أبيهم، وفي قولهم: (يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) إغراء لأبيهم على هذا الأمر الذي أرادوه عليه، وجذب له إلى تلك المصيدة التي نصبوها له! فهو بإجابتهم إلى هذا الطلب يحقق أمرين: أولاً: رد اعتبارهم عنده، بدفع الشكوك التي ساورتهم من جهة اتهامه إياهم في نصحتهم لأخيهم، وسلامة قلوبهم له. وثانياً: إعطاء الفتى الصغير يوسف فرصة، ليلعب وينال حظه مما يأخذه الصبيان أمثاله من الانطلاق إلى الخلاء، ولينفذوا ما خططوا له، ويقال: رتعت الماشية، أي رعت في مرعى خصيب، والمرتع: المرعى الخصيب.³⁴⁰

6.8.3. المطلب 6: استفهام بغرض التقرير والتحقيق

1.6.8.3. المنافقون

النساء م 141

³³⁸ ينظر: قواعد الصرف والنحو، فؤاد نعمة، دار النشر: نخبة مصر القاهرة، 1994م/54.

³³⁹ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (227/12).

³⁴⁰ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (1242/6).

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾³⁴¹

1- فيمن نزلت:

ذكر الطبري في كتابه، عن ابن جريج في قوله: "إِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ"، المنافقون يَتَّبِعُونَ بالمسلمين "إِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ"، قال: "إِنْ أَصَابَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ عَدُوِّهِمْ غَنِيمَةٌ قَالَ الْمُنَافِقُونَ: "أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ"، قد كنا معكم فأعطونا غنيمة مثل ما تأخذون فهي في المنافقين.³⁴²

2- الإعراب:

(قَالُوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة جملة جواب الشرط الجازم غير مقترنة في الفاء لا محل لها. والهمزة: حرف استفهام. والجملة مقول القول. (لَمْ): حرف جازم. (نَكُنْ): فعل مضارع ناقص مجزوم بالسكون، واسمه ضمير مستتر نحن. (مَعَكُمْ): مفعول فيه ظرف للمصاحبة منصوب بالفتحة، والكاف: ضمير متصل في محل جر مضاف إليه. (نَسْتَحِذْ): فعل مضارع مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير مستتر نحن. (عَلَيْكُمْ): جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. الواو: حرف عطف. (نَمْنَعُكُمْ): فعل مضارع معطوف مجزوم بالسكون، والفاعل ضمير مستتر نحن. (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ): جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما.³⁴³

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ) هي في مَوْضِعِ جَرِّ صِفَةٍ، أي لِلْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مُحَذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: هُمْ.³⁴⁴ وقال النحاس: "﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ﴾ هي نعت للمنافقين. (فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ) اسم كان وكذلك (وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ

³⁴¹ النساء 141.

³⁴² جامع البيان للطبري / (325/9).

³⁴³ إعراب القرآن الكريم، لأحمد عبيد الدعاس / (229/1).

³⁴⁴ التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء عبد الله العكبري (ت: 616هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه. ط 1986م / (399/1).

نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ) جاء على الأصل، ولو أعلّها لكانت لم نستحذ، والفعل على الإعلال يكون استحاذ يستحذ، وعلى غير الإعلال استحاذ يستحوذ.³⁴⁵

3- التحليل:

تظهر لنا الآية وجهها آخر من وجوه النفاق والمنافقين، فإنه حين يكون بين المؤمنين والكافرين قتال، يأخذ المنافقون موقفا بين هؤلاء وهؤلاء، ولو استطاع الواحد منهم أن يقسم نفسه شطرين لفعل، فكان شطر مع المؤمنين، وشر مع الكافرين فهي كذبة مزدوجة فسؤالهم تقرير أي أنه يقرون ويثبتون موقفهم بذلك السؤال أي ألم نفعل كذا وكذا؟ فيكون الجواب لازما: بلى فعلتم، ولكم فضل علينا، وفي نفس الوقت يقرون ويحققون ذلك الأمر في الجهة الثانية مع الفئة الأخرى بأن يقروهم بفضلهم ومساعدتهم لهم في المعركة بالتخاذل، فإذا انتصر المؤمنون عدّ نفسه فيهم، وأخذ نصيبه من الغنائم معهم وفرح بفرحهم، وإذا كانت الدولة للكافرين حسب نفسه منهم، وجنى من ثمرة النصر ما يجنون، ولكن ثوب النفاق يفضح أهله، حيث يحيل للابسه أنه مستور، ولكنه في أعين الناس متجرد عار، مكشوف السوءة، فصفت المنافقين تظهر وتنكشف من خلال موقفهم وأسلوبهم في الكلام، فتُظهر الآية موقف التريص والانتظار، لما سيحدث ويكون مستقبلا، حتى يتخذوا الموقف والحركة والمناسبة لذلك الحدث بما يناسبهم ويناسب مصلحتهم الخاصة، وهذا ما نشاهده اليوم في حياتنا اليومية وهو ما يظهر جليا خصوصا عند السياسيين أو بعض الأتباع الذين ينتظرون ظهور المنتظر المنتصر، لاتباعه وتأييده والاستفادة من فوزه بعد نهاية الصراع الدائر.

فهم يقولون أي ألم نستول عليكم في المعركة ونملك أمركم؟ ولكننا تخاذلنا، وأرخينا أيدينا عنكم، فتخاذل المسلمون وانهمزوا؟ ولولا أننا لم نفعل ذلك لدارت الدائرة عليكم، فنحن شركاؤكم في هذا النصر الذي كان لكم، بل الذي نحن صانعوه لكم، والاستحواذ على الشيء، أو الأمر بمعنى التمكن منه، والتسلط عليه فقد أقروا بما فعلوه من تخاذل وتماطل فيقفون

³⁴⁵ إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس النحوي (ت: 338هـ) وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: 1، 1421هـ / (244/1).

بتماطل وتكاسل مع طرف المسلمين فإن غلب المسلم قالوا لقد كنا في صفكم وإن كانت الدائرة للكفر تقربوا منهم وتوددوا لهم بما فعلوه من تخاذل.³⁴⁶

وهكذا تكشف اللمسة الأولى عن طبيعة المنافقين، وصفتهم الأولى، وهي ولاية الكافرين دون المؤمنين، كما تكشف عن سوء تصورهم لحقيقة القوى وعن تجرد الكافرين من العزة والقوة التي يطلبها عندهم أولئك المنافقون، فالعزة لله وحده ولا تطلب إلا عنده ولديه، وإلا فلا عزة ولا قوة عند الآخرين، فهو السند الواحد والوحيد للنفس البشرية تجدد عنده العزة، فإن ارتكبت إليه استعلت على من دونه. وألا إنها لعبودية واحدة ترفع النفس البشرية وتحررها ألا وهي العبودية لله.³⁴⁷

وقد تقرر هذا المعنى من قبل في سورة البقرة في قوله: "وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون" مما حصل من مجموعه تقرر هذا المعنى وأن المنافق ذو وجهين وموقفين، أيهما أفاده ورجع عليه بالمصلحة الآنية استعمله وأظهره للآخرين.³⁴⁸

7.8.3. المطلب 7: استفهام تقرير

1.7.8.3. فرعون

الزخرف 52

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَاذُ يَبِينُ﴾³⁴⁹

1- فيمن نزلت:

³⁴⁶ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي/ (418/5)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (104/2). التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (939/3).

³⁴⁷ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (780/2).

³⁴⁸ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (237/5).

³⁴⁹ الزخرف 52.

يقوله تعالى ذكره مخبراً عن قيل فرعون لقومه بعد احتجاجه عليهم بملكه وسلطانه، وبيان لسانه وتماخذه خلقه، وفضل ما بينه وبين موسى بالصفات التي وصف بها نفسه وموسى: أنا خير أيها القوم، وصفتي هذه الصفة التي وصفت لكم (أم هذا الذي هو مهين) لا شيء له من الملك والأموال مع العلة التي في جسده، والآفة التي بلسانه، فلا يكاد من أجلها يبين كلامه؟، وقد اختلف في معنى قوله: (أم) في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناها: بل أنا خير، وقالوا: ذلك خير، لا استفهام، قال فرعون بل أنا خير من هذا، هو من الاستفهام الذي جعل بأم لاتصاله بكلام قبله. قال: وإن شئت رددته على قوله: (أليس لي مُلْكٌ مِصْرَ)؟ وإذا وجه الكلام إلى أنه استفهام، وجب أن يكون في الكلام محذوف استغني بذكر ما ذكر عما ترك ذكره، ويكون معنى الكلام حينئذ: أنا خير أيها القوم من هذا الذي هو مهين من هذا الذي هو ضعيف لقلته ماله، وأنه ليس له من الملك والسلطان ماله، أم هو؟³⁵⁰

2- الإعراب:

(أَمْ) حرف إضراب واستفهام لأنها منقطعة (أَنَا) مبتدأ (خَيْرٌ) خبره والجملة مستأنفة (مِنْ هَذَا) متعلقان بخير (الَّذِي) بدل من اسم الإشارة (هُوَ) مبتدأ (مَهِينٌ) خبره والجملة الاسمية صلة (وَلَا) الواو حرف عطف ولا نافية (يَكَادُ) مضارع ناقص اسمه مستتر (يُبِينُ) مضارع فاعله مستتر والجملة خبر يكاد.³⁵¹

وجملة: (هو مهين) لا محل لها صلة الموصول (الذي)، وجملة: (يبين) في محل نصب خبر يكاد.³⁵²

3- التحليل:

كذب فرعون بادعائه الخيرية ثم كذب برمي سيدنا موسى بالمهانة، و (أم) هي المنقطعة بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي وهذا الإضراب على تلك المشاعر التي يراها فرعون تتحرك في صدور قومه، من استخفاف به، وإكبار لموسى وكأنه يقول لهم: لا تظنوا هذه الظنون بموسى، ولا تجعلوه معي على كفة ميزان واحدة، إنه ليس مثلي، بل أنا خير، والهمزة للتقرير، وذلك أنه قسم تعديد أسباب الفضل والتقدم عليهم من ملك مصر وجرت الأنهار تحته، ونادى بذلك وملاً به مسامعهم،

³⁵⁰ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (617/21-618).

³⁵¹ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (202/3).

³⁵² ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (96/25).

ثم قال: أنا خير كأنه يقول لهم: أثبت عندكم واستقر أني أنا خير، وهذه حالي من هذا الذي هو مهين أي ضعيف حقير.³⁵³

إن فرعون المتجبر المتأله هو الذي يقول هذا، ويقارن بينه وبين موسى، لأنه رأى أن موسى قد نازعه سلطانه، بل وانتزعه منه، فلا أحد من القوم قال إن موسى خير من فرعون، لكن فرعون نفسه أحس بهذا النقص. وإن فرعون لينزل من سمائه العالية، ويرضى أن يكون هو وموسى على كفتي ميزان ليقارن، على أن تكون كفته أرجح من كفة موسى فيريد إبراز ذلك بقوله أنا خير منه. وأراد إظهار تلك الخيرية بتشويه وقذف موسى بالمساوئ والنقص، فلما عجز عن إظهار وتأكيده ألوهيته أمام الحجج القوية لسيدنا موسى أراد تكذيبه، بالكذب عليه ووصفه بالنقص والوضاعة لكن من أي جانب؟ من جانب الماديات والفقر والغنى وما يملكه من أموال وأثوار.

لقد نفذ القرآن الكريم بهذه الكلمات القليلة، إلى أغوار النفس الإنسانية ورصد حركاتها وسكناتها، وكشف عما يندس في مسارحها من خواطر وتصورات، وما يزدحم في أعماقها من رؤى وخيالات وهذا وجه من وجوه الإعجاز القرآني، حيث تظهر لنا حالة فرعون النفسية التي دفعته للكذب والتعالي وبينت كيف أن الكافر كلما أحس بعجزه ونقصه أكثر كلما تعالى وتكابر أكثر.³⁵⁴

فتجيء حلقة من قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وملئه، يذكر فيها اعتزاز فرعون بمثل ما يعتز به من يقولون: (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْيَةِ عَظِيمٍ) من قريش، وتباهيه بما له من ملك ومن سلطان، وتساؤله في فخر وخيلاء: (أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِّصْرَ؟) وتعاليه على موسى - عبد الله ورسوله - وهو مجرد من الجاه الأرضي والعرض الدنيوي: (أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ؟) استفهام يريد به تقرير وتبيين فقر موسى عليه السلام وثرائه أي فرعون وعليته بين قومه، واقتراحه الذي يشبه ما يقترحه كبراء قريش حين قالوا: (فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَّهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ)، وكأنما هي نسخة تكرر، أو اسطوانة تعاد، ثم يبين كيف استجابت لفرعون الجماهير المستخفة المخدوعة على الرغم من الخوارق التي عرضها عليهم موسى - عليه السلام - وعلى الرغم مما أصابهم من

³⁵³ ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (258/4).

³⁵⁴ ينظر: مفاتيح الغيب التفسير الكبير، فخر الدين الرازي/ (635/27). وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم، شهاب الدين الألوسي (86/13)، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (145/13).

ابتلاءات، واستغاثتهم بموسى ليدعو ربه فيكشف عنهم البلاء. إلا أنهم أصرّوا على كفرهم وكبرهم، وتكذيبهم لنبي الله، وفوق رمية بالكذب زاد فرعون فوق تلك التهمة الإهانة والإذلال بتبيين قلة مال موسى أمام جأه وماله هو، وهنا تظهر وتتجلى وحدة الرسالة، ووحدة المنهج، ووحدة الطريق. كما تتبدى طبيعة الكبراء والطغاة في استقبال دعوة الحق، واعتزازهم بالتافه الزهيد من عرض هذه الأرض وطبيعة الجماهير التي يستخفها الكبراء والطغاة على مدار القرون وعلى مختلف الأقسام.³⁵⁵

2.7.8.3. فرعون

الشعراء ك 19

﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾³⁵⁶

1- فيمن نزلت:

في هذا الكلام محذوف استغني بدلالة ما ظهر عليه منه، وهو: فأتيا فرعون فأبلغاه رسالة ربهما إليه، فقال فرعون: ألم نريك فينا يا موسى وليدا، ولبثت فينا من عمرك سنين؟ وذلك مكثه عنده قبل قتل موسى للرجل من القبط (وفعلت فعلتك التي فعلت) يعني: قتله النفس التي قتل من القبط، وكيف يمن عليه وقد عبّد قومه وأهانهم، فكيف بتلك الصفة أن تكون مزينة وممتة يمنها عليه، وإن كان يقصد الأولى فهو كاذب بادعائه الربوبية واتهامه لمن لم يخضع له بأنه كافر.³⁵⁷

2- الإعراب:

(وَفَعَلْتَ) ماض وفاعله والجملة معطوفة (فَعَلْتِكَ) مفعول مطلق والكاف مضاف إليه (الَّتِي) اسم موصول صفة (فَعَلْتَ) ماض وفاعله والجملة صلة (وَأَنْتَ) الواو حالية وأنت مبتدأ (مِنَ الْكَافِرِينَ) متعلقان بالخبر المحذوف والجملة حالية.³⁵⁸

3- التحليل:

³⁵⁵ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب / (3192/5).

³⁵⁶ الشعراء 19.

³⁵⁷ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري / (340/19).

³⁵⁸ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس / (381/2).

خاطب فرعون في هذا الموضع حتى يضيفي على كذبه واتهامه لموسى التضخيم والتهويل، فاستخدم أسلوب التعميم عوض التفصيل، أي ترك المجال مفتوحاً لفكر السامعين وخاصة الجاهلين بفعله موسى؛ فلو قال بدل فعلت فعلتك، "ووكزت الرجل فقضيت" عليه لكانت دلالة الجملة مختلف تماماً ولتعاطف المأل والناس مع سيدنا موسى الناس أكثر، ولما حصل اللوم والعتاب منهم عليه، لكن فرعون اللعين كان ذكياً متمكناً من أساليب اللغة والبلاغة وحسن الكلام والخطاب - وإلا لما استطاع السيطرة وقيادة أمم وإقناعها أنه ربه وأن يطيعوه ويعبدوه- فخاطب النبي البريء بالكناية والتعريض لفعله دون ذكرها ولا تفصيلها لجعل المتلقي يسبح في بحر خياله، ويتصور ويتهيأ له الأمور العظيمة والسوء الكبير الذي يكون موسى قد اقترفه وفر هارباً من فرعون، وليظهر فرعون نفسه أنه كظم الغيظ وعفا عن موسى مع عظم فعلته التي فعلها، فترك الفعل مبهمه ليزيد من هولها ووقعها على السامعين.³⁵⁹

والاستفهام تقريرى، وجعل التقرير على نفي التربية مع أن المقصود الإقرار بوقوع التربية مجازة لحال موسى في نظر فرعون إذ رأى في هذا الكلام جرأة عليه لا تناسب حال من هو ممنون لأسرته بالتربية لأنها تقتضي المحبة والبر، فكأنه يرخي له العنان ويذكره بأنه تربى فيهم، حتى إذا أقر ولم ينكر كان الإقرار سالماً من التعلل بخوف أو ضغط، فهذا وجه تسليط الاستفهام التقريرى على النفي في حين أن المقرر به ثابت، وهذا كما تقول للرجل الذي طال عهدك برؤيته: ألسنت فلانا، ومنه قول الحجاج في خطبته يوم دير الجماجم يهدد الخوارج (ألستم أصحابي بالأهواز)، والتقريب مستعمل في لازمه وهو أن يقابل المقرر عليه بالبر والطاعة لا بالجفاء.³⁶⁰

3.7.8.3. فرعون

الشعراء 35:

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾³⁶¹

1- فيمن نزلت:

³⁵⁹ الجامع لأحكام القرآن، القرطبي/ (94/13)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (135/4).

³⁶⁰ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (111/19).

³⁶¹ الشعراء 35.

يقول فرعون يريد أن يخرج بني إسرائيل من أرضكم إلى الشام بقمه إياكم بالسحر. وإنما قال: يريد أن يخرجكم فجعل الخطاب للملا حوله من القبط، والمعني به بنو إسرائيل، لأن القبط كانوا قد استعبدوا بني إسرائيل، واتخذوهم خدما لأنفسهم ومهاناً، فلذلك قال لهم: (يريد أن يخرجكم) وهو يريد أن يخرج خدمكم وعبيدكم من أرض مصر إلى الشام، فاتهم فرعون سيدنا موسى بأن هدفه ليس هدايتهم ولا دعوته لهم إلى دين الله، بل هو يسعى للفساد في الأرض وإخراج أهل مصر من أرضهم (أي الخدم والعبيد من بني إسرائيل).³⁶²

2- الإعراب:

(الفاء) عاطفة، و(ماذا) اسم استفهام في محلّ نصب مفعول به مقدّم، وذا اسم موصول خبر وجملة تأمرؤن صلة، (تأمرؤن) مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله.³⁶³

3- التحليل:

هذا الاستفهام من فرعون هو سؤال من أجل الإلهاء وصرف نظرهم عن كون ما قام به موسى حقاً سحر أم آيات معجزة؟ فحول السؤال من العقيدة والبحث عن الرب الحقيقي إلى السؤال عن مصدر السحر ومن الذي علّم من؟ كأن السؤال كان عن السحر واقدر الناس به، فانتقل بهم بهذا الأسلوب من التفكير في كنه الآية المعجزة، إلى التفكير بالحل وكيفية مواجهة سحر هذا الرجل، فجعل بأسلوبه هذا الأنظار مصروفة عن التفكير، بل ومسلمة بأن ما قاله فرعون هو الصحيح وأنه سحر والفكر تحول إلى البحث عن جواب للسؤال والبحث عن طريقة لمجابهة هذا الساحر الذي يريد إخراجنا من أرضنا، قال ذلك بعد أن بمر ما شاهد واندعش مما شاهده ورآه، فبعد أن اتهم فرعون للنبي بأنه ساحر عليهم، تهمة أولى، حصر حقيقة النبي في السحر، ثم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره، وتهمة الثانية هي حصر النية والهدف من ذلك السحر في الخراب والتهجير وليس الهداية والتنوير ثم الاستفهام الذي يعقب كل هذا للبحث عن الحل لهذه التهم والحل لمجابهة هذا السحر وهذا التهجير الذي يراد بنا. فطلب منهم المشاورة وقيل للتشاور ائتمار لقبول بعضهم أمر بعض

³⁶² ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (346/19).

³⁶³ ينظر: الجدول في إعراب القرآن الكريم، عبد الرحيم صافي/ (69/19). وإعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (382/2).

فيما أشار به أي ماذا تشيرون به عليّ في دفعه ومنعه، فقهره سلطان المعجزة وحيره حتى حطه عن دعوى الربوبية الى مقام مشاورة عبده.³⁶⁴

فلما ظهرت هذه الحجة حاد فرعون عنها ونسب موسى إلى الجنون مغالطة منه، وأيد الازدراء والتهكم في قوله: "رسولكم الذي أرسل إليكم".³⁶⁵

"لقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين وارتعب، وبقي لا يدري أي طرفيه أطول، حتى زل عنه ذكر دعوى الإلهية، وحط عن منكبيه كبرياء الربوبية، وارتعدت فرائضه، وانتفخ سحره خوفا وفرقا (سحره أي رثيته)³⁶⁶ وتأمرون من المؤامرة وهي المشاورة، وماذا منصوب لكونه في معنى المصدر.

وقد سبق بالآية التي قبلها سؤال فرعون وتساؤله سؤالا انكاريا لموسى فقال له: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾³⁶⁷ لما غلب موسى فرعون بالحجة ولم يجد اللعين من تقريره على التربية وغير ذلك حجة رجع إلى معارضة موسى في قوله: رسول رب العالمين، فاستفهمه استفهاما عن مجهول من الأشياء. قال مكّي: كما يستفهم عن الأجناس فلذلك استفهم ب" ما". قال مكّي: وقد ورد له استفهام ب" من" في موضع آخر أو مواطن أخرى، فأتى موسى بالصفات الدالة على الله من مخلوقاته التي لا يشاركه فيها مخلوق، وقد سأل فرعون عن الجنس ولا جنس لله تعالى، لأن الأجناس محدثة، فعلم موسى جهله فأضرب عن سؤاله وأعلمه بعظيم قدرة الله التي تبين للسامع أنه لا مشاركة لفرعون فيها. فقال فرعون: (ألا تستمعون) على معنى الإغراء والتعجب من سفه المقالة إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم ومعبودهم والفراعنة قبله كذلك، وهذا دليل على علم فرعون باللغة فهو لما سأل عن الله ب" من" لم يسفه جوابه عندما أجابه بالصفات، لكن لما كان السؤال عن الجنس ب" ما" ورد موسى عليه بالصفات وتبيين عظمة الله فاتهمه هنا بالجنون أي كأنه يقول أنا سألته عن شيء وهو يجيبني بشيء آخر لهذا قال هنا لقومه ألا تستمعون كلامه وجوابه، يريد تنبيههم لما رآه أنه سفة

³⁶⁴ ينظر: روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوئي، المولى أبو الفداء (ت 1127هـ) دار الفكر - بيروت، 2001م/ (271/6).

³⁶⁵ التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزى الكلبي الغرناطي (ت 741هـ) تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، ط الأولى - 1416 هـ/ (90/2).

³⁶⁶ ينظر: الكشف، الزمخشري/ (310/3).

³⁶⁷ الشعراء 23.

من موسى حين حاد عن الصواب في الجواب، (حسب تفكير فرعون). فزاد موسى في البيان بقوله: (ربكم ورب آبائكم الأولين) فجاء بدليل يفهمونه عنه، لأنهم يعلمون أنه قد كان لهم آباء وأنهم قد فنوا وأنه لا بد لهم من مغير، وأنهم قد كانوا بعد أن لم يكونوا، وأنهم لا بد لهم من مكون. فقال فرعون حينئذ على جهة الاستخفاف: (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) أي ليس يجيبني عما أسأل، فأجابه موسى عليه السلام عن هذا بأن قال: (رب المشرق والمغرب) أي ليس ملكه كملكك، لأنك إنما تملك بلد واحدا لا يجوز أمرك في غيره، والذي أرسلني يملك المشرق والمغرب (وما بينهما إن كنتم تعقلون). وقيل إن موسى عليه السلام علم أن قصده في السؤال معرفة من سأل عنه، فأجاب بما هو الطريق إلى معرفة الرب اليوم. ثم لما انقطع فرعون - لعنه الله - في باب الحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب، فتوعد موسى بالسجن، ولم يقل ما دليلك على أن هذا الإله أرسلك، لأن فيه الاعتراف بأن ثم إلها غيره، وفي توعد السجين ضعف.³⁶⁸

وفي سورة الشعراء تتبن لنا صور إعراض المشركين وتكذيبهم، وصور رعاية الله لدعوته والمؤمنين بها ولو كانوا مجردين من القوة وأعدائهم أقوىاء جبارون في الأرض مسلطون عليهم بالأذى والتنكيل - وهو الموقف الذي كان فيه المسلمون بمكة عند نزول هذه السورة - وقد كان القصص إحدى وسائل التربية القرآنية في القرآن الكريم.

وفي كل مرة كانت الحلقات التي تعرض منها أو الإشارات متناسقة مع موضوع السورة، أو السياق الذي تعرض فيه، على نحو ما هي في هذه السورة وكانت تشارك في تصوير الموضوع الذي يهدف إليه السياق.

والحلقة المعروضة هنا هي حلقة الرسالة والتكذيب وما كان من غرق فرعون وملئه جزاء على هذا التكذيب، وعقابا على ائتماره بموسى ومن معه من المؤمنين. ونجاة موسى وبني إسرائيل من كيد الظالمين. وفي هذا تصديق قول الله سبحانه في هذه السورة عن المشركين: (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ).. وقوله: (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)، ونجد هذا الموضوع هو الغالب في السورة ككل فعلى غير العادة في باقي السور حيث ذكرت قصة سيدنا موسى مع فرعون، واختصر فيها بعض المواقف كمشهد السحرة وعرض الآيات أمامهم، لكنه وسع في مشهد الجدل

³⁶⁸ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي/ (98/13).

بين موسى وفرعون حول وحدانية الله سبحانه ووحيه إلى رسوله وهو موضوع الجدل في هذه السورة بين المشركين والنبي

369. ﷺ

فرعون اتهم موسى بأنه ساحر عليم ثم ألصق به تهمة المؤامرة والتهديد لقومه، وسوء نيته بتخطيطه لإخراج القوم من أرضهم بسحره، فأثبت التهمة الأولى بسهولة بانتقاله للتهمة الثانية واستفهام القوم واستشارتهم بماذا يأمرهم وماذا يشيرون عليه لوقف هذه المؤامرة، فكان لذلك الاستفهام الأثر البالغ في تضليلهم وصرف فكرهم عن التفكير في حقيقة كونه ساحر أم نبي، وهل هو حقا متآمر؟ لا بل جعلهم يفكرون مباشرة بطريقة تجعل النبي موسى مذنبا، وثابتة التهمة عليه والمبهم هنا هو فقط كيف سنتعامل معه وكيف سنعاقبه، ودليل تأثرهم بكلام فرعون هو تكرارهم له ففي سورة الأعراف 109، قال الملأ من قوم فرعون... إلخ، فنسب القول تارة إلى فرعون وتارة إلى القوم، والجمع بينهما هو بأن فرعون قال لمن حوله وهم بدورهم أعادوا قوله لغيرهم بلفظه للموافقة التامة ليكون قولهم على تمام قوله، وانتصب حوله على الظرفية. والظرف هنا مستقر لأنه متعلق بكون محذوف هو حال من الملأ.³⁷⁰

8.8.3. المطلب 8: استفهام معلق

1.8.8.3. بني إسرائيل

البقرة 70

﴿قَالُوا اذْعُ لَنَا رَبِّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾³⁷¹

1- سبب النزول:

سبق ذكر السبب في صفحة 49. وهم بنو اسرائيل زمن سيدنا موسى.³⁷²

2- الإعراب:

³⁶⁹ ينظر: في ظلال القرآن / (2588/5).

³⁷⁰ التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور (124/19).

³⁷¹ البقرة 70.

³⁷² جامع البيان في تأويل القرآن للطبري / (182/2).

(ما) اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع خبر مقدم. (هي): ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ مؤخر. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. (البقر): مفعول به منصوب بالفتحة. (تشابه): فعل ماض مبني على الفتح، والفاعل ضمير مستتر هو. (علينا): على: حرف جر. نا: ضمير متصل في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. (إنَّ): حرف شرط جازم. (شاء): فعل ماض مبني في محل جزم فعل الشرط. (الله): لفظ الجلالة فاعل مرفوع بالضمة. (اللام): المرحلة تفيد التوكيد و(مهتدون): خبر إنَّ مرفوع وعلامة الرفع الواو لأنه جمع مذكر سالم.³⁷³

3- التحليل:

كان في بني إسرائيل شيخ موسر فقتل ابنه بنو أخيه ليرثوه، وطرحوه على باب مدينة ثم جاؤوا يطالبون بدينه، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيا فيخبرهم بقاتله قالوا ألتخذنا هزوا أبتعلنا مكان هزو، و الهزو نفسه لفرط الاستهزاء من الجاهلين لأن الهزو في مثل هذا من باب الجهل والسفه، فهذا هو سياق الآية، فطريقة كذبهم ومخادعتهم للأنبياء وإخفاء الحق بالباطل هي منهجهم بالحياة، هذه المعركة التي شنها اليهود على الإسلام والمسلمين منذ ذلك التاريخ البعيد ثم لم يجب أوارها حتى اللحظة الحاضرة، بالوسائل نفسها، والأساليب نفسها، لا يتغير إلا شكلها أما حقيقتها فباقية، وأما طبيعتها فواحدة، وتقريبا فطريقة خطابهم وأساليب كذبهم متشابهة ومتقاربة وكأنه شخص واحد يأتي من الزمن البعيد ليعيد دوره في الكذب والافتراء على المؤمنين وليرد بنفس الطرق الدعوى الحمديّة بنفس طرق رد الدعوات السماوية من قبله، وحتى في خطابهم يوجد شيء من الكبر وقلة الأدب (الآنَ جِئْتُ بِالْحَقِّ) الآن فقط! كأنه إنما كان كل ما جاءهم به من قبل عن هذه البقرة وغيرها، ليس مما هو حق، بل باطل وعبث، ادعوا الهداية، ولكنهم ضالون في قلوبهم وهم يعلمون أن الرجل قد قتل بأيديهم لكنهم يتظاهرون بالبحث عن الحقيقة ويتظاهرون بحبه عند مطالبتهم بالقصاص أو الدية، ولقد جمعوا بين الجهل والسفاهة، فأبوا أن يقولوا (ادع لنا ربنا) وقالوا: (ادْعُ لَنَا رَبَّكَ) وكأنه ربّ موسى وليس ربا لهم، ومع هذا فقد أجابهم الله إلى ما طلبوا. فاستفهموا عن أوصاف البقرة بحجة ان البقر تشابه عليهم ومع أنهم لو فعلوا ما أمروا به لتحقيق المقصد وليس العبرة بلون البقرة أو حجمها إذ أن المعجزة تكمن في محدثها وليس فيما تحدث فلو ذبحوا أي بقرة واستجابوا لتحققت الآية ولنطق الميت الذي أنطقه الله.

³⁷³ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (158/1).

وجملة إن البقر تشابه علينا مستأنفة استئنفاً بيانياً لأنهم علموا أن إعادتهم السؤال توقع في نفس موسى تساؤلاً عن سبب هذا التكرير في السؤال، وقولهم إن البقر تشابه علينا اعتذار عن إعادة السؤال، وإنما لم يعتذروا في المرتين الأوليين واعتذروا في الأخيرة، لأن الثالثة في التكرير وقعا في النفس في التأكيد والسأمة وغيرها، ولذلك كثر في أحوال البشر وشرائعهم التوقيت بالثلاثة.

وقد جيء بحرف التأكيد في خبر لا يشك موسى في صدقه فتعين أن يكون الإتيان بحرف التأكيد لمجرد الاهتمام ثم يتوسل بالاهتمام إلى إفادة معنى التفريع والتعليل فتفيد (إن) مفاد فاء التفريع والتسبب، وهو ما اهتم بإظهاره الشيخ عبد القاهر الجرجاني بالتنبيه عليه في (دلائل الإعجاز) ومثله بقول بشار:

بكرًا صاحبي قبل المهجير... إن ذاك النجّاح في التبكير

وإنما إن شاء الله المهتدون تنشيط لموسى ووعد له بالامتثال لتندفع عنه سآمة مراجعتهم التي ظهرت بوارقها في قوله: ﴿فافعلوا ما تؤمرون﴾³⁷⁴، ولإظهار حسن المقصد من كثرة السؤال وأن ليس قصدهم الإعنات ولتفادي غضب موسى عليهم وعدوا بأنهم سيهتدون³⁷⁵، لكنهم قساة القلوب كما بيّن ذلك في الآية 74.

9.3. المبحث التاسع: التمني

التمني "هو طلب أمر محبوب لا يرجى حصوله، إمّا لكونه مُستحيلاً، وإمّا لكونه مُمكنًا غير مَطْمُوع في نيله"³⁷⁶ ويخرج إلى غرض بلاغي وهو (الرجاء) ومن أدواته البلاغية (لو، لعل، هل) واستخدام المخاطب للأدوات البلاغية لإظهار صورة المتمنى في صورة الممكن لكمال العناية به والتشويق إليه.

1.9.3.1. المطلب 1: التمني ب لو

1.1.9.3. المشركون يوم القيامة

³⁷⁴ البقرة 68.

³⁷⁵ ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (148/1). وينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (64/1). وينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (95/1). وينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (554/1).

³⁷⁶ البلاغة الواضحة/ 207.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ

مِنَ النَّارِ﴾³⁷⁷

1- أسباب النزول:

نزلت في المشركين يوم القيامة و "فتبرأ منهم" منصوب، لأنه جواب للتمني ب "الفاء". لأن القوم تمنوا رجعة إلى الدنيا ليتبرأوا من الذين كانوا يطيعونهم في معصية الله، كما تبرأ منهم رؤسائهم الذين كانوا في الدنيا، المتبوعون فيها على الكفر بالله، إذ عابنوا عظيم النازل بهم من عذاب الله، فقالوا: يا ليت لنا كربة إلى الدنيا فتبرأ منهم، و ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾³⁷⁸، فكما أنهم كذبوا في تمنيه العودة للدنيا وترك الكفر فكذلك تمنيه العودة والتبرأ من شركائهم هو مجرد كلام، كما أخبرنا الله تعالى بذلك في الآية 28 من سورة الأنعام³⁷⁹ حيث ذكر الله تعالى أنهم كاذبون ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه.³⁸⁰

2- الإعراب:

(وقال): الواو: حرف عطف، قال: فعل ماض مبني على الفتح. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل. (اتبعوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (لو) حرف تمن. (أن): حرف مشبه بالفعل للتوكيد. (لنا): اللام: حرف جر، ونا: ضمير متصل مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بخبر أن المحذوف. (كرة): اسم أن منصوب بالفتحة. والمصدر المؤول من أن واسمها وخبرها في محل رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت. و(الفاء): حرف عطف فاء السببية. (نتبرأ): فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد

³⁷⁷ البقرة 167.

³⁷⁸ الأنعام 27.

³⁷⁹ ينظر: تفسير، ابن جرير الطبري (294/3).

³⁸⁰ ينظر تفسير، ابن جرير الطبري (322/11).

الفاء وعلامة نصبه الفتحة، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن. والمصدر المؤول (أن تنبرأ) في محل رفع بالعطف على المصدر الأول المنتزع من الكلام السابق أي: لو كان لنا كربة فتبرؤ.

(منهم): من: حرف جرّ، وهم: ضمير متصل مبني في محل جرّ، والجار والمجرور متعلّقان بـتنبرأ. (كما): الكاف: اسم بمعنى مثل مبني على الفتح في محل نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر، وما: حرف مصدريّ. (تبرؤوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (منا): من: حرف جرّ، ونا: ضمير متصل مبني في محل جرّ، والجار والمجرور متعلّقان بـتبرؤوا، والمصدر المؤول من (ما) والفعل في محلّ جرّ مضاف إليه.³⁸¹

3- التحليل:

هنالك في هذا الموقف المتأزم الخانق، وبين يدي هذا الجحيم الآخذ بالنواصي والأقدام، يكثر التلفت إلى الوراء، وترتفع صيحات الحسرة والندم من الأئمين الضالين وفي مشهد من تلك المشاهد تقع الملاحظة بين الأتباع والمتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من الأتباع، وتتقطع بينهم أسباب التقارب والتواصل، ويترامون بالعداوة والبغضاء، والأتباع والمتبوعون هنا هم جميعاً من أهل الضلال ويتمنون لو فعلوا غير الذي كانوا يعملونه من قبل ولو لم يتبعوا أولئك السادة والمتبوعين، أما الأتباع فهم العامة، وأما المتبوعون فهم العلماء وأصحاب القيادة الدينية فيهم، إذ هم الذين زينوا للعامة هذا الضلال، وهم الذين حرّفوا لهم الكلم عن مواضعه، فأهلكوهم وهلكوا معهم جميعاً. ولما رأوا العذاب بادر هؤلاء المتبوعون وتبرؤوا من أتباعهم، ونفضوا أيديهم من كل صلة بهم.

وإذ ذاك تنطلق ألسنتهم بكلمات تتميز غيظاً ويأساً: (لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً! فَنَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا؟) فهم يومئذ إنما يتمتمون- في يأس مغلق- أن يردّوا هم ورؤسائهم إلى هذه الدنيا، ليراجعوا حسابهم معهم على ضوء ما تكتشف لهم في هذا الموقف، وليصموا آذانهم عن كل دعوة باطلة يدعونهم إليها.

أما تبرؤهم منهم في الآخرة فإنه لا يجدي نفعاً، فقد دعوا إلى الكفر وأجابوا فهم يجنون ثمرة ما زرعوا من شرّ، وما ثمّروا من إثم.³⁸²

³⁸¹ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (333/2).

³⁸² ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (187/1).

وجملة ورأوا العذاب حالية أي تبرءوا في حال رؤيتهم العذاب، ومعنى رؤيتهم إياه أنهم رأوا أسبابه وعلموا أنه أعد لمن أضل الناس فجعلوا يتابعون من أتباعهم لئلا يحق عليهم عذاب المضللين، فكان جواب المتبعين بأن تمنوا لو أن لهم كرة فيتبرءوا منهم³⁸³، لكن القرآن يفند هذا التمني ويثبت عكسه، ويبلغنا بكذبه وعدم صحته وذلك يظهر لنا جليا بالآية التي في سورة الأنعام 28، حيث تُظهر الآية أنهم كاذبون في تمنيتهم وادعائهم حتى لو قالوها يوم القيامة فهي خوفاف وفضعاف، لكنهم في الحقيقة لو نالوا مطلبهم وتمنيهم و حتى لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نكحوا عنه وهذه الآية هي مخرج ومناط الكثير من الآيات التي اعتمدها.

ويتبدى الخلق والغيب من التابعين المخدوعين في القيادات الضالة. وتمنوا لو يردون لهم الجميل! لو يعودون إلى الأرض فيتبرأوا من تبعيتهم لتلك القيادات العاجزة الضعيفة في حقيقتها، التي خدعتهم ثم تبرأت منهم أمام العذاب! إنه مشهد مؤثر حقاً، مشهد التبرؤ والتخاضع بين التابعين والمتبوعين. بين المحبين والمحبوبين.³⁸⁴

2.1.9.3. مشركو قريش

الصفات 168

﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾³⁸⁵

1- سبب النزول:

يقول تعالى ذكره: وكان هؤلاء المشركون من قريش يقولون قبل أن يبعث إليهم محمد ﷺ نبيا، (لو أن عندنا ذكرا من الأولين) يعني كتابا أنزل من السماء كالنوراة والإنجيل، أو نبي أتانا مثل الذي أتى اليهود والنصارى (لكننا عباد الله) الذين أخلصهم لعبادته، واصطفاهم لجنته.³⁸⁶

2- الإعراب:

³⁸³ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (97/2).

³⁸⁴ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب / (154/1).

³⁸⁵ الصفات 168.

³⁸⁶ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري / (129/21).

(لو): حرف شرط غير جازم امتناعية للامتناع. (أَنَّ): حرف مشبه بالفعل. (عندنا) مفعول فيه ظرف مكان منصوب متعلق بخبر أَنَّ. (ذكرًا): اسم أَنَّ منصوب بالفتحة. (من): حرف جر. (الأولين): اسم مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم، والجار والمجرور متعلقان بنعت محذوف لذكر على تقدير حذف مضاف أي من كتب الأولين. والمصدر المؤول (أَنَّ عندنا ذكرًا) في محل رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت. وجملة: (ثبت ذكر) في محل جملة الشرط غير الظرفي لا محل لها من الإعراب. 387

3- التحليل:

هو حكاية لمقولة من مقولات المشركين، كانوا يرددونها قبل مبعث النبي ﷺ إليهم، قال تعالى إنهم كانوا يتمنون أن يكون عندهم ذكر من الأولين؛ أي كتاب من عند الله، تلقاه آباؤهم من قبلهم، ويتلقونه هم عن آبائهم، كما كان ذلك شأن أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، الذين يعيشون بينهم،

إنه لو كان لهم ذلك لكانوا- كما يدّعون- من عباد الله القائمين على طريق الحق، الذين لا يدخل عليهم شيء من الباطل والضلال، و (إن) هنا هي المخففة من الثقيلة (إِنَّ) واسمها ضمير محذوف، أي إنهم. وخبرها جملة (كأنوا لَيَقُولُونَ) فهم كانوا يعدون بالاتباع والالتزام لو جاءهم كما جاء من قبلهم لكنه لما جاء ما طلبوه وتمنوه رفضوه وكفروا به وهذا قمة الظلم والفسق، وأوج الطغيان، تمنوا فلما أعطوه رفضوه كبرا وعلوا، والأولين بمعنى السابقين من الأمم والأقوام. 388

نظم الكلام فيه تسجيل تهافتهم في القول إذ كانوا قبل أن يأتيهم محمد ﷺ بالكتاب المبين يودون أن يشرفهم الله بكتاب لهم كما شرف الأولين، ويرجون لو كان ذلك الكتاب والدين لهم، أن يكونوا عبادا لله مخلصين له، فلما جاءهم ما رغبوا فيه كفروا به وذلك أفضع الكفر لأنه كفر بما كانوا على بصيرة من أمره إذ كانوا يتمنونه لأنفسهم ويغبطون الأمم التي أنزل عليهم مثله فلم يكن كفرهم عن مباغته ولا عن قلة تمكن من النظر.

387 ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (95/23).

388 ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (1040/12).

وتأكيد الخبر ب إن المخففة من الثقيلة وبلاد الابتداء الفارقة بين المخففة والنافية للتسجيل عليهم بتحقيق وقوع ذلك منهم ليسد عليهم باب الإنكار. وإقحام فعل كانوا للدلالة على أن خبر (كان) ثابت لهم في الماضي. والتعبير بالمضارع في (يقولون) لإفادة أن ذلك تكرر منهم.³⁸⁹

فالحديث عن المشركين الذين يطلقون هذه الأباطيل فيعرض عهودهم ووعودهم، يوم كانوا يحسدون أهل الكتاب على أنهم أهل كتاب ويقولون لو كان عندنا ذكر من الأولين - من إبراهيم أو من جاء بعده - لكننا على درجة من الإيمان يستخلصنا الله من أجلها ويصطفينا حتى إذا جاءهم ذكر هو أعظم ما جاء إلى هذه الأرض تنكروا لما كانوا يقولون، فالوعد واقع وكلمة الله قائمة. ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض وقام بناء الإيمان، على الرغم من جميع العوائق، وعلى الرغم من تكذيب المكذبين، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين. ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار. وذهبت سطوتهم ودولتهم وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل. تسيطر على قلوب الناس وعقولهم، وهذا ما لم يفهمه الطغاة والمجرمون من أهل الشرك والكفر.³⁹⁰

2.9.3. المطلب 2: تم ب لولا

1.2.9.3. اليهود والمشركين

البقرة م 118

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا

الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾³⁹¹

1- أسباب النزول:

³⁸⁹ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (193/23).

³⁹⁰ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب / (3001/5).

³⁹¹ البقرة 118.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق سعيد وعكرمة عن ابن عباس قال: قال رافع بن خزيمة [وهو من اليهود]³⁹² لرسول الله ﷺ إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله فليكن لنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله في ذلك: ﴿وقال الذين لا يعلمون﴾ الآية.³⁹³

2- الإعراب:

(الواو): حرف عطف. (قال) فعل ماض مبني على الفتح. (الذين) اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل. (لا): حرف نفي. (يعلمون): فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (لولا): حرف تحضيض: (يكلّمنا) فعل مضارع مرفوع بالضمّة، ونا: ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به. (الله): لفظ الجلالة فاعل مرفوع بالضمّة. (أو): حرف عطف. (تأتينا): فعل مضارع مرفوع بالضمّة المقدّرة للثقل، ونا: ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به. (آية): فاعل مرفوع بالضمّة.³⁹⁴

3- التحليل:

فقد تشابه قول هذا اليهودي مع قول أجداده من بني إسرائيل لسيدنا موسى حين طلبوا منه رؤية الله جهرة فأخذتهم الصاعقة - يُرجع للآية 55 من سورة البقرة - فهكذا وساوس الشيطان تعبت بقلوب الناس وعقولهم، ففسد عليهم الرؤية الصحيحة للحق، إلّا من عصم الله. إنهم يابون أن يعترفوا بوجود الله حتى يروه رأى العين.³⁹⁵ فلقد طلب قوم موسى رؤية الله جهرة، وتعنّوا في طلب الخوارق المعجزة. فبين هؤلاء وهؤلاء شبه في الطبيعة، وشبه في التصور، وشبه في الضلال.³⁹⁶ أي هلا يكلّمنا كما يكلّم الملائكة وكلم موسى؟ استكبارا منهم وعتوا أو تأتينا آية جحودا لأن يكون ما

³⁹² ينظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: 745هـ) تحقيق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: 1420 هـ / (586/1). وينظر كذلك ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي ت: 808هـ تحقيق: خليل شحادة الناشر: دار الفكر، بيروت الطبعة: الثانية، 1408هـ-1988 م، (2/424).

³⁹³ ينظر أسباب النزول المسمى " لباب التّقول في أسباب التّزول " لجلال الدين السيوطي/24.

³⁹⁴ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (247/1).

³⁹⁵ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (135/1).

³⁹⁶ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (107/1).

أَتَاهُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ آيَاتٍ، وَاسْتِهَانَةً بِهَا.³⁹⁷ فَتَمَنُّوا بِ لَوْلَا اسْتِيعَادَا لَوْقُوعِهِ وَتَمَنَّى بِمَا لَنْ يَقَعَ فَهَمْ يَنْكُرُونَ وَجُودَهُ ثُمَّ يَطْلُبُونَ تَكْلِيمَهُ بِحَرْفِ التَّمَنَّى لَوْلَا بِمَعْنَى هَلَا يَكْلَمُنَا لَوْ كَانَ مَوْجُودًا؟

وَعُطِفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾³⁹⁸ الْمَعْطُوفُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى﴾³⁹⁹. لِمُنَاسِبَةِ اشْتِرَاكِ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فِي الْأَقْوَالِ وَالْعُقَائِدِ الضَّالَّةِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ قِيلَ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي الْآيَةِ الْمَاضِيَةِ وَهِيَ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لِأَنَّهُمْ الَّذِينَ ابْتَدَأُوا بِذَلِكَ أَيَّامَ مُجَادَلَتِهِمْ فِي تَفَاضُلِ أَدْيَانِهِمْ وَيَوْمَئِذٍ لَمْ يَكُنْ لِلْمُشْرِكِينَ مَا يُوجِبُ الْإِشْتَغَالَ بِذَلِكَ إِلَى أَنْ جَاءَ الْإِسْلَامَ فَقَالُوا مِثْلَ قَوْلِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَلَوْلَا هُنَا حَرْفُ تَحْضِيضٍ قَصْدٌ مِنْهُ التَّعْجِيزُ وَالْإِعْذَارُ عَنْ عَدَمِ الْإِصْغَاءِ لِلرَّسُولِ اسْتِكْبَارًا بِأَنْ عَدُوا أَنْفُسَهُمْ أَحْرِيَاءَ بِالرَّسَالَةِ وَسَمَاعَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَهَذَا مَبَالِغَةٌ فِي الْجَهَالَةِ، وَجُمْلَةٌ "كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ" وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ الْجَوَابِ لِمَقَالَةِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ وَهُوَ جَوَابٌ إِجْمَالِيٌّ اقْتَصَرَ فِيهِ عَلَى تَنْظِيرِ حَالِهِمْ بِحَالٍ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَاتَّخَذُوا فِي الْمَقَالَةِ حِينَ تَشَابَهَتْ عَقُولُهُمْ وَسُوءَ نَظَرِهِمْ، جُمْلَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ وَاقِعَةٌ مَوْقِعَ الْجَوَابِ لِمَقَالَةِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ وَهُوَ جَوَابٌ إِجْمَالِيٌّ اقْتَصَرَ فِيهِ عَلَى تَنْظِيرِ حَالِهِمْ بِحَالٍ مِنْ قَبْلِهِمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ التَّنْظِيرُ كُنَايَةً عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ جَوَابِ مَقَالِهِمْ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَأْهَلُ أَنْ يُجَابَ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَرْتَبَةٍ مِنْ يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ وَلَيْسَتْ أَفْهَامُهُمْ بِأَهْلٍ لِإِدْرَاكِ مَا فِي نَزُولِ الْقُرْآنِ مِنْ أَعْظَمِ آيَةٍ وَتَكُونُ جُمْلَةٌ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ تَقْرِيرًا أَيْ تَشَابَهَتْ عَقُولُهُمْ فِي الْأَفْنِ وَسُوءَ النَّظَرِ، وَتَكُونُ جُمْلَةٌ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ تَعْلِيلًا لِلْإِعْرَاضِ عَنْ جَوَابِهِمْ بِأَنَّهُمْ غَيْرُ أَهْلٍ لِلْجَوَابِ، فَيَكُونُ ذَلِكَ التَّنْظِيرُ كُنَايَةً عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنْ جَوَابِ مَقَالِهِمْ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَأْهَلُ أَنْ يُجَابَ، لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَرْتَبَةٍ مِنْ يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ وَلَيْسَتْ أَفْهَامُهُمْ بِأَهْلٍ لِإِدْرَاكِ مَا فِي نَزُولِ الْقُرْآنِ مِنْ أَعْظَمِ آيَةٍ، وَتَكُونُ جُمْلَةٌ "تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ" تَقْرِيرًا أَيْ تَشَابَهَتْ عَقُولُهُمْ فِي الْأَفْنِ وَسُوءَ النَّظَرِ، فَلِذَا اتَّخَذُوا فِي الْمَقَالَةِ. فَالْقُلُوبُ هُنَا بِمَعْنَى الْعُقُولِ كَمَا هُوَ الْمَتَعَارِفُ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ.، وَتَكُونُ جُمْلَةٌ "قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ" تَعْلِيلًا لِلْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَعَنْ جَوَابِهِمْ، وَبِأَنَّهُمْ غَيْرُ أَهْلٍ لِلْجَوَابِ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلٍ الْيَقِينِ وَأَهْلُ الْعُقُولِ.⁴⁰⁰

³⁹⁷ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (182/1).

³⁹⁸ البقرة 116.

³⁹⁹ البقرة 113.

⁴⁰⁰ ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (103/1). معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي/ (142/1). التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (690/1).

3.9.3. المطلب 3: تمن به ليت

1.3.9.3. المنافق الحاسد

النساء م 73

﴿وَلَيْنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾⁴⁰¹

1- فيمن نزلت:

قال أبو جعفر: يقول جل ثناؤه: "ولئن أصابكم فضل من الله"، ولئن أظفركم الله بعدوكم فأصبتهم منهم غنيمة، ليقولن هذا المبطلُ المسلمين عن الجهاد معكم في سبيل الله، المنافقُ الحاسد.⁴⁰²

2- الإعراب:

(ليقولن): اللام: واقعة في جواب القسم، ويقولن: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو. (كأن): حرف مشبه بالفعل مخفف، واسمه ضمير الشأن محذوف. (لم): حرف جازم. (تكن): فعل مضارع ناقص مجزوم بالسكون. (بين): مفعول فيه ظرف مكان منصوب متعلق بمخبر تكن مقدم محذوف، وكم: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه. (الواو): حرف عطف. (بينه): اسم معطوف على بينكم منصوب بالفتحة. (مودة): اسم تكن مؤخر مرفوع بالضممة. (يا) أداة تنبيه. (ليتني): حرف مشبه بالفعل، والنون: حرف وقاية، والياء: ضمير متصل مبني في محل نصب اسم ليت. (كنت) فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء: ضمير متصل مبني في محل رفع اسم كان. (معهم): مفعول فيه ظرف للمصاحبة منصوب بالفتحة، متعلق بخبر كان، والهاء: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه. (الفاء): حرف عطف للسببية. (أفوز) فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد الفاء وعلامة نصبه الفتحة، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا. (فوزًا): مفعول مطلق منصوب بالفتحة. (عظيمًا) صفة لفوز منصوبة بالفتحة. وجملة (يقولن...) : جواب القسم. وجملة (ليتني كنت...) : في محل نصب مقول القول لفعل يقولن.⁴⁰³

⁴⁰¹ النساء 73.

⁴⁰² تفسير، جرير الطبري (540/8).

⁴⁰³ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (90/5).

كأن لم تكن بينكم وبينه مودة اعتراض بين الفعل الذي هو (ليقولن) وبين مفعوله وهو يا ليتني والمعنى كأن لم تتقدم له معكم مودة، لأن المنافقين كانوا يوادون المؤمنين ويصادقونهم في الظاهر، وإن كانوا يبغون لهم الغوائل في الباطن. والظاهر أنه تهمك. لأنهم كانوا أعدى عدو للمؤمنين وأشدّهم حسداً لهم، فكيف يوصفون بالمودة إلا على وجه العكس تهمكاً بحالهم.⁴⁰⁴

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى مواضع انتصاب الفعل بأن المضمره فذلك في عدة مواضع هي: بعد حتى. وبعد لام التعليل كقوله تعالى: لِنَفْتَرِي عَلَيْنا عَزْرَهُ وبعد فاء السببية كقوله تعالى: يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ومن المعلوم أن فاء السببية يجب أن تسبق بتمنٍّ أو ترجٍّ أو طلب أو استفهام.⁴⁰⁵

وفي الآية تنديد بهذه الحسنة فالصحبة بين الجماعة، هي أن تتقاسم السراء والضراء، وأن تذوق الحلو والمر، أما أن تقف لتحتين الفرصة لتشارك في السراء، ولا تشارك في الضراء، فذلك هو اللؤم الديني الذي تترفع عنه أدنى الحيوانات والمخلوقات.⁴⁰⁶ فقرة اللؤم والأناية أن يتمنى المرء الغنيمة لنفسه على حساب أرواح أصحابه وقومه، والتمني بحسرة المعنى الذي يكمن في عبارة " يا ليتني... فأفوز فوزاً عظيماً " فيه من تمني الخير للنفس بأناية وفي نفس الوقت الحسد والكيد للغير فأن كان شراً تركناه لهم وإن كان خيراً شاركناهم فيه ولن نتركه لهم وحدهم ولولا عجزهم على نياله بمفردهم لفضلوا حيازة كل الفضل والمال لأنفسهم.

والمراد ب " لمن لبيططن" المنافقين بين المؤمنين يتناقلون عن الخروج إلى أن يتضح أمر النصر. وعلى هذا فمعنى ومنكم أي من أهل دينكم. فقد أكد الخبر بأقوى المؤكدات، لأن هذا الخبر من شأنه أن يتلقى بالاستغراب. وبطأ- بالتضعيف- قاصر، بمعنى تناقل في نفسه عن أمر، وهو الإبطاء عن الخروج إبطاء بداعي النفاق أو الجبن. والإخبار بذلك يستتبع

⁴⁰⁴ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للمحشري/ (533/1).

⁴⁰⁵ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (127/5).

⁴⁰⁶ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (834/3).

الإنكار عليه، والتعريض به، مع كون الخبر باقيا على حقيقته لأن مستتبعات التراكيب لا توصف بالمجاز. وهذا الإبطاء تارة يجز له الابتهاج بالسلامة، وتارة يجز له الحسرة والندامة فيتمنى لو كان معهم.⁴⁰⁷

فإذا فاز وانتصر المجاهدون بالمعركة بعد أن استعدوا وقبلوا كل ما يأتيهم به الله ندم المتخلفون أن لم يكونوا شركاء في معركة رابحة! رابحة بحسب مفهومهم القريب الصغير للربح والخسارة، إنها أمنية الفوز الصغير بالغنيمة والإياب، هي التي يقولون عنها: (فوزا عظيما) والمؤمن لا يكره الفوز بالإياب والغنيمة، بل مطلوب منه أن يرجوه من الله. والمؤمن لا يتمنى وقوع البلاء، بل مطلوب منه أن يسأل الله العافية، ولكن التصور الكلي للمؤمن غير هذا التصور الخاطئ للمنافق، الذي يرسمه التعبير القرآني لهذه الفئة رسما مستنكرا منفرا.⁴⁰⁸

10.3. المبحث العاشر: الترجي

"هو ترقب حصول شيء"⁴⁰⁹ والرغبة في الوصول للمراد وتحقيق الغاية، ويكون المتكلم على يقين بعدم استحالة المراد والمطلوب، وفي ذهنه صورة ممكنة وهذا ما سنظهره في قوله تعالى في الآية الكريمة:

1.10.3. المشركون

المؤمنون 100

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾⁴¹⁰

1- فيمن نزلت:

قيل إن هذا يحصل حين تنقطع الدنيا، ويعاين الكافر الآخرة، قبل أن يذوق المرء الموت، قال: قال النبي ﷺ لعائشة: "إذا عاين المؤمن الملائكة قالوا: نرجعك إلى الدنيا؟ فيقول: إلى دار الهموم والأحزان؟ فيقول: بل قدماني إلى الله، وأما الكافر فيقال: نرجعك؟ فيقول: (لعلي أعمل صالحا فيما تركت) ... الآية"، فهذا المشرك يوم القيامة، هو قائلها. (كلا

⁴⁰⁷ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (119/5).

⁴⁰⁸ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (706/2).

⁴⁰⁹ دراسات في البلاغة العربية من بلاغة القرآن الكريم، محمد علوان، نعمان علون/68.

⁴¹⁰ المؤمنون 100.

إنها كلمة هو قائلها) لا بد له أن يقولها يقول (ومن ورائهم برزخ) أي ومن أمامهم حاجز يحجز بينهم وبين الرجوع، يعني: إلى يوم يبعثون من قبورهم، وذلك يوم القيامة، والبرزخ والحاجز والمهلة متقاربات في المعنى.⁴¹¹

فهي مجرد كلمة يقولها خوفا ورهبا ولو ردّوا لعادوا وإنهم لكاذبون، مصداقا للآية التي بسورة القصص. أي إنها مجرد كلام يقال، لا وزن له، ولا ثمرة منه.

2- الإعراب:

(لَعَلِّي): حرف مشبه بالفعل، والياء: ضمير متصل في محل نصب اسم لعل. (أَعْمَلُ) فعل مضارع مرفوع بالضممة. والفعل ضمير مستتر أنا. (صَالِحًا): مفعول به منصوب بالفتحة. والجملة في محل رفع خبر لعل: (فِيمَا): في: حرف جر، ما: موصولة في محل جر اسم مجرور. الجار والمجرور متعلقان بصالحا. (تَرَكْتُ): فعل ماض مبني على السكون، والتاء: ضمير متصل في محل رفع فاعل. والجملة صلة.⁴¹²

3- التحليل:

إذا أيقن بالموت واطلع على حقيقة الأمر، أدركته الحسرة على ما فرط فيه من الإيمان والعمل الصالح فيه، فسأل ربه الرجعة، وترجى منه أن يعيده ليعمل عملا صالحا، أي وقال لعلّي أعمل صالحا في الإيمان الذي تركته، والمعنى: لعلّي آتي بما تركته من الإيمان، وأعمل فيه صالحا، وهذا كله رجاء وترجي للنجاة من العذاب وهو قول مردود عليهم كما يتبين ذلك في الآية 28 من سورة الأنعام، فهي كما تقول: لعلّي أبني على أس، تريد، أسس أسا وأبني عليه. وقيل: فيما تركت من المال. فيرجو ويترجى أن يعاد للدنيا لكي يعمل غير الذي عمله وليعوض ما فاته.⁴¹³

11.3. المبحث الحادي عشر: اسم الفعل

تعريف:

⁴¹¹ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (70/19).

⁴¹² إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (339/2).

⁴¹³ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (203/3) والجامع لأحكام القرآن، القرطبي/ (149/12)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (95/4).

أسماء الفعل "هي كلمات تدل على معنى الفعل وزمنه، ولكن لا تسمى فعلاً؛ لأنها لا تقبل علامات الفعل"⁴¹⁴

وتنقسم من حيث دلالتها الزمنية إلى اسم فعل (ماضي، مضارع، أمر).

وتكون دائماً مبنية، وتأتي لتأكيد الكلام والمبالغة فيه، وفيما يلي بعض الآيات الكريمة التي احتوت على أسماء الأفعال وهي:

1.11.3. ملأ ثمود

المؤمنون 36

﴿هِيَهَاتَ هِيَهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾⁴¹⁵

1- فيمن نزلت:

تخبرنا الآية عن قول الملائكة من ثمود أنهم قالوا: هيهات هيهات: أي بعيد ما توعدون أيه القوم، وذكر ابن عباس أنها بمعنى: بعيد بعيد أي غير كائن.⁴¹⁶ وسبق ذكر سبب النزول في الصفحة 39.

2- الإعراب:

سبق إعرابها في الصفحة 40.

3- التحليل:

إن استعراض قصص الرسل في هذه السورة ليس للتقصي والتفصيل إنما هو لتقرير الكلمة الواحدة التي جاء بها الجميع، والاستقبال الواحد الذي لقوه من الجميع.

فيقولون هل نحن مؤجلون إلى فرصة أخرى، نصلح بها ما فات. وهيهات هيهات! ولقد كانوا يستعجلون عذاب الله، على سبيل الاستهزاء والاستهتار، واغتراراً بما هم فيه من متاع، ييلد حسهم، ويجعلهم يستبعدون النقلة منه إلى العذاب

⁴¹⁴ أساسيات في النحو والصرف، ثامر ابراهيم المصاروة/154.

⁴¹⁵ المؤمنون 36.

⁴¹⁶ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (30/19).

والنكال. شأنهم شأن ذوي النعمة قلما يخطر ببالهم أن تنزل وقلما يتصورون أن تحول، والتعبير القرآني هنا يرسم صورة حسية لملازمة التكذيب لهم، فيذكر أن حالهم ملازم لهيئة عدم الإيمان والتكذيب بالقرآن. على هذه الهيئة نظمناه في قلوبهم وأجريناه. فهو لا يجري فيها إلا مكذبا به. ويظل على هيئته هذه في قلوبهم، ثم يعقب على هذا بأن التكذيب مكتوب على القوم ملازم لهم بحكم عنادهم ومكابرتهم للحق، فهكذا قضى الأمر عليهم بسبب أعمالهم وغلوهم بأن يتلقوه بالتكذيب، كأنه طبع في قلوبهم لا يحول. حتى يأتيهم العذاب وهم في غفلة لا يشعرون.

ومثل هؤلاء القوم لا يمكن أن يدركوا حكمة الحياة الكبرى ودقة التدبير في أطوارها للوصول بها إلى غايتها البعيدة. هذه الغاية التي لا تتحقق بكمالها في هذه الأرض، بل تكتمل حلقاتها في الآخرة، فالخير لا يلقى جزاءه الكامل في الحياة الدنيا. والشر كذلك. إنما يستكملان هذا الجزاء هنالك، حيث يصل المؤمنون الصالحون إلى قمة الحياة المثلى، التي لا خوف فيها ولا نصب، ولا زوال ويصل المرتكسون و المنتكسون إلى درك الحياة السفلية التي تهدر فيها آدميتهم، ويرتدون فيها حجارة، مثل هؤلاء لا يدركون هذه المعاني، ولا هم يستدلون من أطوار الحياة الأولى- التي سبقت في السورة- على أطوارها الأخيرة ولا ينتبهون إلى أن القوة المدبرة لتلك الأطوار لا تقف بالحياة عند مرحلة الموت والبلوى كما يظنون؛ لذلك هم يستعجبون ويعجبون من ذلك الذي يعدهم أنهم مخرجون ويستبعدون أن ذلك يكون ويجزمون في تبجح بأن ليس هنالك إلا حياة واحدة، وموت واحد. يموت جيل، ويحيا بعده جيل آخر. فأما الذين ماتوا، وصاروا ترابا وعظاما، فهيئات هيئات الحياة لهم، كما يقول ذلك الرجل الغريب! وهيئات هيئات البعث الذي يعدهم به، وقد صاروا عظاما ورفاتا! ثم إنهم لا يقفون عند هذه الجهالة، والغفلة، بل إنهم يتهمون رسولهم بالافتراء على الله.⁴¹⁷

وَأَتَرَفَّنَاهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ وَالْكَفْرِ- في هذا إشارة إلى أن نعم الله التي نعمهم بها وأترفهم بالنعيم فيها- كانت عندهم عدلا للكفر والتكذيب وكأن ذلك صفة من صفاتهم إلى جانب الكفر والتكذيب هو بعض من مقولات القوم، التي ينكرون بها على النبي دعوته إياهم إلى الإيمان باليوم الآخر، فهم يستبعدون- إلى حد الاستحالة- أن يبعثوا بعد أن يموتوا، ويصبحوا ترابا ورفاتا، إنهم بهذا يؤكدون استبعاد البعث بعد الموت، ويؤكدون أنه لا حياة إلا هذه الحياة التي هم

⁴¹⁷ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي/ (12/122)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (4/87). زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي/ (3/261).

فيها، وأنهم إنما يدورون في هذين المدارين، حياة وموت، وموت وحياة حيث يموت ناس، ويولد ناس وهكذا دواليك وأما أن يبعث الموتى من قبورهم، ويعودوا إلى الحياة فذلك ما لا تقبله عقولهم ولا يتصوره خيالهم.⁴¹⁸

وهنا نكتة في هذه السورة حيث نجد قول القوم معطوفاً بـ الفاء ووجه ذلك أن كلام الملائكة المحكي هنا غير كلامهم المحكي في السورتين لأن ما هنا كلامهم الموجه إلى خطاب قومهم إذ قالوا: ما هذا إلا بشر مثلكم خشية منهم أن تؤثر دعوة رسولهم في عامتهم، فأروا الاعتناء بأن يحولوا دون تأثير نفوس قومهم بدعوة رسولهم أولى من أن يجابوا رسولهم الذي أجابوه من قبل وأنكروا عليه، وبهذا يظهر وجه الإعجاز في هذا الموضع، وإنما لم يعطف قول الملائكة بفاء التعقيب كما ورد في قصة نوح لأن قولهم هذا كان متأخراً عن وقت مقالة رسولهم التي هي فاتحة دعوته بأن يكونوا أجابوا كلامه بالرد والزجر فلما استمر على دعوتهم وكررها فيهم وجهوا مقاتلتهم المحكية هنا إلى قومهم ومن أجل هذا عطفت جملة جوابهم ولم تأت على أسلوب الاستعمال في حكاية أقوال المحاورات. وجملة هيهات بيان لجملة يعدكم فلذلك فصلت ولم تعطف.⁴¹⁹

2.11.3. المشرك

الأحقاف 17

﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهُي لَمَنْ أُفٍّ لَكُمْ أَنْ تُعَذِّبُونِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ حَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَبَلَغَتِ الْأُمُورُ أَجْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ أَوْ لَا يَسْخَرُونَ مِنْكُمْ وَلَا يَتَذَكَّرُونَ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁴²⁰

1- سبب النزول:

فيمن نزلت؟ فقد قيل هي في عبد الرحمن بن أبي بكر، وقيل بل في رجل مشرك، أي نزلت في الكافر العاق لوالديه، المكذَّب بالبعث، فهي نزلت في مشرك.⁴²¹ وقد سبق ذكر ذلك في الصفحة 97.

⁴¹⁸ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (5/2618)، وفي ظلال القرآن لسيد قطب (4/2467)، وينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (9/1135).

⁴¹⁹ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (18/56).

⁴²⁰ الأحقاف 17.

⁴²¹ ينظر: لباب النقول للسيوطي/ 233.

(وَالَّذِي): الواو: حرف استئناف. والذي: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. (قَالَ): فعل ماض مبني على الفتح. والفاعل ضمير مستتر هو. (لِوَالِدَيْهِ): اللام: حرف جر. والديه: اسم مجرور بالياء لأنه مثنى، والهاء ضمير متصل في محل جر مضاف إليه. والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. والجملة صلة الاسم الموصول. (أَفٍّ): اسم فعل مضارع بمعنى أتضجر، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (لَكُما) جار ومجرور متعلقان بأف.⁴²²

(أَتَعِدَانِي)، (أَنْ)، (أُخْرِجَ)، سبق ذكر إعرابها في الصفحة 97.

التحليل:

تبين الآية موقفاً لصنفٍ من الأبناء، من الذين مضوا في عقوبتهم لأبويهم إلى آخر أيام حياتهم، فلم يكن لهم حظاً من بلوغ ما يبلغه الإنسان من كمال عقلي، وتوازن شعوري، وتجاوزوا ذلك التقصير إلى العدوان تجاه الوالدين، فيقابلهما بهذا الزجر والتأفف والردع، ويرمى في وجهيهما بهذه القولة الآثمة ﴿أَفٍّ لَكُما﴾ أي يظهر تضجره وانزعاجه من كلامهما ودعوتهما له إلى اتباع الحق الذي يراه هو ضلال ومجرد كلام لا جدوى منه، وهكذا يتأفف عليهما ومن كلامهما⁴²³، وأف كلمة تصدر عن قائلها عند تضجره وَقَنْطَه من شيء يرد عليه، قرىء أف بكسر الفاء مع التنوين، وقرىء بفتحها من غير تنوين وقرىء بكسرهما من غير تنوين وكلها صحيح، واللام في لكما لبيان المؤقف له أي هذا التأفف لكما خاصة أو لأجلكما دون غيركما.⁴²⁴ فالولد العاق المكذب للبعث يجحد برهما أول ما يجحد فيخطبهما بالتأفف الجارح الخشن الوقح ويجحد الآخرة بالحجة الواهية أن قد خلت القرون من قبله. انتقل إلى مقالة أخرى من أصول شركهم وهي مقالة إنكار البعث، وهي نزلت عامة على كل أبناء المشركين ممن أسلم آباؤهم ودعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم وأغلظوا

⁴²² إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (226/3).

⁴²³ ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي/ (258/7). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي/ (98/5).

التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (277/13).

⁴²⁴ ينظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (ت: 1307هـ) عني بطبعه وقدم له وراجعته: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت عام

النشر: 1412هـ - 1992 م/ (25/13). وينظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة

الحسني الأنجوري الفاسي الصوفي (ت: 1224هـ) تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة،

الطبعة: 1419 هـ. (336/5).

لهم القول فضموا إلى الكفر بشنيع عقوق الوالدين وهو قبيح لمنافاته الفطرة التي فطر الله الناس عليها لأن حال الوالدين مع أبنائهما يقتضي معاملتهما بالحسنى، ويدل لعدم اختصاص قوله في آخرها أولئك الذين حق عليهم القول، والذي عليه جمهور المفسرين: أن الآية لا تعني شخصا معينا وأن المراد منها فريق أسلم آباؤهم ولم يسلموا حينئذ، ولهذا نجد في الآية التي تليها الوعيد موجه لاسم الموصول الصيغة بالجمع في اسم الإشارة من قوله: أولئك الذين حق عليهم القول.⁴²⁵

12.3. المبحث الثاني عشر: النعت للتعظيم

النعت هو "التابع المكمل متبوعه، ببيان صفة من صفاته أو ببيان صفة من صفات ما تلق به، ويأتي لأغراض أهمها (التخصيص، التوضيح، الثناء والمدح، الذم والتحقير، الترحم، التأكيد، التعظيم، التفصيل، الإيجام)"⁴²⁶ وسيكون حديثنا هنا عن غرض التعظيم والذي يدل على الاشتمال.

1.12.3. إخوة يوسف

يوسف 17

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾⁴²⁷

1- سبب النزول:

جاء إخوة يوسف أباهم، بعد ما ألقوا يوسف في غيابة الحب، فأقبلوا على أبيهم عشاء ييكون، فلما سمع أصواتهم فرع وقال: ما لكم يا بني؟ هل أصابكم في غنمكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فما فعل يوسف؟ قالوا: (يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب)! فبكى الشيخ وصاح بأعلى صوته، وقال: أين القميص؟ فجاءوه بالقميص عليه دم كذب، فأخذ القميص فطرحه على وجهه، ثم بكى حتى تخضب وجهه من دم القميص. (وجاؤوا على قميصه

⁴²⁵ ينظر: في ظلال القرآن (3263/6)، والتحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (37/26).

⁴²⁶ معاني النحو، فاضل السامرائي، (183-182/3).

⁴²⁷ يوسف 17.

بدم كذب)، وسماه الله "كذبا" لأن الذين جاؤوا بالقميص وهو فيه، كذبوا، فقالوا ليعقوب: "هو دم يوسف"، ولم يكن دمه، وإنما كان دم سخلة.⁴²⁸

2- الإعراب:

إعرابها: (إنّ): حرف مشبّه بالفعل. و(نا): ضمير متصل في محلّ نصب اسم إنّ. (ذهبنا): فعل ماض مبني على السكون، ونا: ضمير متصل في محل رفع فاعل. (نستبق): فعل مضارع مرفوع بالضمّة، والفاعل ضمير مستتر نحن، و(الواو) حرف عطف. (تركنا) مثل ذهبنا، (يوسف): مفعول به منصوب بالفتحة. (عند): مفعول فيه ظرف مكان منصوب متعلّق بتركنا، (متاعنا): مضاف إليه مجرور بالكسرة، ونا: ضمير متصل في محل مضاف إليه. (الفاء): حرف عطف. (أكل): فعل ماض مبني على الفتح. و(الهاء) ضمير متصل في محل نصب مفعول به مقدّم. (الذئب): فاعل مرفوع بالضمّة. (الواو) حرف استئناف. (ما): حرف مشبّه بالفعل الناقص. (أنت): ضمير منفصل في محلّ رفع اسم ما. (مؤمن): الباء: حرف جرّ زائد، مؤمن: اسم مجرور لفظاً منصوب محلاً خبر ما. (الواو): حرف اعتراض. (لو) وصلية زائدة للتعميم. (كنا) فعل ماض ناقص مبني على السكون. نا: ضمير متصل في محلّ رفع اسم كان. (صادقين): خبر كنا منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم.⁴²⁹

3- التحليل:

(ولو كنا صادقين)، إما خبر عنهم أنهم غير صادقين، فذلك تكذيب منهم أنفسهم، أو خبر منهم عن أبيهم أنه لا يصدّقهم حتى لو صدّقوه، قيل: ليس معنى ذلك بواحد منهما، وإنما معنى ذلك: وما أنت بمصدق لنا ولو كنا من أهل الصدق الذين لا يتهمون، لسوء ظنك بنا، وتحمّتك لنا، وفي الآية السابقة، يوسف 16، بيان لطريقة تمثيل الكاذب واستعماله للغة الجسد في كذبه للتأثير على المخاطب وإيهامه بصدق ما قيل، فللكاذب فوق الأساليب الكلامية المعروفة لغة الجسد والبكاء والتظاهر بالتأثر بالحادثة التي هم سببها، وهم من وضع سيناريوها.

⁴²⁸ ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (577/15-579).

⁴²⁹ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (394/12).

ولو كنا صادقين ولو كنا عندك من أهل الصدق والثقة، لشدة محبتك ليوسف، فكيف وأنت سيئ الظن بنا، غير واثق بقولنا. فاتهموه بتكذيبهم كأثمهم أبرياء وكأنما الإشكال في والدهم الذي يكذبهم وليس فيهم حيث يكذبون عليه وهم يعلمون.⁴³⁰

إننا ملزمون بالاعتقاد بأن بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد. ملزمون بهذا أولاً من ناحية ما ورد في هذه السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف، وثانياً من ناحية ما نراه في حياتنا الشخصية من تحقق رؤى تنبؤية في حالات متكررة بشكل يصعب نفي وجوده، تقول مدرسة التحليل النفسي في تعريف الرؤيا: إنها صور من الرغبات المكبوتة تنفس بها الأحلام في غياب الوعي.

وهذا يمثل جانباً من الأحلام، ولكنه لا يمثلها كلها. (وفرويد) ذاته- على كل تحكمه غير العلمي وتمحله في نظريته- يقرر أن هناك أحلاماً تنبؤية، لهذا فقد تحقق تأويل الرؤيا لسيدنا يعقوب وخوفه من إخوة يوسف، ومن كيدهم له.

(وما أنت بمؤمنٍ لنا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) أي وما أنت بمطمئن لما نقوله، ولو كان هو الصدق، لأنك تشك فينا ولا تطمئن لما نقول.⁴³¹ فجعلوا تكذيبهم لهم عاماً وليس خاصاً أي مهما فعلوا فهو مكذب لهم وهذا محض افتراء على النبي يعقوب من أولاده العاقين الذين يكذبون ويصرون على الكذب، والكذب على أقرب الناس إليهم، فكأنما اتهموه بالظلم لهم ورميهم بالكذب مهما قالوا ومهما فعلوا فقط لأنه لا يثق بهم لمجرد الشبهة.

ومن كلامهم وخطابهم يظهر ما يضمرون للظن الذكي الذي ألف مواجهة الناس واعتاد مخالطة الكفار في دعوته إلى الله وأدرك يعقوب من دلائل الحال، ومن نداء قلبه، أن يوسف لم يأكله الذئب، وأنهم دبروا له مكيدة ما. فالباطل يفضح نفسه، ويخزي أهله، فمجيئهم بالليل، فتلك أول أمارات الكذب الذي أحضره، إنهم جاءوا ملففين في ظلام الليل، خوفاً من أن يفضحهم ضوء النهار، ويمزق هذا القناع الزائف المموه بتلك الدموع الكاذبة، التي بللوا بها خدودهم، قال ابن العربي: هذا يدل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله لاحتمال أن يكون تصنعاً، ومن الخلق من لا

⁴³⁰ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (451/2).

⁴³¹ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (1976/4).

يقدر على ذلك ومنهم من يقدر. إن العين إذا التقت بالعين كشفت عن كثير من خفايا النفس، وقرأت ما لا يصرح به اللسان، ولا تبوح به الكلمات.⁴³²

إنهم يتهمون أباهم- مقدّما- بأنه لن يقبل شهادتهم تلك، لأنهم هم- في الواقع- لا يقبلونها فيما بينهم وبين أنفسهم ولو كانوا صادقين حقًا لما وقع في تصوّرهم هذا الشك، ولما توقعوه قبل أن يقع، إنهم اتهموا أنفسهم باتهامهم والدهم بقولهم: (وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ) اتهموها قبل أن يتهمهم أبوهم وهكذا شأن كل متّهم إنه يتهم نفسه قبل أن يتهمه أحد، فهو يطوف دائما حول جريمته إن لم يكن بجسده، فبمشاعره، وهمس خواطره. فاتهمهم لأبيهم في طياته اتهام لنفسه لهذا غالبا ما تجد الكاذب يبرر لكذبه قبل أن يسأل أو يشك فيه حتى.

- وما أنت بمؤمن لنا خبر مستعمل في لازم الفائدة. وهو أن المتكلم علم بمضمون الخبر. وهو تعريض بأنهم صادقون فيما ادعوه لأنهم يعلمون أباهم لا يصدقهم فيه، فلم يكونوا طامعين بتصديقه إياهم.

وفعل الإيمان يعدى باللام إلى المصدق- بفتح الدال- كقوله تعالى: ﴿فَأَمِنَ لَهُ لَوْطُ﴾⁴³³، وجملة ولو كنا صادقين في موضع الحال فالواو واو الحال. ولو اتصالية، وهي تفيد أنه مضمون ما بعدها هو أبعد الأحوال عن تحقق مضمون ما قبلها في ذلك الحال. والتقدير: وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين في نفس الأمر، أي نحن نعلم انتفاء إيمانك لنا في الحالين فلا نطمع أن نموه عليك.

وليس يلزم تقدير شرط محذوف هو ضد الشرط المنطوق به لأن ذلك تقدير لمجرد التنبيه على جعل الواو للحال مع (لو) وإن) الوصليتين وليس يستقيم ذلك التقدير في كل موضع، ألا ترى قول المعري:

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانُهُ... لآتٍ بما لم تَسْتَطِعْهُ الأوائلُ

⁴³² ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم الغرناطي/ (382/1). معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي/ (223/4). التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (1246/6).

⁴³³ العنكبوت 26.

كيف لا يستقيم تقدير إني إن كنت المتقدم زمانه، بل وإن كنت الأخير زمانه. فشرط (لو) الوصلية و (إن) الوصلية ليس لهما مفهوم مخالفة، لأن الشرط معهما ليس للتقييد.⁴³⁴

2.12.3. اليهود والنصارى

البقرة م 111

﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁴³⁵

1- أسباب النزول

المعنى: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا. وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا. وأجاز الفراء أن يكون "هودا" بمعنى يهوديا، حذف منه الزائد.⁴³⁶

2- الإعراب:

(الواو): حرف استئناف. (قالوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل. (لن): حرف ناصب. (يدخل): فعل مضارع منصوب بالفتحة. (الجنة) مفعول به منصوب بالفتحة. (إلا): حرف حصر. (من): اسم موصول مبني في محل رفع فاعل. (كان): فعل ماض ناقص مبني على الفتح، واسمه ضمير مستتر تقديره هو. (هودا): خبر كان منصوب بالفتحة. (أو) حرف عطف للتفصيل. (نصارى): اسم معطوف على (هودا) منصوب مثله وعلامة النصب الفتحة المقدرة على الألف للتعذر.⁴³⁷

3- التحليل:

والضمير لأهل الكتاب كلهم من اليهود والنصارى بقريئة قوله بعده: إلا من كان هودا أو نصارى. ومقول القول مختلف باختلاف القائل فاليهود قالت لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، والنصارى قالت لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى،

⁴³⁴ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (237/12-238).

⁴³⁵ البقرة 111.

⁴³⁶ الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي / (74/2).

⁴³⁷ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي / (235/1).

جمع القرآن بين قوليهما على طريقة الإيجاز بجمع ما اشتركا فيه وهو نفي دخول الجنة عن المستثنى منه المحذوف لأجل تفريع الاستثناء، ثم جاء بعده تفريق ما اختص به كل فريق وهو قوله: هودا أو نصارى، فعمموا الكلام على كل من لم يكن من ملتهم ومن دينهم أنه لن يدخل الجنة، وكل قوم استثنوا دينهم من الدخول إلى النار وما أشبه أمس باليوم حين نجد بيننا ممن يكفر ويخرج كل من سواه (ممن خالفه أو لم يوافقه في بعض آراءه وفتاواه) يدخله النار بسهولة ويخص نفسه وينسب إليها الجنة والأحقية والاستحقاق لها أفلا يتعظون؟.

فكلمة (أو) من كلام الحاكي في حكايته وليست من الكلام المحكي فأو هنا لتقسيم القولين ليرجع السامع كل قول إلى قائله، والقرينة على أن (أو) ليست من مقولهم المحكي لأنه لو كان من مقولهم لاقتضى أن كلا الفريقين لا ثقة له بالنجاة وأنه يعتقد إمكان نجاة مخالفه والمعلوم أن كلا من اليهود والنصارى لا يشك في نجاة نفسه ولا يشك في ضلال مخالفه وهي أيضا قرينة على تعيين كل من خبري كان لبقية الجملة المشتركة التي قالها كل فريق بإرجاع هودا إلى مقول اليهود وإرجاع نصارى إلى مقول النصارى. فأو هاهنا للتوزيع وهو ضرب من التقسيم الذي هو من فروع كونها لأحد الشيئين وذلك أنه إيجاز مركب من إيجاز الحذف لحذف المستثنى منه وجمع القولين في فعل واحد وهو: قالوا، ومن إيجاز القصر لأن هذا الحذف لما لم يعتمد فيه على مجرد القرينة المحوجة لتقدير وإنما دل على المحذوف من القولين بجلب حرف أو فكانت (أو) تعبيرا عن المحذوف بأقل عبارة فينبغي أن يعد قسما ثالثا من أقسام الإيجاز وهو إيجاز حذف وقصر معا.

وقد جعل القزويني في (تلخيص المفتاح) هاته الآية من قبيل اللف والنشر الإجمالي أخذا من كلام الزمخشري لقوله: (لف) بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله قوله وأما من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين⁴³⁸، فقوله: لَف بين القولين أراد به اللف الذي هو لقب للمحسن البديعي المسمى اللف والنشر ولذلك تطلبوا لهذا اللف نشرا وتصويرا للَف في الآية من قوله قالوا، مع ما بيّنه وهو لف إجمالي يبينه نشره الآتي بعده ولذلك لقبوه اللف الإجمالي، أو العام. ثم وقع نشر هذا اللف بقوله: إلا من كان هودا أو نصارى فعلم من حرف (أو) توزيع النشر إلى ما يليق بكل فريق من الفريقين. وقال التفتازاني في شرح المفتاح جرى الاستعمال في النفي الإجمالي أن يذكر نشره بكلمة (أو).⁴³⁹

⁴³⁸ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (177/1).

⁴³⁹ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (673/1).

فالذين كانوا يواجهون المسلمين في المدينة كانوا هم اليهود إذ لم تكن هناك كتلة من النصارى تقف مواقف اليهود. ولكن النص هنا عام يواجه مقولات هؤلاء وهؤلاء.

ثم يشبه هؤلاء هؤلاء، ويحكي رأي المشركين في الطائفتين جميعاً (وقالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى) وهذه حكاية قولهم مزدوجة. وإلا فقد كانت اليهود تقول: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً - أي من يهود - وكانت النصارى تقول: لن يدخل الجنة إلا من كان من النصارى، وهذه القولة كذلك، لا تستند إلى دليل، سوى الادعاء العريض، ومن ثم يلحق الله رسوله - ﷺ - أن يجبههم بالتحدي وأن يطالبهم بالدليل.⁴⁴⁰

وهذا يعني أن الفريقين قد حرّفوا وبدلوا فيما بين أيديهم من التوراة والإنجيل، وإلا لما كان بين الفريقين هذا الترامي بتهمة الكفر، إذ التوراة والإنجيل في حقيقتهم على سواء، في الحق الذي نزلا به من عند الله، ولهذا عبر القرآن عنهما معا بالكتاب، ومن قبيل ما يقوله كل من اليهود والنصارى في رمي كل فريق منهما الآخر بالكفر، ما يقوله المشركون عن كل ذي دين غير دينهم، وقد وصفهم الله بأنهم (لا يَعْلَمُونَ) أي لا علم لهم من كتاب سماوي.⁴⁴¹

13.3. المبحث الثالث عشر: النداء

تعريف: النداء "هو طلب الإقبال من المخاطب بحرف من حروف النداء"⁴⁴² ويخرج إلى أغراض بلاغية منها (الإغراء، الاستغاثة، التحسر، التعجب، الندبة) وتكون متعلقة بسياق المخاطب للإقناع والانصياع لكلام المخاطب.

1.13.3. فرعون

الإسراء ك 101

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى سَعِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾⁴⁴³

1- فيمن نزلت:

⁴⁴⁰ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (103/1).

⁴⁴¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (132/1).

⁴⁴² دراسات في البلاغة العربية من بلاغة القرآن الكريم، محمد علوان، نعمان علون/69.

⁴⁴³ الإسراء 101.

ولقد آتينا موسى بن عمران تسع آيات بَيِّنَات تُبَيِّن لِمَن رَّآهَا أَنهَا حُجَجٌ لِّمُوسَى شَاهِدَةٌ عَلَى صِدْقِهِ وَحَقِيقَةُ نُبُوَّتِهِ. وقال ابن عباس في ذلك: التسع الآيات البينات: يده، وعصاه، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم آيات مفصلات. فقال لموسى فرعون: إني لأظنك يا موسى تتعاطى علم السحر، فهذه العجائب التي تفعلها من سحرك، وقد يجوز أن يكون مرادا به إني لأظنك يا موسى ساحرا، فوضع مفعول موضع فاعل، كما قيل: إنك مشئوم علينا وميمون، وإنما هو شائم ويامن، وقد تأول بعضهم حجابا مستورا، بمعنى: حجابا ساترا، والعرب قد تخرج فاعلا بلفظ مفعول كثيرا.⁴⁴⁴

2- الإعراب:

ولقد آتينا موسى تسع آيات مفعولان، بينات في موضع خفض على النعت لآيات، والتقدير:

قل للشَّاكِ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مسحورا أي مخدوعا مثيرا من الثبور أي الهلاك.⁴⁴⁵

(فَقَالَ): الفاء حرف عطف. قال: فعل ماض مبني على الفتح، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو. (لَهُ): اللام: حرف جر، والهاء: ضمير متصل مبني في محلّ جر، والجار والمجرور متعلقان بقال. (فَرَعَوْنُ): فاعل مرفوع بالضمّة، والجملة معطوفة. (إِنِّي): إن: حرف مشبه بالفعل. والياء: ضمير متصل مبني في محلّ نصب اسم إن، والجملة مقول القول. (لَأَظُنُّكَ): اللام هي المرحّلة، وأظنك: فعل مضارع مرفوع بالضمّة، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا، والكاف ضمير متصل مبني في محلّ نصب مفعول به أول، والجملة خبر إن. (يا): حرف نداء. (مُوسَى): منادى مفرد علم مبني على الضم المقدّر على الألف للتعذر في محل نصب. (مَسْحُورًا): مفعول به ثان لأظن منصوب بالفتحة.⁴⁴⁶

3- التحليل:

⁴⁴⁴ ينظر: تفسير للطبري / (568/17).

⁴⁴⁵ إعراب القرآن، أبو جعفر النَّحَّاس / (285/2).

⁴⁴⁶ ينظر: إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس / (206/2).

لم يَجِدْ فِرْعَوْنُ ما يدفع به الآيات إلا إقراره على نفسه بأنه ظانٌّ أن موسى مسحور، فأعلمه الله أن فرعون قد بين أنها آيات، لأن علم فرعون بأنها آيات من عند الله أؤكد في الحجة عليه، ودليل ذلك قوله عز وجل في فرعون وقومه:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.⁴⁴⁷

وكذلك يعقب عليه بذكر الآخرة والمحجيء بفرعون وقومه لمناسبة مشهد القيامة القريب في سياق السورة ومصير المكذابين بالبعث الذي صورته هذا المشهد، فكلمة الحق وتوحيد الله والدعوة إلى ترك الظلم والطغيان والإيذاء لا تصدر في عرف الطاغية إلا من مسحور لا يدري ما يقول، ولا يخشى عاقبة العقاب من الطاغية الذي عمل كل جهد بإمكانه ليمحو فتيل النور بين الناس وليحصل على ولائهم وخوفهم المطلق وجعل لهم الأمثلة والعبر فيمن سبقوهم ممن حاولوا الوقوف في وجهه، فجعلهم عبرة لمن يعتبر وعبر السنون أصبح لا يجراً على ذلك إلا مجنون يعرف عاقبة فعله وقلوه أنه ستؤدي به إلى الهلاك، المصير لحتوم لمن يجراً، فما يستطيع الطغاة من أمثال فرعون أن يتصوروا هذه المعاني ولا أن يرفع أحد رأسه ليتحدث عنها وهو يملك قواه العقلية، فأما موسى فهو قوي بالحق الذي أرسل به مشرقاً منيراً مطمئن إلى نصرة الله له وحمايته، وأخذه للطغاة. وفرعون ومله مهما جاءتهم من الآيات والمعجزات مصرون على كفرهم وتكذيبهم، وهي صور متكررة، فكلماً جاءت أهل الكفر الآيات البينات، كلما استقبلها المكذبون بالرد والتكذيب، وكيف جرت سنة الله مع هؤلاء المكذبين، وهكذا كانت عاقبة التكذيب بالآيات. وهكذا أورث الله الأرض للذين كانوا يستضعفون.⁴⁴⁸ ومسحورا

بمعنى مغلوب العقل.⁴⁴⁹

والنداء هنا قد يفيد التخويف والترهيب فينادي فرعون موسى بياء النداء مع أنه وبحسب السياق قد كان قريباً منه في مقام النقاش والحوار ومحاولة إقناعه بحجته فلم يكن بحاجة لمناذاته، ولكنه كان يريد نقل الحوار والنقاش لمن هم أبعد بالمقام والمكان فناده كأنه بعيد عنه، من باب الزجر لما يدعوه إليه فتار فرعون في وجه سيدنا كموسى زاجراً ومخوفاً إياه

⁴⁴⁷ معاني القرآن وإعرابه، للزجاج/ (263/3).

⁴⁴⁸ ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي/ (487/3)، وفي ظلال القرآن لسيد قطب/ (2253/4).

⁴⁴⁹ تنوير المقلب من تفسير ابن عباس، جمع الفيروزآبادي/ (242/1).

أن لا يمضي في دعوته وسبيله في هذا السعي لأن مصيره سيكون الموت أو العقاب الشديد. فأنزل القريب منزلة البعيد لغرض التحقير والتهديد.⁴⁵⁰

فمهما جاءت فرعون من آيات، ومعجزات محسوسة لا ينكرها إنسان له عين يبصر بها، فما كان منه إزاءها غير الإنكار والكفر بها وازداد معها عدوانا وبغيا، وكذلك مشركو كل زمان، فبين هؤلاء المشركين من قريش، وبين فرعون نسب قريب، يجمعهما فيه، الجبروت والطغيان، واستغلاق القلوب، وظلام النفس، وضلال الرأي، والافتراء والكذب على الأنبياء ورميهم بالكذب والسحر، وهذه المقترحات التي يقترحها مشركو قريش على النبي، قد جاء بمثلها غيره من أنبياء الله إلى فرعون، فلم يجد فيها مقنعا، ولم ير إلا أنها كيد من كيد موسى، وسحر من سحره، فكذلك لو جاء النبي بمثل هذه الآيات إلى هؤلاء المشركين لما تغير موقفهم من النبي، ولكان ردهم كما رد فرعون من قبل بأن يتهموه بالسحر وقد وقع هذا حقا منهم.⁴⁵¹

والمقصود: أننا آتينا موسى - عليه السلام - تسع آيات بينات الدلالة على صدقه فلم يهتد فرعون وقومه وزعموا ذلك سحرا، ففي ذلك مثل للمكابرين كلهم وما قريش إلا منهم. ففي هذا مثل للمعاندين وتسليية للرسول. والآيات التسع هي: بياض يده كلما أدخلها في جيبه وأخرجها، وانقلاب العصا حية، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والرجز وهو الدم، ونقص الثمرات، والقحط وهو السنون، وجمعها الفيروز آبادي في قوله:

عصا، سنة، بحر، جراد، وقمل... يد، ودم، بعد الضفادع طوفان

أي لقد آتينا موسى الآيات البينات الحجة على المشركين فكفروا بها، فكذلك تلك الآيات التي يقترحها المشركون اليوم على محمد ﷺ فلو جاءهم لكفروا وكذبوا بها ولنعتوها بالسحر.⁴⁵²

14.3. المبحث الرابع عشر: التنبيه

⁴⁵⁰ ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (420/3).

⁴⁵¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (560/8).

⁴⁵² ينظر: مفاتيح الغيب للتفسير الكبير، فخر الدين الرازي/ (415/21). وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم، شهاب الدين الألوسي (174/8)، التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (225/15).

3.14.1. المشركين يوم القيامة

الأنعام 27 * 28

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُحْذَرُونَ
مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾⁴⁵³

1- فيمن نزلت:

ولو ترى "يا محمد، هؤلاء العادلين برهم الأصنام والأوثان، الجاحدين نبوتك، الذين وصفت لك صفتهم "إذ وقفوا"، يقول: إذ حُبسوا "على النار"، يعني: في النار، فقالوا يا ليتنا نرد"، يقول: فقال هؤلاء المشركون برهم، إذ حُبسوا في النار: "يا ليتنا نرد"، إلى الدنيا حتى نتوب ونراجع طاعة الله "ولا نكذب بآيات ربنا"، يقول: ولا نكذب بحجج ربنا ولا نجحدها "ونكون من المؤمنين"، يقول: ونكون من المصدقين بالله وحججه ورسله، متبعي أمره ونهيه.⁴⁵⁴

2- الإعراب:

(فَقَالُوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة معطوفة.
(يَا لَيْتَنَا): يا: حرف تنبيه. وليت: حرف مشبه بالفعل، ونا: ضمير متصل اسم ليت. (نُرَدُّ): مضارع مبني للمجهول، مرفوع بالضممة. ونائب الفاعل ضمير مستتر نحن، والجملة في محل رفع خبر ليت. (وَلَا نُكَذِّبُ) الواو: واو المعية حرف عطف، لا: حرف نفي، ونكذب: فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد واو المعية، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (بِآيَاتِ): الباء: حرف جر، آيات: اسم مجرور بالكسرة. والجار والمجرور متعلقان بنكذب. (رَبِّنَا) مضاف إليه مجرور بالكسرة، ونا: ضمير متصل في محل جر مضاف إليه. والمصدر المؤول من أن المضمرة والفعل بعدها معطوف على مصدر منتزع والتقدير هو: ليت لنا ردا وعدم تكذيب. (وَنَكُونُ): الواو: حرف عطف والفعل معطوف على نرد منصوب

⁴⁵³ الأنعام 27-28.

⁴⁵⁴ ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري / (318-316/11).

بالفتحة. (مِنْ) حرف جر. (الْمُؤْمِنِينَ): اسم مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم، والجار والمجرور متعلقان بخبر نكون المحذوف.⁴⁵⁵

وقال بعض من نحويي الكوفة: لا أحبُّ النصب في هذا (نكذب، نكون)، لأنه ليس بتمنٍّ منهم، إنما هو خبرٌ، أخبروا به عن أنفسهم. ألا ترى أن الله تعالى ذكره قد كَذَّبهم فقال: وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ؟ وإنما يكون التكذيب للخبر لا للتمني.⁴⁵⁶

3- التحليل:

فأخبر الله تعالى أنهم في قيلهم ذلك كذبة، قال أبو جعفر: والقراءة التي لا أختار غيرها في ذلك: (يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) بالرفع في كليهما [وهي قراءة نافع]، بمعنى: يا ليتنا نردَّ، ولسنا نكذب بآيات ربِّنا إن رددنا، ولكننا نكون من المؤمنين على وجه الخبر منهم عما يفعلون إن هم رُدُّوا إلى الدنيا، لا على التمنيِّ منهم أن لا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين. لأن الله تعالى ذكره قد أخبر عنهم أنهم لو رُدُّوا لعادوا لما نُهوا عنه، وأنهم كذبة في قيلهم ذلك. ولو كان قيلهم ذلك على وجه التمني، لاستحال تكذيبهم فيه، لأن التمني لا يكذب، وإنما يكون التصديق والتكذيب في الأخبار. في قيلهم: "لو رددنا لم نكذب بآيات ربِّنا وكنا من المؤمنين"، لأنهم قالوه حين قالوه خشية العذاب، لا إيماناً بالله.⁴⁵⁷ ذهب إلى هذا من قال بأنه لا يختار النصب.

الخطاب للرسول- عليه الصلاة والسلام- لأن في الخبر الواقع بعده تسليية له عما تضمنه قوله: وهم يnehون عنه وينأون عنه، فإنه ابتدأ فعقبه بقوله: وإن يهلكون إلا أنفسهم (يقصد بالآية 26 في سورة الأنعام) ثم أردفه بتمثيل حالهم يوم القيامة. ويشترك مع الرسول في هذا الخطاب كل من يسمع هذا الخبر.

ولو شرطية، أي لو ترى الآن، وإذ ظرفية، ومفعول ترى محذوف، دل عليه ضمير وقفوا، أي لو تراهم، ووقفوا ماض لفظا والمعنى به الاستقبال، أي إذ يوقفون. وجيء فيه بصيغة الماضي للتنبيه على تحقيق وقوعه لصدوره عن لا خلاف في

⁴⁵⁵ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (297/1).

⁴⁵⁶ ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي/ (455/2). وجامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (319/11).

⁴⁵⁷ ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (322-320/11).

خبره. ومعنى: وقفوا على النار أبلغوا إليها بعد سير إليها، وهو يتعدى ب "على". والاستعلاء المستفاد ب "على" مجازي

معناه قوة الاتصال بالمكان، فلا تدل (على) على أن وقوفهم على النار كان من أعلى النار، مثلها مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ

تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِ﴾⁴⁵⁸، وأصله من قول العرب: وقفت راحلتي على زيد، أي بلغت إليه.⁴⁵⁹

التنبيه بالاستفهام بأنهم لو ردوا فلن يكذبوا بآيات ربهم، فهم يلفتون الانتباه للاستعطف ولفت الأنظار لعل ذلك يشفع

لهم أو ينفعهم لكن هيهات. التنبيه ب "يا" هي ليست للنداء، بل هي حرف تنبيه تدخل على التمني لإفادة التنبيه

والتوكيد، وتؤدي معنى أقوى، فبينه من حوله ليسمعوه وليبصغوا إليه.

15.3. المبحث الخامس عشر: القصر

تعريف القصر:

" تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص " وهو أربعة طرق مشهورة وهي (النفي والاستثناء، إنما، العطف بلا - بل -

لكن، التقديم والتأخير) فيكون القصر صفة على موصوف أو موصوف على صفة.

1- النفي والاستثناء: ويكون باستخدام أداة من أدوات النفي مع أداة الاستثناء إلا وما قبلها مقصور على ما

بعدها أي مقصور عليه، ويأتي لأمر ينكره المخاطب أو يشك فيه.

2- إنما: وهي إن التوكيدية وما الكافة والتي تكف إن عن العمل وتعرف بالاضطرار، وتستخدم للاختصاص

والحصر، فالمقصور عليه متأخر والمقصور هو المتقدم، وتأتي لتوضيح أمر يجهله المخاطب ولا ينكره فيراد به التنبيه فقط.

3- العطف بلا، بل، لكن: استخدمتها العرب للحصر ف (لا) يجب أن تسبق بنفي وإفراد معطوفها وما قبلها هو

المقصور عليه، أما (بل - لكن) يجب أن يسبقا بنفي أو نهي، وإفراد المعطوف بهما، ويكون المقصور عليه بعدهما.⁴⁶⁰

15.3.1. المطلب 1: قصر الصفة على الموصوف

⁴⁵⁸ الأنعام 30.

⁴⁵⁹ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (184/7).

⁴⁶⁰ البلاغة الواضحة، علي الجارم، مكتبة لسان العرب، المكتبة العلمية، بيروت لبنان/217.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾⁴⁶¹

1- سبب النزول:

وعن أبي نصر أحمد بن إبراهيم المزكي، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن حمدان الزاهد، قال: أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز، قال: حدثنا أبو هشام الرفاعي، قال: حدثنا ابن فضيل، قال: حدثنا حصين عن عبد الله بن مسلم، قال: كان لنا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر، اسم أحدهما: يسار، والآخر جبر، وكانا [صَيِّقَلَيْنِ] - أي يصنعان السيوف - يقرآن كتبا لهما بلسانهما، وكان رسول الله ﷺ يمر بهما فيسمع قراءتهما، فكان المشركون يقولون: يتعلم منهما، فأنزل الله تعالى فأكذبهم: لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين.⁴⁶²

وأخرج ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس أنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلم فينا بمكة اسمه بلعام وكان أعجمي اللسان وكان المشركون يرون رسول الله ﷺ يدخل عليه ويخرج من عنده فقالوا إنما يعلمه بلعام فأنزل الله ﷻ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ الآية، وأخرج ابن أبي حاتم من طريق حصين أنهما كانا عبادان عند عبد الله بن مسلم، أحدهما يقال له يسار والآخر جبر وكانا صقليين فكانا يقرآن كتابهما ويعلمان علمهما وكان رسول الله ﷺ يمر بهما فيستمع قراءتهما فقالوا إنما يتعلم منهما فنزلت.⁴⁶³

2- الإعراب:

(الواو): حرف استئناف. (اللام): لام الابتداء. (قد): حرف تحقيق، لأنَّ علم الله محقق دائم، (نعلم) فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير مستتر نحن للتعظيم. (أنهم): أن: حرف مشبه بالفعل، هم: ضمير متصل مبني في محل نصب

⁴⁶¹ النحل 103.

⁴⁶² ينظر: أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: 468هـ) تحقيق:

كمال بسيوني زغلول الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: 1، 1411 هـ/288.

⁴⁶³ ينظر: لباب النقول للسيوطي/157 - 158.

اسم أن. (يقولون): فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل، والمصدر المؤول (أهم يقولون) في محل نصب سد مسد مفعولي نعلم.

(إنما) إن: حرف مشبه بالفعل، وما: كفتها عن العمل، (يُعلمه): فعل مضارع مرفوع بالضممة، والهاء: ضمير متصل في محل نصب مفعول به مقدّم. (بشر): فاعل مؤخر مرفوع بالضممة. (لسان): مبتدأ مرفوع بالضممة. (الذي): اسم موصول مبني على السكون في محل جر مضاف إليه. (يلحدون): فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل. (إليه): إلى: حرف جرّ، والهاء: ضمير متصل مبني في محل جرّ، والجار والمجرور متعلقان بيلحدون. (أعجمي): خبر مرفوع بالضممة.⁴⁶⁴

3- التحليل:

هذا إبطال لتلبيس آخر مما يلبسون به على عامتهم، وذلك أن يقولوا: إن محمدا يتلقى القرآن من رجل من أهل مكة. قيل: قائل ذلك الوليد بن المغيرة وغيره حين قال إن هذا إلا قول البشر في سورة المدثر آية 25، أي لا يلقنه ملك، بل يعلمه إنسان، وقد عينوه بالبشرية بما دل عليه قوله تعالى: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾⁴⁶⁵،

وافتحاح الجملة بالتأكيد بلام القسم و (قد) يشير إلى أن خاصة المشركين كانوا يقولون ذلك لعامتهم ولا يجهرن به بين المسلمين لأنه باطل مكشوف، فتطرح الآية شبهة من شبهات الكافرين بنبوّة محمد ﷺ، وهي أنهم كانوا يُروّجون فرية تتمثل في أن هذا القرآن الذي يتلوه عليهم محمد بن عبد الله ﷺ إنما جاء به من رجلٍ من الأعاجم كان يجتمع به ويتعلّم منه، وليس من عند الله. وافتححت الآية بأداتي توكيد: (اللام) و(قد)، وهذا يُشير على أن مشركي قريش كان يتحدثون بهذا الحديث فيما بينهم، ولا يجهرن به أمام المسلمين.⁴⁶⁶

وقد أطلع الله المسلمين على ذلك. فقد كان في مكة غلام رومي، كان يصنع السيوف بمكة ويقرأ من الإنجيل ما يقرأ أمثاله من عامة النصارى من دعوات الصلوات الإنجيلية، فاتخذ زعماء المشركين من ذلك تمويهاً على العامة، وتضليلاً لهم

⁴⁶⁴ الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (391/14).

⁴⁶⁵ النحل 103.

⁴⁶⁶ مفاتيح الغيب التفسير الكبير، فخر الدين الرازي/ (271/20)، وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم، شهاب الدين الألوسي

(468/7)، زهرة التفاسير، لأبي زهرة/ (4273/8).

ليشوهوا صورة النبي بين العوام، فإن معظم أهل مكة كانوا أميين فكانوا يحسبون من يتلو كلمات يحفظها ولو محرفة، أو يكتب حروفا يتعلمها، يحسبونه على علم، وكان النبي ﷺ لما جانبه قومه وقاطعوه يجلس إلى هذا الغلام، وكان هذا

الغلام قد أظهر الإسلام فقالت قريش، هذا يعلم محمدا ما يقوله.⁴⁶⁷

وبين القرآن هذا اللبس وهذه التهمة الكاذبة بأوضح بيان، وردّها بشكل فاصل إذ وضّح أن لسان الذي يلحدون وينسبون إليه القرآن أنه أعجمي وهذا لسان عربي مبين، فكيف يعلم الأعجمي الذي لا يكاد يبين، كيف سيعلم العربي القرشي بمثل هذا الكلام الفصيح العربي المعجر الفصيح البليغ؟!.

فقصروا صفة التعليم على الموصوف بالبشرية وهو المعروف كذلك بالعجم، قصروها بأداة الحصر إنما الكافة والمكفوفة، قصر الموصوف على الصفة قصرا حقيقيا، وفي قصر الصفة على الموصوف مثل: ما يجيء إلا زيد، وإنما يجيء وهو يجيء، إذ المقصور عليه هو الذي يلي إلا فهي بمعنى: ما يعلمه إلا بشر، والمقصود هو الواقع في سياق النفي، أي ما أنت معلم إلا من طرف بشر، فهو مناسب للمقام على أنه قيل عليه، أي قيل عليه أنه يوحى إليه من الله، وهم كذبوه وقصروا صفة معلمه وملهمه بالبشرية أو قصروا تعلمه على البشر وليس له معلم آخر.⁴⁶⁸

فإذا أردت قصر الفاعل على المفعول قلت: ما ضرب زيد إلا عمرا على معنى لم يضرب غير عمرو، وإذا أردت قصر المفعول على الفاعل قلت ما ضرب عمرا إلا زيد على معنى لم يضربه غير زيد، والفرق بين المعنيين واضح وهو أن عمرا في الأول لا يمتنع أن يكون مضروب غير زيد ويمتنع في الثاني وأن في الثاني لا يمتنع أن يكون ضاربا غير عمرو ويمتنع في الأول، ولك أن تقول في الأول ما ضرب إلا عمرا زيد، وفي الثاني ما ضرب إلا زيد عمرا فتقدم وتؤخر إلا أن هذا التقديم والتأخير لما استلزم قصر الصفة قبل تمامها على الموصوف قل دوره في الاستعمال لأن الصفة المقصورة على عمرو في قولنا ما ضرب زيد إلا عمرا هي ضرب زيد لا الضرب مطلقا، والصفة المقصورة على زيد في قولنا: ما ضرب عمرا إلا زيد

⁴⁶⁷ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (286/14).

⁴⁶⁸ ينظر: مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (ت: 626هـ) ضبطه وكتبه هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، 1407هـ - 1987م / (293/1).

هي الضرب لعمرو، وإذا أردت قصر أحد المفعولين على الآخر في نحو كسوت جبة. قلت في قصر زيد على الجبة ما كسوت إلا جبة أو ما كسوت إلا جبة وفي قصر الجبة على زيد ما كسوت جبة إلا أو ما كسوت جبة. ⁴⁶⁹

فقصرت التعليم على البشر ونفوه عن غيره، ففي قصر الصفة على الموصوف، كقولك: إنما يقوم زيد، فهو لإثبات قيام زيد ونفي ما سواه من قيام عمرو وبلال وبكر وغيرهم، وهذا هو القصر الذي يدل عليه النفي والاستثناء. ⁴⁷⁰

ويلاحظ أيضاً أنّ الكافرين في كلامهم هذا ذكروا أنّ الذي يعلم النبي ﷺ هو بشر، ولم يعتنوا المعلم، بل جعلوه مبهمًا مجهولًا، مع أنهم كانوا يعلمون اسم الذي ينسبون إليه تعليم النبي ﷺ، وذلك للتوسعة على أنفسهم في اختلاق الأعذار وتوسعة دائرة الأشخاص المحتملين إذا جاء من يسأل عن المقصود (البشر)، فيذكرون أسماء مختلفة ذكرتها كتب التفسير، فإن أثبت أحدهم الكذبة مع فلان نسبوا الأمر لغيره لكن تبقى التهمة قائمة بأسلوبهم هذا. ⁴⁷¹

وبين الله تعالى في الآيتين التي بعدها جزاءهم (النحل 104) و بين في الآية (النحل 105) حقيقتهم وحقيقة افتراءهم وأنهم هم الكاذبون، فالفرية التي افتروها بزعمهم أن الذي يعلم الرسول - ﷺ - هذا القرآن إنما هو بشر و سموه باسمه، واختلفت الروايات في تعيينه لكنهم اتفقوا على أنه كان رجلاً أعجمياً كان النبي صلى الله عليه وسلم عليه يكلمه، والأعجمي لا يعرف إلا اليسير من العربية فيما لا بد منه لقدر ما يجيب السؤال، وهو غلام نصراني يُقال له جبر، وهذه المقالة منهم يصعب حملها على الجد، وأغلب الظن أنها كيد من كيدهم الذي كانوا يدبرونه وهم يعلمون كذبه وافتراءه. وإلا فكيف يقولون- وهم أخبر بقيمة هذا الكتاب وإعجازه- إن أعجمياً يملك أن يعلم محمداً هذا الكتاب. ⁴⁷²

فالمشركون من قريش- يتهمون النبي- صلوات الله وسلامه عليه- بهذه التهمة، وأنه يفترى على الله الكذب، إذ يقول إن هذا القرآن منزل عليه من الله، ثم إنهم لا يقفون عند هذا الحد، بل يرمون النبي ﷺ بأنه يفترى هذا الافتراء من علم غيره وليس من ذاته، أي يستعين على ذلك بأهل العلم الذين يعلمونه، أي الذين يتصل بهم، ويتلقى عنهم ما يجيء به من مفتريات. وذلك أنهم يرون أنه لا يستطيع أن يكون عنده شيء من هذا العلم، إلا باتصاله بأهل الكتاب، وبأن

⁴⁶⁹ المصدر السابق/ (297/1).

⁴⁷⁰ ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، بماء الدين السبكي (397/1).

⁴⁷¹ تفسير الطبري، جامع البيان ت شاكر (299/17).

⁴⁷² ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب/ (2195/4).

يأخذ منهم أخبار الأولين ويعيد التحديث بما بين قومه قریش.⁴⁷³ ومن تناقضات الكفر أنهم يدعون أن مثل هذا الكلام ليس لبشر، ثم ينسبونه إلى بشر أعجمي وأنه من يعلمه هذا! فما داموا قد عجزوا على الإتيان بمثله لما تحدّاهم، فكيف لهم أن ينسبوه في الأخير إلى أعجمي؟ فكيف لأعجمي أن يأتي بقول معجز وبلغ وتحدى ببيانه وفصاحته بلغاءهم وشعراءهم وفصحاءهم، فطالما استطاع هو أن يسمع الأخبار من الأعجمي ويركب لهم كلاما بليغا فلماذا لم يفعلوا ذلك ويركبوا كما فعل - حسب افتراءهم- ويقولوا كلاما مثل قوله؟!.

وأحد فلان في قوله، أو يقال أحد في دينه. ومنه الملحد، لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها، لم يمله عن دين إلى دين. والمعنى: لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان أعجمي غير بين وهذا القرآن لسان عربي مبين ذو بيان وفصاحة ردا لقولهم وإبطالا لظعنهم.⁴⁷⁴

ثم تورد الآية الجواب على كلامهم هذا: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾، وهو جواب يلجئ المعارض إلى الاعتراف بصحة ما كان معترضاً عليه، إذ ظاهر الجواب لا يصلح أن يكون جواباً لقول الكافرين، إذ الأعجمي والعربي من البشر، لكن الكلام على افتراض أن أعجمياً علّم النبي ﷺ المعاني، فهذه الآيات المعجزة التي قطعت بكم عن الإتيان بمثلها كيف يمكن لمن لسانه أعجمي أن يعلم محمداً هذا الكتاب العربي المبين؟ فمقالتهم هذه مقالة واهية، إلى درجة يصعب معها أن يقبلها عاقل، وهذا ما يفسّر لنا استخدامهم أسلوب القصر، أقوى أنواع التوكيد، قصر صفة التعليم على بشريّ، بعيد عن أيّ سبب غيبي، وما هذا الاستخدام إلا لأن قولهم ضعيف جداً، فحاولوا ما يمكن لتقويته، علّه يجد في نفوس السامعين سبيلاً.⁴⁷⁵

2.1.15.3. المشركون يوم القيامة

الأعراف ك 173

⁴⁷³ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (372/7).

⁴⁷⁴ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري / (635/2).

⁴⁷⁵ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب / (2468/3).

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾⁴⁷⁶

1- فيمن نزلت:

يقول تعالى ذكره: شهدنا عليكم أيها المقرؤون بأن الله ربكم، كيلا تقولوا يوم القيامة: "إنا كنا عن هذا غافلين"، إنا كنا لا نعلم ذلك، وكنا في غفلة منه أو تقولوا: (إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم)، اتبعنا منهاجهم (أفهلكننا)، بإشراك من أشرك من آبائنا. فهم المشركون.⁴⁷⁷

2- الإعراب:

(أو): حرف عطف، (تقولوا): فعل مضارع منصوب بالعطف، وعلامة نصبه حذف النون، والواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل، (إنما): إن: حرف مشبه بالفعل، ما: كفتها عن العمل. (أشرك): فعل ماض مبني على الفتح. (آبائنا): آباء: فاعل مرفوع بالضممة، نا: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه. (من) حرف جرّ. (قبل) اسم مبني على الضمّ في محلّ جرّ، والجار والمجرور متعلقان بأشرك. (الواو): حرف عطف. (كنّا): فعل ماض ناقص مبني على السكون، ونا: ضمير متصل مبني في محلّ رفع اسم كان. (ذرية): خبر كنا منصوب بالفتحة. (من) حرف جرّ. (قبل) اسم مجرور بالكسرة، وهم: ضمير متصل مبني في محلّ جرّ، والجار والمجرور متعلقان بنعت لذرية. (الهمزة): حرف استفهام. (الفاء) زائدة. (تهلك) فعل مضارع مرفوع بالضممة، ونا: ضمير متصل مبني في محلّ نصب مفعول به، والفاعل ضمير مستتر أنت. (بما): الباء: حرف جرّ للسبب، وما: حرف مصدري. (فعل): فعل ماض مبني على الفتح. (المبطلون): فاعل مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم.⁴⁷⁸

⁴⁷⁶ الأعراف 173.

⁴⁷⁷ ينظر: تفسير للطبري / (251/13).

⁴⁷⁸ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي / (123/9).

أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل فخرج منها كل من لم يكن له آباء مشركون، ومعنى وأشهدهم على أنفسهم قال لهم: بأن أرسل إليهم رسولا، و(أن) في موضع نصب في الحالتين جميعا، سواء قرأت بـ " تقولوا " - قراءة أهل الكوفة - أو بقراءة " يقولوا " بمعنى كراهة أن... وعند الكوفيين بمعنى لغلا، أي أفتهلكنا بما فعل المبطلون بمعنى لست تفعل هذا.⁴⁷⁹

3- التحليل:

قال بعض المفسرين: خلق الله الناس كالذّر من صلب آدم، وأشهدهم على توحيدهم، وهذا جائز أن يكون جعل لأمثال الذّر فهما تعقل به أمره.⁴⁸⁰

فكان ذلك إعلاما من الله إياهم على أنفسهم، وشهادة منها بالخلقة أنه ربه الذي رباهم وملكهم على ما جرى فيهم من تدبير الله - جل ثناؤه - ولغلا يقولوا غدا: إنهم عن هذا غافلين؛ إذ قد عرف ذا كل ذي عقل، وعرف أنه كان بالله سبحانه وتعالى لا بوالديه؛ ليجعلوا شرك الآباء والأمهات لأنفسهم حجة من حيث كانوا منهم.⁴⁸¹

يعني المشركين وإنما اقتدينا بهم وكنا في غفلة عن التوحيد، بسبب آباءنا أو ما أشرك إلا آباؤنا ولهذا نحن أشركنا فحسروا صفة الشرك على الموصوف وهو " آباءهم " كأنه لا مشرك إلا آباءهم.⁴⁸²

والدليل على أنها في المشركين وأولادهم، قوله أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل.⁴⁸³

فهذا كلام مصروف إلى غير بني إسرائيل، فإنهم لم يكونوا مشركين والله يقول أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل فهذا انتقال بالكلام إلى محاجة المشركين من العرب، وهو المقصود من السورة ابتداء ونهاية، فكان هذا الانتقال بمنزلة رد العجز على الصدر، فبعد أن أفرهم على أنفسهم حتى لا ينكروا ذلك يوم القيامة، والاستفهام في ألسنتهم بربكم تقرير، ومثله

⁴⁷⁹ إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس / (80/2).

⁴⁸⁰ معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت: 311هـ) تحقيق: عبد الجليل عبده شلي الناصر: عالم الكتب - بيروت الطبعة: 1 1408هـ - 1988 م / (390/2).

⁴⁸¹ ينظر: تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (ت: 333هـ) تحقيق: د. مجدي باسلوم الناصر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان الطبعة: 1، 1426هـ - 2005 م / (84/5).

⁴⁸² ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت: 427هـ) تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي الناصر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان الطبعة: 1 1422هـ - 2002 م / (304/4).

⁴⁸³ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري / (177/2).

يقال في تقرير من يظن به الإنكار أو ينزل منزلة ذلك، وفي المشهد لمساة قوية للتنفير من هذا الانسلاخ، والتحذير من مآله المنظور، والندم يوم القيامة، بعد الكذب على الله و اتهام الآباء بمسؤولية الشرك.⁴⁸⁴

فهذا العذر أيضا غير مقبول منكم، فلا يحمل عنكم تبعة شرككم بالله شرك آبائكم من قبلكم، إذ كنتم ومعكم فطرتكم، وكنتم ومعكم عقولكم، ثم كنتم ومعكم دعوة الرسل الذين يدعونكم إلى الله، فإذا أهلككم الله فإنما يهلككم بأفعالكم لا بأفعال آبائكم.⁴⁸⁵

فحاول هؤلاء المشركون الكذب على الله تعالى يوم القيامة يوم حسابهم وهذا يذكر بعلم الله تعالى بما سيكون منهم يوم القيامة حين تنتهي حججهم وتنتهي بهم السبل والطرق للنجاة والهرب، فيلجؤون بطريقتهم التي طالما اعتمدها في حياتهم وفي فترة شركهم وطغيانهم ألا وهي الكذب والكذب، فيحاولون النجاة من مصيرهم المحتوم جزاء لشركهم المعلن، فيقصرون صفة الشرك على الموصوف بها وهو الآباء السابقون، فيبرؤون بذلك أنفسهم ويحملون آباءهم مسؤولية ذلك الشرك الموروث، لكن الله تعالى يجيبهم بالحجة الدامغة أنهم شهدوا بالحق ويوحداية الله وربوبيته من قبل فلا علاقة للآباء ولا دخل لهم في شركهم بل كان من اختيارهم وقناعتهم وحرية سلوكهم.

2.15.3. المطلب 2: قصر الموصوف على الصفة

1.2.15.3. المشركون

النحل ك 101

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁴⁸⁶

1- سبب النزول:

⁴⁸⁴ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (165/9). و ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب/ (1333/3).

⁴⁸⁵ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (516/5).

⁴⁸⁶ النحل 101.

نزلت حين قال المشركون: إن محمداً يسخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم، وما هو إلا مفتر يقوله من تلقاء نفسه. فأنزل الله تعالى هذه الآية والتي بعدها.⁴⁸⁷

2- الإعراب:

والجملة (والله أعلم بما ينزل) فاصلة بين إذا وجوابها؛ فيجوز أن تكون حالا، وأن لا يكون لها موضع.⁴⁸⁸

(قالوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها من الإعراب. (إنّما): إنّ: حرف مشبه بالفعل، ما: كفتها عن العمل. (أنت) ضمير منفصل مبني في محلّ رفع مبتدأ. (مفتر) خبر مرفوع بالضمة المقدّرة على الياء المحذوفة للتقاء الساكنين، والجملة مقول القول (بل): حرف استئناف للإضراب الانتقالي. (أكثرهم): مبتدأ مرفوع بالضمة، وهم: ضمير متصل مبني في محلّ جر مضاف إليه. (لا): حرف نفي. (يعلمون): فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة خبر، وحذف مفعول يعلمون للعلم به أي حقيقة النسخ وفائدته.⁴⁸⁹

3- التحليل:

شرع الله تعالى من خلال هذه الآيات في حكاية شبهات منكري نبوة محمد ﷺ، " قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان إذا نزلت آية فيها شدة، ثم نزلت آية ألين منها تقول كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمر وغدا ينهى عنه، وإنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه، فأنزل الله تعالى قوله: وإذا بدلنا آية مكان آية ومعنى التبديل، رفع الشيء مع وضع غيره مكانه".⁴⁹⁰

وتبديل الآية هو نسخها بآية أخرى، وفي الآية توبيخ للكفار حين اتهموا النبي ﷺ بالافتراء، فالله أعلم بما ينزل على نبيه، فمال هؤلاء الكفار يحكمون على النبي ﷺ بالافتراء حين التبديل، في أمرهم لم يؤمنوا به أصلاً، فيحكمون عليه

⁴⁸⁷ ينظر: أسباب نزول القرآن للواحيدي/ (288).

⁴⁸⁸ التبيان في إعراب القرآن، للعكبري/ (806/2).

⁴⁸⁹ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (388/14). وينظر إعراب القرآن وبيانه، درويش/ (365/5).

⁴⁹⁰ مفاتيح الغيب، التفسير الكبير، بفخر الدين الرازي/ (270/20).

بالفرية في القرآن الذي لم يصدقوه فلما تنسخ آية كأهم يتشبثون بها ويخلصون لها بوفاء؟! وإذا بدلنا آية مكان آية وهو الناسخ والمنسوخ لما يعلم الله جل وعز في ذلك من الصلاح تلبسوا به فقالوا إنما أنت مفتر وهو ابتداء وخير، وكذا بل أكثرهم لا يعلمون.⁴⁹¹

فقصروا الموصوف الذي هو محمد رسول الله عليه أركى الصلوات والسلام، قصروا وصفه على صفة الافتراء، "إنما أنت مفتر أي ما أنت إلا مفتر لا غير وقصروا عليه الصفة، وما ازدادوا في طول مدتهم إلا شكاً على شك، وجحوداً على جحد، وجروا على منهاجهم في التكذيب، فلم يصدقوه ﷺ، وما زادوا في ولايته إلا شكاً ومرية.⁴⁹²

وقد كذبوا على النبي ﷺ حتى في تهمتهم المكذوبة وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ وكانوا يقولون: إن محمداً يسخر من أصحابه: يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غداً، فيأتيهم بما هو أهون، ولقد افتروا، فقد كان ينسخ الأشق بالأهون، والأهون بالأشق، والأهون بالأهون، والأشق بالأشق، لأن الغرض المصلحة، لا الهوان والمشقة.⁴⁹³

والآية هي نص في تقرير النسخ في القرآن الكريم، وذلك بدليل لفظة "بدلنا" التي تدل على التبديل وإحلال آية مكان آية، وكلمة مكان هنا تدل على التبديل وليس الحذف والإزالة ولو كان غير ذلك لكان النظم القرآني هنا بهذا الشكل: "وإذا بدلنا آية بآية" وكلمة مكان لها مدلول تبديل الأماكن، كان تنزل الآية في العهد المكي ثم توضع مع آيات نزلت بعدها بسنين في العهد المكي، وعلى هذا، فإن تبديل آية مكان آية، هو وضع آية نزلت حديثاً بمكانها الذي يأمر الله سبحانه وتعالى أن توضع فيه بين آيات سبقتها بزمان بعيد.

ولا شك أن كثيراً من المشركين والمنافقين، ومرضى القلوب، كانوا ينظرون إلى هذا التبديل والتغيير، الذي كان يؤذن للنبي ﷺ أصحابه من كتاب الوحي به، فكان الكفار ينظرون إليه نظر اتهام للنبي بأنه إنما يعيد بناء القرآن، ويغير ويبدل فيه،

⁴⁹¹ إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس / (260/2).

⁴⁹² لطائف الإشارات، تفسير القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: 465هـ) تحقيق: إبراهيم البسيوني الناشر:

الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر الطبعة: الثالثة / (321/2).

⁴⁹³ ينظر: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري / (634/2).

ويصلح من أمره حتى يراه مستقيماً عنده، شأنه في ذلك شأن الشاعر الذي ينشئ القصيدة، ثم يجري عليها من التعديل والتبديل ما يبدو له، حتى تستقيم لنظره.⁴⁹⁴

وجملة والله أعلم بما ينزل معترضة بين شرط إذا وجوبها، والمقصود منها تعليم المسلمين لا الرد على المشركين، لأنهم لو علموا أن الله هو المنزل للقرآن لارتفع البهتان ولما طعنوا في الدين، والمعنى: أنه أعلم بما ينزل من آية بدل آية، فهو أعلم بمكان الأولى ومكان الثانية ومحمل كليهما، وكلٌّ عنده بمقدار.⁴⁹⁵

وحكاية طعنهم في النبي ﷺ بصيغة قصر الموصوف على الصفة، فجعلوه لا صفة له إلا الافتراء، وهو قصر إضافي، أي لست بمُرسل من الله. وهذا من مجازفتهم وسرعتهم في الحكم الجائر فلم يقتصروا على أن تبديله افتراء، بل جعلوا الرسول مقصوراً على كونه مفترياً لإفادة أن القرآن الوارد مقصور على كونه افتراء؛ وأصل الافتراء: الاختراع، وجبل على اختراع الخبر، أي اختلاقه، فساوى الكذب في المعنى، ولذلك قد يطلق وحده كما هنا.⁴⁹⁶

وقد يطلق مقترناً بالكذب كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁴⁹⁷

ثم يثني الله تعالى أن الافتراء لا يمكن أن يصدر من رسول أمين لكنه لا يصدر إلا من أمثال هؤلاء الذين لا يؤمنون مهما رأوا من آيات فيقول: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ. وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾⁴⁹⁸. فالكذب جريمة فاحشة لا يقدم عليها مؤمن، فما بالك أن تصدر من نبي مكرم اصطفاه ربه ليبلغ رسالاته.⁴⁹⁹

3.15.3. المطلب 3: القصر ب إنما

3.15.3.1. اليهود والمشركين

البقرة م 275

⁴⁹⁴ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (363/7).

⁴⁹⁵ ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم الغرناطي / (436/1). معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي / (44/5).

⁴⁹⁶ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (283/14).

⁴⁹⁷ النحل 105.

⁴⁹⁸ النحل 105.

⁴⁹⁹ ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب / (2196/4).

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁵⁰⁰

1- فيمن نزلت:

بني إسرائيل، اليهود عموماً قالوا إن البيع مثل الربا، مع أنه قد حُرِّمَ عليهم، وتبعهم في ذلك الكثير من الناس. وقيل إنه يعني ثقيفاً لأنهم كانوا أكثر العرب رباً، فلمّا نُهوا عنه قالوا: كيف ننهي عن الربا وهو مثل البيع فحكى الله تعالى ذلك عنهم⁵⁰¹ أي المشركين.

2- الإعراب:

(ذَلِكَ): اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف للخطاب، والإشارة إلى العذاب النازل بهم،⁵⁰² واللام للبعد، والكاف للخطاب (بِأَنَّهُمْ): الباء: حرف جر، أن: حرف مشبه بالفعل، هم: ضمير متصل مبني في محل نصب اسم أن. (قَالُوا) فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، والجملة خبر أن، والمصدر المؤول في محل جر بحرف الجر، والجار والمجرور متعلقان بخبر محذوف.⁵⁰³

أي: ذلك كائن بسبب قولهم، والجملة استئنافية. (إِنَّمَا): إن حرف مشبه بالفعل، ما: كفتها عن العمل. (الْبَيْعُ): مبتدأ مرفوع بالضممة. (مِثْلُ): خبر مرفوع بالضممة. (الرِّبَا): مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة للتعذر. والجملة مقول القول.⁵⁰⁴

3- التحليل:

⁵⁰⁰ البقرة 275.

⁵⁰¹ ينظر: النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت: 450هـ) تحقيق:

السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان (1/348).

⁵⁰² ينظر: إعراب القرآن وبيانه، لمصطفى درويش/ (1/428).

⁵⁰³ ينظر: إعراب القرآن تأليف: أبو جعفر التَّحَّاسُ/ (1/134). وينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (3/71).

⁵⁰⁴ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (1/117).

قوله: (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا)، فيه دليل جواز القياس في العقل؛ لأنه لو لم يكن في العقل جوازه لم يكن لقولهم: (إنما البيع مثل الربا) معنى. لكنهم لم يعرفوا معنى المماثلة، ثم المماثلة على الوجهين: مماثلة أسباب، ومماثلة أحوال.⁵⁰⁵ فقياسهم باطل ومحض افتراء وقد ثبت عند الفقهاء كفر من اعتقد حل هذا القول.

ولم تعطف هذه الآية على ما قبلها، ﴿الذين ينفقون أموالهم﴾⁵⁰⁶، وإن كان سياق النظم يقضي بهذا، على نحو ما تجري عليه في أساليبنا، بل وعلى ما جرى عليه نظم القرآن في كثير من المواقف المشابهة لهذا، حيث يعطف الليل على النهار، والمحسن على المسيء والمؤمن على الكافر، وهكذا فلم يقع العطف هنا بين الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية، والذين يأكلون الربا- على غير المألوف- وذلك للبعد البعيد الذي بين هؤلاء وأولئك، حيث لا يمكن أن يلتقيا على أي وجه من الوجوه فهما أكثر من متناقضين وأبعد من متضادين، وفي هذا تشنيع على الربا وآكله، وعلى عزلهم عن المجتمع الإنساني كله، حتى مجتمع الكافرين والمنافقين، لأن كلا من المنافق والكافر يأكل نفسه على حين أن أكل الربا يأكل نفسه ويأكل ضحاياه المتعاملين معه، ففوق شناعة فعلهم أضافوا له شناعة قولهم وادعاءهم أن البيع مثل الربا وقصروه بـ "إنما" فتظاهروا أن لا ضرر فيه ولا بأس.⁵⁰⁷ ولكنه في الحقيقة من أكبر الطرق في أكل ما الناس بغير حق وهو عكس ما جاء به الدين الإسلامي خصوصا والديانات بالأعم السابقة عموما لما فيه من حفظ مال الأمة وحفظها من أنواع الابتزاز التي تكون من الغني نحو المحتاج من الفقراء فيجعل دينه كالورطة التي يصعب الخروج منها لأن الدين يستمر بالنمو وفوائد المدين تزيد وخسائر المستدين تتضاعف.

ولقد اعترض المرابون على تحريم الربا بأنه ليس هناك مبرر لتحريم العمليات الربوية وتحليل العمليات التجارية كانت الشبهة التي ركنوا إليها، هي أن البيع يحقق فائدة وربحاً، كما أن الربا يحقق فائدة وربحاً، فأرادوا إظهار اعتراضهم بالتأكيد على أن البيع إنما هو مثل الربا تماماً فقصروا البيع بشبهه بالربا، ويفيد القصر هنا المطابقة، وهي شبهة واهية. فالعمليات التجارية قابلة للربح وللخسارة. والمهارة الشخصية والجهد الشخصي والظروف الطبيعية الجارية في الحياة هي التي تتحكم في الربح والخسارة. أما العمليات الربوية فهي محددة الربح في كل حالة، وثابتة ومضمونة الطرف، وهذا هو الفارق

⁵⁰⁵ ينظر: تفسير الماتريدي، أبو منصور الماتريدي / (269/2).

⁵⁰⁶ البقرة 274.

⁵⁰⁷ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (350/2).

الرئيسي. وهذا هو مناط التحريم والتحليل.⁵⁰⁸ فطرق القصر التي اصطلح عليها البلاغيون أربعة: العطف، والنفي والاستثناء، وإنما، والتقديم.

وتأتي "إنما" لإفادة كل أنواع القصر، فهي تفيد القصر الحقيقي بقسميه التحقيقي والادعائي، كما تفيد القصر الإضافي بأنواعه ثلاثة: القلب والإفراد والتعيين،⁵⁰⁹ ولما كانت "إنما" تستعمل في الأمور المعلومة التي لا تُنكر ولا تُدفع فقد أوثرت بالتعبير هنا لتنبئ بأن هذا الأمر من الأمور المعلومة، التي لا يُنكرها أحد ولا يدفعها مدافع، لهذا اعترض اليهود بهذا الأسلوب ليظهروا إنكارهم واستغرابهم لهذا التحريم، وتعجبهم من التفرقة بين البيع والربا. و"إنما" دلالتها على القصر دلالة وضعية، وعلى الرغم من ذلك لم يفت البلاغيون أن يتحدثوا عن وجه دلالتها على القصر، فقد ذكروا أنها تدل على القصر لتضمنها معنى "ما وإلا" مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾⁵¹⁰ بالنصب؛ أي ما حرم عليكم إلا الميتة.. إلخ.⁵¹¹

16.3. المبحث السادس عشر: الحصر بالنفي

النفي "يستعمل في العربية لنفي الحال عند الإطلاق"⁵¹² ومن حروفه (لا، لات، إن، ما، لم، لما، ليس) وتأتي (لا) بمعنى توكيد النفي، وتسمى لا النافية للجنس؛ لأنها "تنفي بدخولها جنس ما دخلت عليه ونوعه"⁵¹³ وعند النظر إلى الآيات الكريمة التالية وتحليلنا للأسلوب الخطابي فيها، يتضح لنا المقام الذي كان عليه الكافرين من تكذيب ونفي وإنكار.

1.16.3. المطلب 1: حصر بالنفي بأن وإلا

1.1.16.3. الرجل من بني إسرائيل من قوم موسى

⁵⁰⁸ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (327/1).

⁵⁰⁹ ينظر البلاغة 2 المعاني، مناهج جامعة المدينة العالمية/437.

⁵¹⁰ البقرة 173.

⁵¹¹ ينظر: عروس الأفراح في شرح تلخي/المفتاح، أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي (ت: 773 هـ) تحقيق:

الدكتور عبد الحميد هندراوي الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان الطبعة: 1، 1423هـ - 2003 م/ (590/1).

⁵¹² معاني النحو، فاضل السامرائي، (1/251).

⁵¹³ المرجع في اللغة العربية نحوها وصرفها، علي رضا/486.

﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَا يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ نَقْتُلَكَ كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾⁵¹⁴

1- أسباب النزول:

فلما أراد موسى أن يبطش بالفرعوني الذي هو عدو له وللإسرائيلي، قال الإسرائيلي لموسى وظن أنه إياه يريد (أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس).

وذكر الطبري: "قال أهل التأويل عن قتادة: (فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال): خافه الذي من شيعته حين قال له موسى: (إنك لغوي مبين)، و عن السدي، قال موسى للإسرائيلي: (إنك لغوي مبين) ثم أقبل لينصره، فلما نظر إلى موسى قد أقبل نحوه ليطش بالرجل الذي يقاتل الإسرائيلي، (قال) الإسرائيلي، وفرق من موسى أن يبطش به من أجل أنه أغلظ له الكلام: (يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين) فتركه موسى، وكان من فعل الجبابة: قتل النفوس ظلما، بغير حق، فاتهمه أنه قاتل ظالم مفسد بالأرض مع أنه يعلم أنه هو من أنقذه وهو من وقف معه ونصره فكذب عليه بمجرد شكه أنه سيبطش به وهذه من عادات بني إسرائيل".⁵¹⁵

2- الإعراب:

(قَالَ): فعل ماض مبني على الفتح. (قَرِينُهُ): فاعل مرفوع بالضممة، والجملة مستأنفة. (رَبَّنَا): منادى بأداة نداء محذوفة مضاف منصوب بالفتحة، ونا: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه. (مَا): حرف نفي. (أَطْعَمْتُهُ) فعل ماض مبني على السكون، والتاء: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، والهاء: ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به، والجملة مقول القول. (وَلَكِنْ): الواو: حرف عطف، ولكن: حرف استدراك لا عمل له. (كَانَ): فعل ماض ناقص اسمه

⁵¹⁴ القصص 19.

⁵¹⁵ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (544/19).

ضمير مستتر هو. (في): حرف جر. (ضلال): اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور متعلقان بخبر كان محذوف. (بعيد)

صفة مجرورة بالكسرة، والجملة معطوفة على ما قبلها.⁵¹⁶

3- التحليل:

فاتهم سيدنا موسى بالتجبر والعلو بالأرض كذبا وبهتاننا فقط حين ظن، ظن السوء أنه يريد أن يبطش به مع أنه كان يريد إنقاذه كما أنقذه من قبل، ولأنه فقط لأمه وأنبه على كثرة مشاكله لما قال له موسى إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ، فأسرع إلى التهم والبهتان ضد النبي الكريم الذي أراد له الصلاح والحماية.

فالمقولة التي تكاد تلتقي عندها الآراء، هي أن الإسرائيلي، حين استصرخ موسى، ثم سمع من موسى قوله له: (إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ) أي بعراكه هذا الذي لا ينتهي واشتباكاتة التي لا تنمر إلا أن تثير الثائرة على بني إسرائيل، فتوقع الشر من موسى، ثم إن موسى لما اتجه إليهما، يريد أن يبطش بالمصري، ظن الإسرائيلي أنه يريد البطش به هو بعد أن رماه بقوله: (إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ)، وهنا صرخ في وجه موسى واتهمه بالقتل والبغي والجبروت.⁵¹⁷ فالجبار من أمثلة المبالغة لأنه مشتق من أجبره، وأمثلة المبالغة تشتق من المزيد بقلّة مثل الحكيم بمعنى الحكم، قال الفراء: لم أسمع فعلا في أفعل إلا جبارا ودراكا، وكان القياس أن يقال: المجبر والمدرك، وقيل: الجبار معناه المصلح من جبر الكسر، إذا أصلحه، فاشتقاقه لا ندرة فيه.⁵¹⁸ والحصر بالنفي بأن وإلا إفادة لمعنى الحصر وأن لا مبتغى له إلا ذلك البغي، أي حصر هدف ومراد سيدنا موسى فقط في أن يريد الجبروت و نفى عنه أن يكون من المصلحين.⁵¹⁹ وصيغة القصر بمعنى: هذا منحصر في كونك تريد الجبروت ونفي الإصلاح عنه. وهو قصر إضافي لا يعدو كونه من المفسدين. لزيادة تأكيده وتقريره، وجاء الحصر فيه بـ (إنما) التي موضعها ما هو معلوم بالجملة؛ لأن المعنى قد عُلم من مفهوم الحصر بالنفي والإثبات الذي قبله.⁵²⁰

⁵¹⁶ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (238/20).

⁵¹⁷ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (329/10).

⁵¹⁸ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (122/11).

⁵¹⁹ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (2683/5).

⁵²⁰ تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت: 1354هـ)، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: 1990 م (405/10).

2.16.3. المطلب 2: حصر بالنفي بما وإلا

1.2.16.3. الملاء من قوم نوح

هود ك 27

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾⁵²¹

1- فيمن نزلت:

والملاء الرؤساء، أي هم مليون بما يقولون، فقال الكبراء من قوم نوح وأشرافهم وهم (الملاء)، الذين كفروا بالله وجحدوا نبوة نبيهم نوح عليه السلام (ما تراك)، يا نوح (إلا بشرا مثلنا)، يعنون بذلك أنه آدمي مثلهم في الخلق والصورة والجنس، كأنهم كانوا منكبين أن يكون الله يرسل من البشر رسولا إلى خلقه، لنظنكم كاذبين)، وهذا خطاب منهم لنوح عليه السلام، وذلك أنهم إنما كذبوا نوحا دون أتباعه، لأن أتباعه لم يكونوا رسلا. وأخرج الخطاب وهو واحد مخرج خطاب الجميع، كما قيل: (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء).⁵²²

2- الإعراب:

(فَقَالَ): الفاء: حرف استئناف، قال: فعل ماض مبني على الفتح. (الْمَلَأُ): فاعل مرفوع بالضم، والجملة استئنافية. (الَّذِينَ): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع صفة للملاء. (كَفَرُوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، والجملة صلة. (مِنْ): حرف جر. (قَوْمِهِ): اسم مجرور بالكسرة، والهاء: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه، والجار والمجرور متعلقان بحال محذوفة من واو الجماعة. (ما): حرف نفي. (تَرَاكَ) فعل مضارع مرفوع بالضملة المقدرة على الألف للتعذر، والكاف: ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به أول، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن، والجملة مقول القول. (إِلَّا): حرف حصر. (بَشَرًا): مفعول به ثان منصوب

⁵²¹ هود 27.

⁵²² ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري / (297/15).

بالفتحة. (مثلاً): صفة منصوبة بالفتحة، ونا: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه، والجملة مفعول القول. (وما) الواو: حرف عطف، وما: حرف نفي. (نراك) فعل مضارع مرفوع بالضممة المقدرة على الألف للتعذر، والكاف: ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به أول، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن، والجملة معطوفة. (اتَّبَعَكَ) فعل ماض مبني على الفتح، والكاف ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به مقدم، والجملة في محل نصب مفعول به ثان. (إِلَّا): حرف حصر. (الَّذِينَ): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل اتبعك. (هُمْ): ضمير منفصل مبني في محل رفع متبداً. (أَرَادُنَا): خبر مرفوع بالضممة، ونا: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه، والجملة صلة. (بَادِي) مفعول فيه نائب عن ظرف زمان منصوب بالفتحة، متعلق باتبعك. (الرَّأْيِ): مضاف إليه مجرور بالكسرة. (وما) الواو: حرف عطف، وما: حرف نفي. (نَرَى): مضارع مرفوع بالضممة المقدرة على الألف للتعذر وفاعله مستتر نحن، والجملة معطوفة. (لَكُمْ): اللام: حرف جر، والكاف: ضمير متصل مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بنرى. (مِنْ): حرف جر زائد (فَضِّلْ): اسم مجرور لفظاً منصوب محلاً مفعول به. (بِإِلَّ): حرف عطف للإضراب. (نَظُنُّكُمْ) فعل مضارع مرفوع بالضممة، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن والكاف: ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به أول، والجملة معطوفة. (كَادِيبِينَ): مفعوله الثاني منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم.⁵²³

3- التحليل:

غرضهم هنا منه التعريض بأنهم أحق منه بالنبوة وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد لجعلها فيهم، وقد زعم هؤلاء أنهم يحجون نوحاً من وجهين: أحدهما أن المتبعين أراذل ليسوا قدوة ولا أسوة، والثاني أنهم مع ذلك لم يتروّوا في اتباعه، ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به، وإنما بادروا إلى ذلك ارتجالاً وفي غير فكرة ولا روية.⁵²⁴

جزموا بتكذيبه فقدموا لذلك مقدمات استخلصوا منها تكذيبه، وتلك مقدمات باطلة أقاموها على ما شاع بينهم من المغالطات الباطلة التي روجها الإلّاف والعادة فكانوا يعدون التفاضل بالسودد وهو شرف مصطلح عليه قوامه الشجاعة والكرم، وكانوا يجعلون أسباب السودد أسباباً مادية جسدية، فيسودون أصحاب الأجسام البهجة كأنهم خشب مسندة

⁵²³ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (53/2).

⁵²⁴ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (251/12).

لأنهم ببساطة مداركهم العقلية يعظمون حسن الذوات، ويسودون أهل الغنى لأنهم يطمعون في نواهم،⁵²⁵ وقولهم هو إشارة لمدخل من مداخل الريب والشك عندهم، في أمر نوح وفي دعوته، وهو أن الذين استجابوا لنوح، هم من ضعفة القوم والمرذولين فيهم، والزلزل من كل شيء هو الخسيس منه،⁵²⁶ فالخسر بالنفي هنا يفيد زيادة معنى في الشك والريب فيه وحصر الاتباع في الأراذل أي أنه لم يتبعه إلا الأراذل فاستخدموا الأمر كأنه دليل على بطلان دعوته والتي لو كانت صالحة لاتبعها أفاضل القوم ورؤساؤهم وهم ذوي الحكمة والحكم.

فالذين استجابوا لدعوة نوح، كانوا من الذين لم تقم لهم في مجتمعاتهم رئاسة، أو تقع لأيديهم سلطة، يخشون عليها من هذا الطارق الجديد، الذي يطرقهم بتلك الدعوة، التي يخشى منها أرباب الجاه والسلطان، أن تكون سببا في تغيير الأحوال التي اطمأنوا إليها، وشدوا أيديهم عليها واعتادوا عليها يخشون أن تزول عنهم وتأخذ من أيديهم، وهكذا، يكون الموقف دائما في مواجهة كل جديد، يطلع على الناس.⁵²⁷

فهو نفس رد قريش تقريبا حين قالوا: "ما نراك إلا بشرا مثلنا" الشبهات نفسها والالتزامات نفسها والكبرياء ذاته والاستقبال الجاهل نفسه، إنما الشبهة التي وقرت في نفوس جهال البشر: أن الجنس البشري أصغر من حمل رسالة الله فإن تكن رسالة فليحملها ملك أو مخلوق آخر، هي شبهة جاهلة، مصدرها عدم الثقة بهذا المخلوق الذي استخلفه الله في أرضه، وهي وظيفة خطيرة ضخمة، لكن في الحقيقة لا بد أن يكون الخاق قد وضع وأودع في هذا الإنسان ما يكافئها من الاستعداد والطاقة، وأودع في جنسه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهيوون لحمل الرسالة، باختيار الله لهم، وهو أعلم بما أودع في كياناتهم الخاص من خصائص هذا الجنس في عمومهم، وفي الآية كذلك حصر الإتيان في الأراذل كدليل على بطلان رسالته وفيها كذلك جهل بحقيقة أن الله يصطفي من يشاء وليس شرطا أن يكون من عليا القوم من يتبع الرسل.⁵²⁸ فهم كذبوه بحجة أنه بشر مثلهم لا يقوى على حمل تلك الرسالة الربانية، وأكدوا ذلك بالنفي أي نفوا عنه أي صفة إلا أنه بشر أي مثلهم لا خصوصية له عليهم فأكدوا ريبهم وشكهم فيه بهذا الأسلوب ؛ أي أسلوب الحصر

⁵²⁵ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (46/12).

⁵²⁶ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (1130/6).

⁵²⁷ ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي / (171/4). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز بن عطية الأندلسي / (162/3).

التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (1131/6).

⁵²⁸ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب / (1872/4).

بالنفي واستخدموا أداة النفي "ما" و "إلا" لحصر حقيقته في البشرية الخالصة ليس لها بعدها أي ميزة من النبوة أو الخصوصية الربانية التي قد تخص بشرا مثلهم.

3.16.3. المطلب 3: حصر بالنفي بما وغير

3.16.3.1. فرعون

القصص ك 38

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقَدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾⁵²⁹

1- أسباب النزول:

وقال فرعون لأشرف قومه وسادتهم: (يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري) فتعبده، وتصدقوا قول موسى فيما جاءكم به من أن لكم وله ربا غيري ومعبودا سواي (فأوقد لي يا هامان على الطين) يقول: فاعمل لي آجرا، وذكر أنه أول من طبخ الآجر وبني به. فادّعى الربوبية واتهم موسى بالكذب فعكس الحقائق واتهم الصادق بالكذب ونسب لنفسه الكاذبة الصدق وفوق كل هذا نسب لنفسه الربوبية.⁵³⁰

2- الإعراب:

(وقال): الواو حرف استئناف، قال: فعل ماض مبني على الفتح. (فِرْعَوْنُ): فاعل مرفوع بالضمّة، والجملة مستأنفة لا محل لها. (يا): حرف نداء (أَيُّهَا) منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب، وها: حرف تنبيه. (الْمَلَأُ) بدل من أي مرفوع بالضمّة. (ما): حرف نفي. (عَلِمْتُ) فعل ماض مبني على السكون، والتاء: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (لَكُم) اللام: حرف جر، والكاف: ضمير متصل مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل. (مِنْ): حرف جر زائد. (إِلَهِ): اسم مجرور لفظاً منصوب محلاً مفعول به لعلمت. (غَيْرِي): صفة إله مجرورة بالكسرة، والجملة

⁵²⁹ القصص 38.

⁵³⁰ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (580/19).

مقول القول. (فَأَوْقَدْ): الفاء: حرف استئناف، أوقد: فعل أمر مبني على السكون، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت.

(لي): اللام: حرف جر، والياء: ضمير متصل مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل. (يا): حرف نداء.

(هامان): منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب. (عَلَى): حرف جر. (الطَّيْنِ): اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور متعلقان بالفعل، والجملة اعتراضية. (فَجَعَلَ): الفاء: حرف عطف، اجعل: فعل أمر مبني على السكون، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت. (لي): اللام: حرف جر، والياء: ضمير متصل مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. (صَرَّحاً): مفعول به منصوب بالفتحة. (لَعَلِّي): حرف مشبه بالفعل، والياء: ضمير متصل مبني في محل نصب اسم لعل. (أُطْلِعَ) فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا. (إِلَى): حرف جر. (إِلَه): اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور متعلقان بالفعل. (مُوسَى) مضاف إليه مجرور بالكسرة المقدرة للتعذر، والجملة الفعلية خبر لعل، والجملة الاسمية استئنافية لا محل لها. (وَأَيُّ): الواو: للحال والافتتان، إن: حرف مشبه بالفعل، والياء: ضمير متصل مبني في محل نصب اسم إن. (لَأُظْهِرُ): اللام المزحلقة، أظنه: فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا، والهاء: ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول أول. (مَنْ): حرف جر. (الْكَاذِبِينَ): اسم مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم، والجار والمجرور متعلقان بالمفعول به الثاني المحذوف، والجملة الفعلية خبر إني، والجملة الاسمية حال.⁵³¹

3- التحليل:

إن السياق هنا يعجل بالضربة القاضية ويختصر حلقة السحرة التي تذكر في سور أخرى بتفصيل أو إجمال، يختصرها ليصل من التكذيب مباشرة إلى الإهلاك. ثم لا يقف عند الأخذ في الدنيا، بل يتابع الرحلة إلى الآخرة.⁵³²

وهذا الأمر الذي يصدره فرعون إلى (هامان) إنما هو على سبيل الاستهزاء والسخرية، والإمعان في تكذيب موسى.. فهو يقرر لقومه الواقع الذي يعيشون فيه معه، وهو أنه الإله ابن الآلهة، إنه لا آلهة على الأرض غير فرعون! أم ترى هو في السماء؟ السماء ليست بعيدة فأوقد لي يا هامان لأبحث عن إله موسى، وإنما يبحث عن إله موسى، الذي يأتي أن يتخذ فرعون إلها له. فينفي وجود أي إله ويستثني نفسه أي ما من إله غيري ولو وجد سأبحث عنه حتى في السماء،

⁵³¹ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (431/2).

⁵³² ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (2694/5).

استهزاء منه بموسى ومن تبعه، هو يقصر ويحصر الألوهية في نفسه وينفيها عن غيره توكيدا للمعنى في إثبات الألوهية في شخصه ونفيها عمن دونه.⁵³³

فكلام فرعون المحكي هنا واقع في مقام غير مقام المحاورة مع موسى فهو كلام أقبل به على خطاب أهل مجلسه إثر المحاورة مع موسى فلذلك حكي بحرف العطف عطف القصة على القصة، وكذب موسى ورماه بالكذب صراحة أمام الملأ.

أراد فرعون بخطابه مع ملئه أن يثبتهم على عقيدة إلهيته فقال ما علمت لكم من إله غيري إبطالا لقول موسى المحكي في سورة الشعراء قال: ﴿رَبِّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾⁵³⁴، فأظهر لهم فرعون أن دعوة موسى لم ترجع عنده وأنه لم يصدق بما فقال ما علمت لكم من إله غيري، والمراد بنفي علمه بذلك نفي وجود إله غيره بطريق الكناية يريهم أنه أحاط علمه بكل شيء حق فلو كان ثمة إله غيره لعلمه، فنفي وجود إله غيره وبالتالي هو نفي ضمينا بنفي وجود الإله الذي أثبتته موسى.⁵³⁵ والنفي هنا غرضه الإثبات أي نفي وجود إله غيره ليثبت ألوهيته هو.

4.16.3. المطلب 4: حصر بالنفي بـ"إلا"

1.4.16.3. أهل الكفر عموما

الأنبياء ك 3

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ ۚ أَتَدْعُونَ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَا يَخْلُقُ إِلَّا مَن يَشَاءُ ۚ عَلَيْهِمْ أَغْصَابٌ مِّنْ سِدْرٍ ۖ وَهُمْ فِيهَا زَاهِيُونَ ۚ﴾⁵³⁶

1- أسباب النزول:

ما يستمع هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم هذا القرآن إلا وهم يلعبون غافلة عنه قلوبهم، لا يتدبرون حكمه ولا يتفكرون فيما أودعه الله من الحجج عليهم، وأسر هؤلاء الناس الذين اقتربت الساعة منهم وهم في غفلة معرضون، وقال الذين ظلموا فوصفهم بالظلم بفعلهم وقيلهم الذي أخبر به عنهم في هذه الآيات إنهم يفعلون ويقولون من الإعراض عن ذكر

⁵³³ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (348/10).

⁵³⁴ الشعراء 26.

⁵³⁵ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (121/20).

⁵³⁶ الأنبياء 3.

الله والتكذيب برسوله، أي الذين ظلموا بالكفر والتكذيب. فقال أهل الكفر لنبيهم أنه ساحر وأن ما جاء به سحر. فاتهموا نبيهم بالسحر.⁵³⁷

2- الإعراب:

(هل): حرف استفهام للنفي. (هذا): ها: حرف تنبيه، ذا: اسم إشارة مبني في محل رفع مبتدأ. (إلا): حرف حصر. (بشر): خبر مرفوع بالضممة. (مثلكم): صفة لبشر مرفوعة بالضممة، (أفتأتون): الهمزة: حرف استفهام، الفاء: حرف عطف. تأتون: فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (السحر): مفعول به منصوب بالفتح. (وأنتم): الواو: للحال والافتتان، أنتم: ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ. (تبصرون): فعل مضارع مرفوع بثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل.⁵³⁸

3- التحليل:

الناس هنا، هم هؤلاء المشركون، من أهل مكة، ثم يدخل معهم كلّ الناس، الذين غفلوا عن ذكر الله، وعن العمل ليوم الجزاء، والنجوى هي التناجي فيما بينهم، وإسرار النجوى؛ مبالغتهم في إخفاء ما تناجوا به من منكر القول، حتى يحكموا كيدهم، ويصلوا إلى رأى يجتمعون عليه، ثم يطلعون على الناس به، هل هذا إلا بشر، نفى النبوة عن النبي بإثبات وحصر أمره في البشرية، وإذا كان بشرا مثلنا فكيف يكون له هذا المكان الذي يطلّ عليكم منه، من هذا العالم العلوى، إذا فكيف نقبل على أنفسنا أن نجىء إلى هذا الخداع ونحن نراه رأى العين؟.⁵³⁹

فالجملّة مسوقة لذكر أحوال تلقي المشركين لدعوة النبي ﷺ بالتكذيب والبهتان والتأمر على رفضها، أي جعلوا نجواهم مقصودة بالكتمان وبالغوا في إخفائها لأن شأن التشاور في المهم كتمانها كيلا يطلع عليه المخالف فيفسده، والاستفهام في قوله هل هذا إلا بشر مثلكم إنكاري يقتضي أنهم خاطبوا من قارب أن يصدق بنبوة محمد ﷺ، أي فكيف تؤمنون بنبوءته وهو أحد منكم، وكذلك الاستفهام في قوله أفتأتون السحر إنكاري وأراد بالسحر الكلام الذي يتلوه عليكم،

⁵³⁷ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (410/18).

⁵³⁸ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (4/17).

⁵³⁹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (848/9).

والمعنى: أنه لما كان بشرا مثلكم فما تصديقكم لنبوءته إلا من أثر سحر سحرهم به، فتأتون السحر بتصديقكم بما يدعوكم إليه.⁵⁴⁰ فهم على موت قلوبهم وفراغها من الحياة لم يكونوا يملكون أنفسهم من أن تتزلزل بهذا القرآن فكانوا يلجؤون في مقاومة تأثيره الطاعي إلى التعلل، فيقولون: إن محمدا بشر. فكيف تؤمنون لبشر مثلكم؟ وإن ما جاء به السحر؛ فكيف تحيثون للسحر وتنقادون له وفيكم عيون وأنتم تبصرون.⁵⁴¹

وإن ما جاء به السحر. فكيف تحيثون للسحر وتنقادون له وفيكم عيون وأنتم تبصرون

5.16.3. المطلب 5: حصر بالنفي وإلا

1.5.16.3. اليهود والنصارى

البقرة م 111

﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁵⁴²

1- فيمن نزلت:

المعنى: وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا. وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيا. وأجاز الفراء أن يكون "هودا" بمعنى يهوديا، حذف منه الزائد.⁵⁴³

2- الإعراب:

(الواو): حرف استئناف. (قالوا) فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (لن): حرف ناصب. (يدخل): فعل مضارع منصوب بالفتحة. (الجنة)/ مفعول به مقدم منصوب بالفتحة. (إلا): حرف حصر. (من): اسم موصول مبني في محل رفع فاعل. (كان): فعل ماض ناقص مبني على الفتح، واسمه

⁵⁴⁰ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (14/17).

⁵⁴¹ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (2368/4).

⁵⁴² البقرة 111.

⁵⁴³ الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي (74/2).

ضمير مستتر تقديره هو. (هودا): خبر كان منصوب بالفتحة. (أو): حرف عطف للتفصيل. (نصارى): اسم معطوف على (هودا) منصوب بالنصب الفتحة المقدرة على الألف للتعذر.⁵⁴⁴

3- التحليل:

والضمير لأهل الكتاب كلهم من اليهود والنصارى بقرينة قوله بعده: إلا من كان هودا أو نصارى. ومقول القول مختلف باختلاف القائل فاليهود قالت لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، والنصارى قالت لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، جمع القرآن بين قوليهما على طريقة الإيجاز بجمع ما اشتركا فيه وهو نفي دخول الجنة عن المستثنى منه المحذوف لأجل تفريع الاستثناء، ثم جاء بعده تفريق ما اختص به كل فريق وهو قوله: هودا أو نصارى، فنفاوا الدخول إلى الجنة عن الجميع واستثنوا قومهم من اليهود هذا فيما يخص اليهود والنصارى كذلك استثنوا النصارى، فإن كلا من اليهود والنصارى لا يشك في نجاة نفسه ولا يشك في ضلال مخالفه وهي أيضا قرينة على تعيين كل من خبري كان لبقية الجملة المشتركة التي قالها كل فريق بإرجاع هودا إلى مقول اليهود وإرجاع نصارى إلى مقول النصارى. فأو هاهنا للتوزيع وهو ضرب من التقسيم الذي هو من فروع كونها لأحد الشئيين وذلك أنه إيجاز مركب من إيجاز الحذف لحذف المستثنى منه وجمع القولين في فعل واحد وهو قالوا ومن إيجاز القصر لأن هذا الحذف لما لم يعتمد فيه على مجرد القرينة المحوجة لتقدير وإنما دل على المحذوف من القولين بجلب حرف أو كانت (أو) تعبيرا عن المحذوف بأقل عبارة فينبغي أن يعدد قسما ثالثا من أقسام الإيجاز وهو إيجاز حذف وقصر معا.⁵⁴⁵

والجملة ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ لف بين قولي الفريقين كما في قوله تعالى: وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى ثقة بفهم السامع، وهود جمع هائد كعوذ وعائذ، وتوحيد الاسم المضمر في كان، وجمع الخبر لاعتبار اللفظ والمعنى.⁵⁴⁶ فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله، وأمنا من الإلباس لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه.⁵⁴⁷

⁵⁴⁴ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (235/1).

⁵⁴⁵ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (672/1).

⁵⁴⁶ ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ 35 (101/1).

⁵⁴⁷ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (177/1).

فاليهود يقولون: لا يدخل الجنة إلا من كان على اليهودية، والنصارى يقولون: لا يدخل الجنة إلا من كان على النصرانية أي أن كل فريق منهما يرى أن دينه الذي يدين به هو الحق، ولا دين حق غيره.⁵⁴⁸

وهذه القولة كذلك، لا تستند إلى دليل، سوى الادعاء العريض.⁵⁴⁹ فأخرجوا كل الناس من الجنة ونفوا بحرف "الن" التأييدية أو الزمخشيرية، واستثنوا بحرف "إلا" من كان من قومهم سواء اليهود لليهود والنصارى للنصارى.

6.16.3. المطلب 6: حصر بتعريف الخبر

هي عبارة عن ألف ولام تدخل على الكلمة لأغراض عديدة منها "تعيين واحد من افراد الجنس، بيان الجنس، استغراق كل أفراد الجنس، الإشارة إلى واحد مما عرفت حقيقته في الذهن من دون قصد إلى التعيين، الدلالة على الكمال، القصر (الحصر)، إيضاح ما لم يكن واضحاً للمخاطب"⁵⁵⁰ وسنقوم بتسليط الضوء على غرض القصر والحصر حقيقة أو مجاز بقصد المبالغة.

1.6.16.3. النصارى

المائدة م 17

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁵⁵¹

1- أسباب النزول:

هذا ذم من الله عز ذكره للنصارى والنصرانية، يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: قل هؤلاء الجهلة من النصارى: لو كان المسيح كما تزعمون أنه هو الله، وليس كذلك لقدر أن يرد أمر الله إذا جاءه.⁵⁵²

⁵⁴⁸ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (131/1).

⁵⁴⁹ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب / (103/1).

⁵⁵⁰ معاني النحو، فاضل السامرائي / (110-108/1).

⁵⁵¹ المائدة 17.

⁵⁵² جامع البيان للطبري / (417/10).

2- الإعراب:

اللام لام القسم، قد: حرف تحقيق. (كفر): فعل ماض مبني على الفتح. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل. (قالوا) فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (إن): حرف مشبّه بالفعل. (الله): لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب بالفتحة. (هو): ضمير فصل لا محل له من الإعراب. (المسيح): خبر إنّ مرفوع بالضممة. (ابن): صفة للمسيح مرفوعة بالضممة. (مريم): مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف.⁵⁵³

3- التحليل:

المسيح خبر، فحصرها الألوهية في المسيح ابن مريم، إن جعلهم الله هو المسيح بن مريم، هو أصل الداء، فما كان الله أن يولد من رحم امرأة، وأن تكون نسبته إليها، إن الإله الذي يتصور على تلك الصورة، هو إله هزيل، لا تلده إلا عقول لا تعرف جلال الله وعظمته، وقدرته.⁵⁵⁴

يستغرق هذا الدرس كله في استعراض مواقف أهل الكتاب من موثيقهم واستعراض ما حل بهم من العقاب نتيجة نقضهم لهذه الموثيق ومن جانب ليكشف عن حقيقة أهل الكتاب وحقيقة موقفهم وذلك لإبطال كيدهم في الصف المسلم وإحباط مناوراتهم ومؤامراتهم التي يلبسونها ثوب التمسك بدينهم وهم في الحقيقة قد نقضوا هذا الدين من قبل ونقضوا ما عاهدوا الله عليه، فهم يكذبون على الله ولتبرير كذبهم يستخدمون أساليبهم في الكذب بالتأكيد على ادعائهم، فتعريف الخير يفيد الحصر، (قد) الداخلة على الجملة المبدل منها زيادة في تحقيق مضمون جملة المبدل، لأن تعلق بدل الاشتمال بالمبدل منه أضعف من تعلق المبدل المطابق.⁵⁵⁵

⁵⁵³ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (306/6).

⁵⁵⁴ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (1061/3).

⁵⁵⁵ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (151/6).

فأما القول بأن الله هو المسيح بن مريم فهو الكفر وأما القول بأن اليهود والنصارى هم أبناء الله وأحباؤه، فهو الافتراء الذي لا يستند إلى دليل، ويتوعددهم جزاء على نقضهم ميثاقهم، ونسيانهم حظاً مما ذكروا به من عهد الله، وأول بند فيه هو بند التوحيد، الذي انحرفوا عنه بعد فترة من وفاة المسيح عليه السلام. لأسباب.⁵⁵⁶

قولهم إن الله هو المسيح معناه بت القول، على أن حقيقة الله هو المسيح لا غير، فحصرها فيه فقط، ونفوها عن غيره، بل أثبتوا أن الله هو بالذات المسيح بن مريم والعياذ بالله.⁵⁵⁷

وهي شبيهة بالأسلوب في الشاهد: قوله: (إنَّ هؤلاء في أمّتي قليل إلا من عصم الله وقد كانوا كثيراً في الأمم التي مضت)، لالة الحصر بالنفي والإثبات على أن لا مفرج للمذنبين إلا كرمه وفضله، وذلك أنَّ من وسعت رحمته كل شيء لا يشاركه أحد في نشرها كرمًا وفضلاً.⁵⁵⁸

7.16.3. المطلب 7: حصر بالنفي بلا وإلا

1.7.16.3. فرعون

يونس ك 90

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾⁵⁵⁹

1- فيمن نزلت:

وقطعنا بني إسرائيل البحر حتى جاوزوه (فأتبعهم فرعون)، يقول: فتبعهم فرعون (وجنوده)، حتى إذا أحاط به الغرق وفي الكلام متروك، قد ترك ذكره لدلالة ما ظهر من الكلام عليه، وذلك: "فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا فيه" فغرقناه.⁵⁶⁰

⁵⁵⁶ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (860/2).

⁵⁵⁷ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (617/1).

⁵⁵⁸ نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار، حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت):

911هـ) الناشر، جامعة أم القرى، عام النشر: 1424هـ - 2005 م/ (59/3).

⁵⁵⁹ يونس 90.

⁵⁶⁰ ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (189/15).

2- الإعراب:

((قال): فعل ماض مبني على الفتح، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو. (آمنت): فعل ماض مبني على السكون، والتاء: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (أنه): أن حرف مشبّه بالفعل، والهاء: ضمير الشأن في محل نصب اسم أن، و(لا): حرف مشبّه بالفعل. (إله): اسم لا مبني على الفتح في محل نصب وخبر لا محذوف تقديره موجود. (إلا) حرف استثناء ملغى. (الذي) اسم موصول مبني في محل رفع بدل من الضمير المستتر في الخبر المحذوف. (آمنت) فعل ماض مبني على الفتح، والتاء: للتأنيث. (به): الباء: حرف جرّ والهاء: ضمير متصل مبني في محل جرّ، والجار والمجرور متعلقان بآمنت، (بنو): فاعل مرفوع بالواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، (إسرائيل): مضاف إليه مجرور بالفتحة لأنه ممنوع من الصرف.⁵⁶¹

3- التحليل:

وفي الآية إيجاز واضح مقارنة بالقصة وما ذكر فيها في مواضع أخرى من القرآن الكريم، ومع هذا الإيجاز الذي أجملت فيه الآية الكريمة كل هذه الأحداث وطوّتها، فإن الذي أمسكت به الآية من عناصر القصة، هو الوجه البارز منها، والملاحم المميزة لها، فهؤلاء هم بنو إسرائيل يجاوزون البحر وهذا هو فرعون وجنوده يلاحقونهم، ومع أن البحر انفلق وظهر فيه طريقا ييسر لكن فرعون لم يتوقف ولم يخف من الآيات المتعاقبات أمامه، ولم يسأل نفسه، كيف كان هذا الطريق؟ إنه لو توقف قليلا وتدبّر الأمر لعلم أنه أمام معجزة قاهرة، وأن عليه أن يراجع نفسه، وأن يؤمن بالله الذي يدعوهم موسى إلى الإيمان به.. ولكنه يمضي فيركب هذا الطريق، غير ملتفت إلى شيء، إلا النعمة من بنى إسرائيل، الذين هربوا بليل، وخرجوا عن سلطانه وأغاضوه، لكن بعد أن أطبق عليه البحر وأدركه الغرق وأطل عليه شبح الموت فصرخ من أعماق قلبه طالبا النجاة والغوث، ثم خطرت له خاطرة يرى في التعلق بما نجاته من هذا الموت المحقق، إن بنى إسرائيل قد ركبوا هذا الطريق، فوصل بهم إلى شاطئ النجاة، وإن الذي فعل بهم هذا هو إلههم الذي آمنوا به، وأنه لو آمن بهذا الإله الذي نجّاهم لنجّاه كما نجّاهم، هكذا فكّر وقدر وهو في هذا البلاء،⁵⁶² ولم يكن إيمانه إيمانا حقيقيا بل كان من

⁵⁶¹ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (189/11).

⁵⁶² ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (1072/6).

أجل النجاة فقط فذكر كلمة التوحيد وأراد حصر الألوهية في الله ومع ذلك لم يقل لا إله إلا الله، بل قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل، فصرح الألوهية بنفيها بحرف "لا" فلا إله البتة واستثنى إله بني إسرائيل، بحرف "إلا" ولكن مع استثنائه فهو لم ينسب الإله له ولم يقل ربي أو إلهي وهذا لكبره وترسخ الكبر في قلبه وعقله. لقد تخلّى عن آلهته التي كان يعبدها، إذ تخلت هي عنه في هذه الشدة، وإنه ليؤمن بالإله الذي آمنت به بنو إسرائيل من قبله، والجملة تفيد أنه ما آمن حتى آيس من النجاة لتصلبه في الكفر ومع ذلك غلبه الله، وهذه موعظة للكافرين وعزة لله تعالى، وقد بني نظم الكلام على جملة: إذا أدركه الغرق، وجعل ما معها كالوسيلة إليها، فجعلت (حتى) لبيان غاية الاتباع وجعلت الغاية أن قال: آمنت لأن أتباعه بني إسرائيل كان مندفعاً إليه بدافع حنقه عليهم لأجل الدين الذي جاء به رسولهم ليخرجهم من أرضه، فكانت غايته إيمانه بحقهم. ولذلك قال: الذي آمنت به بنو إسرائيل ليفيد مع اعترافه بالله تصويبه لبني إسرائيل فيما هدوا إليه، فجعل الصلة طريقاً لمعرفته بالله.⁵⁶³

فالإشارة في هذه السورة إلى القرون الخالية، وكيف كانت عاقبة تكذيبهم لرسولهم، وكذلك كان الحال على عهد فرعون في هذه الفترة، والمشهد التالي هو مشهد التنفيذ، بعد أن جاوز الله ببني إسرائيل البحر وإتباع فرعون لهم بغيا وعدوا ومع رؤيته للآيات أمامه لكنه تعامل معها كأنها لا شيء وكأنها أمر عادي وبممنه المرور عبر البحر كما مرت بنو إسرائيل فما هم بأحسن منه ولا بأفضل منه وهو ربهم الذي كانوا يعبدون، فتجد كيف للكاذب أن يصدق نفسه في مرحلة من المراحل ويتبنى تلك الكذبة حتى أنه ليلقي بنفسه للهلاك بريبه ذلك وكذبه، فلما أدركه الغرق وأحاط به الموج من كل مكان لم يجد لمن يلجأ إلا للحق، إنه الموقف الحاسم والمشهد الأخير في قصة التحدي والتكذيب. والسياق يعرضه مختصراً مجملًا، لأن الغرض من سياقة هذه الحلقة من القصة في هذه السورة هو بيان هذه الخاتمة. بيان رعاية الله وحمايته لأوليائه، وإنزال العذاب والهلاك بأعدائه، الذين يغفلون عن كل الآيات حتى تأخذهم الآية التي لا ينفع بعدها ندم ولا توبة. وهو مصداق ما سبق في السورة من وعيد للمكذبين، وهذا المكذب - فرعون - يستمر في كذبه حتى وهو يموت فيدعي الإيمان في كبر، ومن مشهد البغي والعدو مباشرة إلى مشهد الغرق في ومضة، (حتى إذا أدركه الغرق)، لقد سقطت عن

⁵⁶³ ينظر: مفاتيح الغيب التفسير الكبير، فخر الدين الرازي/ (295/17). وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم، شهاب الدين الألوسي (171/6)، التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (276/11).

فرعون الباغي العادي المتجبر الطاغى كل أرديته التي تنفخ فيه فتظهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة، ولقد تضاعف وتصاغر، فهو لا يكتفى بأن يعلن إيمانه بأن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل. فيزيد في استسلام أنه من المسلمين.⁵⁶⁴ ومن روعة التعبير القرآني هي تصوير المكذب وحاله وحالة خطابه لتبين وضعه وكأنه هنا أماننا نراه ونرى حسرته وخيبته، فقد كرر المخدول المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته. وقاله حين لم يبق له اختيار قط، وكانت المرة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف.⁵⁶⁵

2.7.16.3. المشركين

الأنعام 138

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرَ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾⁵⁶⁶

1- فيمن نزلت:

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء الجهلة من المشركين أنهم كانوا يحرمون ويحللون من قِبَل أنفسهم، من غير أن يكون الله أذن لهم بشيء من ذلك.⁵⁶⁷

2- الإعراب:

(وقالوا): الواو حرف استئناف. قالوا: فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (هذه): ها: حرف للتنبيه، ذه: اسم إشارة مبني في محل رفع مبتدأ. (أنعام): خبر مرفوع بالضممة. (وحرث): الواو: حرف عطف، حرث: اسم معطوف على أنعام مرفوع بالضممة. (حجر): صفة لحرث مرفوعة بالضممة، (لا): حرف نفي. (يطعم): فعل مضارع مرفوع بالضممة، وها: ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به. (إلا): حرف

⁵⁶⁴ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب / (1818/3).

⁵⁶⁵ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري / (367/2).

⁵⁶⁶ الأنعام 138.

⁵⁶⁷ ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري / (139/12).

حصر. (من): اسم موصول مبني في محل رفع فاعل. (نشاء): فعل مضارع مرفوع بالضممة، والفاعل ضمير مستتر تقديره

نحن. (بزعمهم): الباء: حرف جر، زعم: اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور متعلقان بحال محذوفة من الواو في قالوا،

هم: ضمير متصل مبني في محل مضاف إليه.⁵⁶⁸

3- التحليل:

فعل هؤلاء المشركون ما فعلوا من تحريمهم ما حرموا، وقالوا ما قالوا من ذلك، كذبًا على الله، وتخرصًا الباطل عليه؛ لأنهم أضافوا ما كانوا يحرمون من ذلك الذي وصفه الله عز وجل عنهم في كتابه إلى الله، أي ادّعوا أنّ الله هو الذي حرّمه، فنفى الله ذلك عن نفسه، وأكذبهم، وأخبر نبيه والمؤمنين أنهم كذبة فيما يدّعون.⁵⁶⁹

ومن مفتريات هؤلاء المشركين صنيعهم بما في أيديهم من أنعام وزروع فقد جعلوا فيها نصيبا لله، ونصيبا لشركائهم دون أن يؤدوا لله ما جعلوه فيها، بل قالوا ذلك قولًا وجحدوه فعلًا، ثم إنهم من جهة أخرى قد جعلوا لهذه الأنعام وتلك الزروع مراسم معيّنة، ومعالم خاصة، اخترعوها لها من عند أنفسهم كذبًا وافتراء على الله فحسروا أكل بعض الأنواع في فئة منهم، شرعوه لأنفسهم والتزموه على جهة القرينة كذبًا منهم على الله تعالى، فالاستثناء بـ إلا بعد النفي بـ لا يفيد الحصر.⁵⁷⁰

وهنا يظهر لنا قوة الكلام وقوة تأثيره بين الناس لهذا نجد في عرض أباطيل هؤلاء الضالين ومفترياتهم بلفظ: (قالوا) مع أنهم فعلوا هذه الأشياء فعلًا، إشارة إلى أن هذه الأفعال هي وليدة أقوال تقال، وهي أوهام وظنون، لا تلبث حتى تستولى على عقول سامعيها فتتشكل منها أفعال، ويقوم عليها سلوك وهذا ما يشير أيضا إلى ما للكلمة من أثر في تقويم سلوك المرء أو اعوجاجه فالكلمة ليست مجرد صوت يطرق السمع، ثم يذهب أدراج الرياح، وإنما هي - في حقيقتها - رسول هدى، وداعية خير، أو هي قذيفة مدمرة، وجراثومة مهلكة.⁵⁷¹ و إلا من نشاء أي يقولون لا يطعمها إلا من نشاء، أي من نعين أن يطعمها من نشاء. وقوله: بزعمهم معترض بين لا يطعمها إلا من نشاء وبين: وأنعام حرمت ظهورها.

⁵⁶⁸ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (299/8).

⁵⁶⁹ ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (146/12).

⁵⁷⁰ ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي/ (521/2). والتفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (320/4).

⁵⁷¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (321/4).

والباء في: بزعمهم بمعنى (عن)، أو للملابسة، أي يقولون ذلك باعتقادهم الباطل، لأنهم لما قالوا: لا يطعمها لم يريدوا أنهم منعوا الناس أكلها إلا من شاءوه، لأن ذلك من فعلهم وليس من زعمهم. وإنما أرادوا بالنفي نفي الإباحة، أي لا يحل أن يطعمها إلا من نشاء، فالمعنى: اعتقدوها حراما لغير من عينوه، حتى أنفسهم، وما هي بحرام.⁵⁷²

ولفهم معاني النصوص جيدا يجب أن نعيش في ظلال السياق القرآني بجملته، لنرى محتوياته على وجه الإجمال. ولنرى دلالاته وإيحاءاته كذلك، فنبداً الآيات، بعرض مجموعة التصورات والمزاعم الجاهلية التي افتروها على الله تعالى، وحول ما كانوا يزاولونه في شأن الثمار والأنعام والأولاد- أي في شأن المال والاجتماع- في جاهليتهم. فنجد هذه التصورات والمزاعم المكذوبة تتمثل في:

- تقسيمهم ما رزقهم الله من رزق إلى قسمين قسم لله تعالى وقسم لشركائهم أو آلهتهم.

- الجور على القسمة الأولى التي جعلوها لله ويضموه لقسمة شركائهم

- تقسيم بعض الأنواع للذكور دون الإناث ونسبة ذلك لله دون وجه حق.⁵⁷³

وجاء سياق الآيات، ليظهر سوء عملهم، ويشنع بجرمة الافتراء على الله، وإضلال الناس بغير علم.

17.3. المبحث السابع عشر: التقديم والتأخير

تعريف:

استخدمته العرب للعناية والاهتمام والتخصيص والحصص أكثر "والحق أنَّ التقديم يفيد الحصر كثيراً"⁵⁷⁴ ف "يقدمون الذي

بيانه أهم لهم، وهم به أعنى"⁵⁷⁵ ويكون المقصور عليه هو المقدم، و "مرجع دلالاته إلى الذوق السليم والفكر الصائب".⁵⁷⁶

1.17.3. مشركي قوم إبراهيم

⁵⁷² ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (107/8).

⁵⁷³ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب / (1214/3).

⁵⁷⁴ معاني النحو، فاضل السامرائي / (105/3).

⁵⁷⁵ معاني النحو، فاضل السامرائي / (248/1).

⁵⁷⁶ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع/169.

الأنبياء ك 53:

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾⁵⁷⁷

1- سبب النزول:

مشركي قوم إبراهيم، قال أبو إبراهيم وقومه لإبراهيم: وجدنا آبائنا لهذه الأوثان عابدين، فنحن على ملة آبائنا نفعل كما فعلوا ونعبدها كما كانوا يعبدون، فهي في قوم إبراهيم المشركين.⁵⁷⁸

2- الإعراب:

(قالوا): فعل ماض مبني على الضمّ الظاهر، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل. (وجدنا): فعل ماض مبني على السكون، و(نا): ضمير متصل في محل رفع فاعل. (آباءنا): مفعول به أول منصوب بالفتحة الظاهرة. (لها): اللام: حرف جر زائد، (ها): ضمير متصل في محل جر لفظاً منصوب محلاً مفعول به مقدم لعابدين. (عابدين): مفعول به ثانٍ منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم.⁵⁷⁹

3- التحليل:

الكلام في الآية الكريم هو كلام الكافرين من قوم سيدنا إبراهيم - عليه السلام - جواباً على سؤاله: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾⁵⁸⁰، وهو سؤال العارف، إذ هو منهم، وأدرى من غيره بدينهم واعتقادهم. ويلاحظ في سؤاله استخدام اسم الاستفهام (ما) للسؤال عن الماهية لا عن الذات، وهذا يتفق مع عقيدة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - ولا يخلو هذا السؤال من استنكار واستهجان، فهو لا يسأل عن تعيينها بس يسأل عن حقيقتها وصفاتها وماهيتها. لذلك لم يأت جوابهم لتعيينها، فيسمونها له، بل جاء مبيناً لصفة من صفاتها، وهي أنها معبودة من آبائهم، فهم مقلدون في اعتقادهم، ومحكمون بثقافة القطيع، لا يخرجون عما هو سائد، وقد وقع تقديم وتأخير في جوابهم هذا، فالأصل:

⁵⁷⁷ الآية 53 من سورة الأنبياء.

⁵⁷⁸ ينظر: تفسير جامع البيان، للطبري/ (456/18).

⁵⁷⁹ الجدول في إعراب القرآن (40/17).

⁵⁸⁰ الأنبياء 52.

(عابدين لها)، لكن قُدِّمَ (لها) على (عابدين)، وهو من تقديم العامل على المعمول، وهذا النوع من التقديم يفيد الحصر، فهم جعلوا آباءهم عابدين لهذه الأصنام، كافرين بما سواها. ونرى أنَّ الآية اختارت الاسم المشتق (عابدين) دون الفعل، ولو كان في غير القرآن لجاز أن يقال: (وجدنا آباءنا يعبدونها)، ومن المعروف أن الاسم له دلالة فرعية، هي الثبوت والدوام، فالآية تبين أنَّ هؤلاء الكافرين يحكون ما عايشوه مع قومهم وآبائهم، فقد رأوا العبادة المستمرة لهذه الأصنام دون غيرها، فنجد أن اللغة في الآية الكريمة أعطت صورة الآباء كما تشكَّلت في أذهان الأبناء. وهو تصوير دقيق بديع معجز. 581

2.17.3. الكفار

فصلت ك 50

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَطْلُ السَّاعَةَ فَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْخُسَىٰ فَلْيُنَبِّئَنِّي الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ 582

1- أسباب النزول:

ولئن نحن كشفنا عن هذا الكافر ما أصابه من سقم في نفسه وضرر، وشدة في معيشتة وجهد، رحمة منا، فوهبنا له العافية في نفسه بعد السقم، ورزقناه مالا فوسعنا عليه في معيشتة من بعد الجهد والضرر. (ليقولن هذا لي) عند الله، لأن الله راض عني برضاه عملي، وما أنا عليه مقيم. أي بعلمي، وأنا محقوق بهذا. يقول: وما أحسب القيامة قائمة يوم تقوم. يقول: وإن قامت أيضا القيامة، ورددت إلى الله حيا بعد مماتي. يقول: إن لي عنده غنى ومالا. فلنخيرن هؤلاء الكفار بالله، المتمنين عليه الأباطيل يوم يرجعون إليه بما عملوا في الدنيا من المعاصي، واجترحوا من السيئات، ثم لنجازين جميعهم على ذلك جزاءهم.

581 ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي / (302/11)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي / (64/4). التفسير القرآني للقرآن،

عبد الكريم يونس الخطيب / (914/9)، ظلال القرآن لسيد قطب / (2395/4).

582 فصلت 50.

وذلك العذاب الغليظ تخليدهم في نار جهنم، لا يموتون فيها ولا يحيون.⁵⁸³

2- الإعراب:

(ليقولن): اللام: موطئة للقسم، يقولن: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو. هذا: ها: حرف تنبيه، ذا: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. (لي): اللام: حرف جر، الياء: ضمير متصل مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بخبر محذوف. (ما): حرف نفي. (أظن): فعل مضارع مرفوع بالضم، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا. (الساعة): مفعول به أول منصوب بالفتحة. (قائمة): مفعول به ثان منصوب بالفتحة. (لئن): اللام: موطئة للقسم، إن: حرف شرط جازم. (رجعت): فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون، والتاء: ضمير متصل مبني في محل رفع نائب فاعل. (إلى): حرف جر. (ربي): اسم مجرور بالكسرة، والياء: ضمير متصل مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان برجعت. (إن): حرف مشبه بالفعل. (لي): اللام: حرف جر، والياء: ضمير متصل مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بخبر إن، (عنده): مفعول فيه ظرف منصوب، متعلق بحال من الحسنى. (للحسنى): اللام: اللازم المرحلقة، الحسنى: اسم إن منصوب بالفتحة المقدرة.⁵⁸⁴

3- التحليل:

إنه رسم دقيق صادق للنفس البشرية، التي لا تهتدي بهدى الله، فتستقيم على طريق رسم يصور تقلبها، وضعفها، ومراءها، وحبها للخير، وجحودها للنعمة، واغترارها بالسراء، وجزعها من الضراء رسم دقيق عجيب. هذا الإنسان لا يسأم من دعاء الخير. فهو ملح فيه، مكرر له، يطلب الخير لنفسه ولا يمل طلبه. وإن مسه الشر. مجرد مس. فبات يائسا قانطا من رحمة الله - إذا أذاقه الله سبحانه رحمة منه، وكشف عنه الضر الذي مسه وفقد الأمل والرجاء وظن أن لا مخرج له ولا فرج، وتقطعت به الأسباب وضاق صدره وكبر همه ويئس من رحمة الله وقنط من رعايته. ذلك أن ثقته بربه قليلة، وهذا الإنسان إذا أذاقه الله منه رحمة بعد ذلك الضر، استخفته النعمة فنسي الشكر واستطاره الرخاء

⁵⁸³ ينظر: تفسير للطبري / (491/21).

⁵⁸⁴ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي / (11/25).

فغفل عن مصدره. وقال: هذا لي. نلته باستحقاقي وهو دائم علي، ونسي الآخرة، وهو ينكر الآخرة فيكفر بالله. ومع هذا يظن أنه لو رجع إليه كانت له وجاهته عنده.⁵⁸⁵

إذا به بعد أن ألقى بذور الشك في يوم القيامة، وغرسها في مشاعره، يعود فيروى هذه البذور بالآمال الكاذبة، والأُمانيّ الباطلة، حتى يخيل إليه منها أنها قد استوت على سوقها، ثم أزهرت وأثمرت.. فيحدّث نفسه بهذا الحديث الكاذب: "إن لي عنده للحسنى.." هكذا ينتقل به الضلال، من وهم إلى وهم، ومن خداع إلى خداع، حتى يرد موارد الهلاك.⁵⁸⁶ وفي الآية تقديم وتأخير، ولعل قوله: ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى إنما هو على سبيل الاستهزاء كما في مقالة العاصي بن وائل. وذكر إنكار البعث هنا إدماج بذكر أحوال الإنسان المشرك في عموم أحوال الإنسان.

وجيء في حكاية قوله ولئن رجعت بحرف (إن) الشرطية التي يغلب وقوعها في الشرط المشكوك وقوعه لأنه جعل رجوعه إلى الله أمراً مفروضاً ضعيف الاحتمال. وأما دخول اللام الموطئة للقسم عليه فمورد التحقيق بالقسم هو حصول الجواب لو حصل الشرط.

وكذلك التأكيد بـ إن ولام الابتداء مورده هو جواب الشرط، وكذلك تقديم لي وعنده على اسم إن هو لتقوية ترتب الجواب على الشرط.⁵⁸⁷

18.3. المبحث الثامن عشر: الإضراب

ويكون الإضراب بالحرف "بل" وهو "حرف إضراب يدخل على المفردات والجمل، فإن دخلت على جملة كان معنى الاضراب، أما إبطالاً، وأما انتقالياً".⁵⁸⁸

ومعنى الإضراب الإبطالي هو أن تبطل الجملة معنى الجملة التي سبقتها.

⁵⁸⁵ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (3130/5) ومعالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي/ (178/7). الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (67/12).

⁵⁸⁶ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (8/13).

⁵⁸⁷ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (12/25).

⁵⁸⁸ معاني النحو، فاضل السامرائي، (257/3).

أما الإضراب الانتقالي هو أن ينتقل من غرض إلى آخر دون إبطال ما سبق من الكلام،⁵⁸⁹ وعند تطبيق ما سبق على الآيات الكريمة القادمة نجد كيف أنها احتوت على تلك المعاني.

1.18.3. المطلب 1: الإضراب الإبطلائي

1.1.18.3. اليهود

البقرة 170

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾⁵⁹⁰

1- سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام ورغبهم فيه وحذرهم عذاب الله ونقمته، فقال رافع بن حرملة ومالك بن عوف: بل نتبع يا محمد ما وجدنا عليه آبائنا فهم كانوا أعلم وخيرا منا، فأنزل الله في ذلك ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾⁵⁹¹ فنهى في اليهود نزلت.⁵⁹²

2- الإعراب:

(قَالُوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل. (بَلْ): حرف عطف للإضراب. (نَتَّبِعُ): فعل مضارع مرفوع بالضممة. والفاعل ضمير مستتر نحن، والجملة معطوفة على جملة محذوفة والتقدير: لا نتبع ما أنزل الله، بل نتبع دين آبائنا، و(ما): اسم موصول في محل نصب مفعول به. (أَلْفَيْنَا) فعل ماض مبني على السكون، ونا: ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة صلة الموصول لا محل لها.

⁵⁸⁹ ينظر: حاشية الدسوقي على مختصر المعاني لسعد الدين التفتازاني (ت: 792هـ)، محمد بن عرفة الدسوقي، المحقق: عبد الحميد هندواي، المكتبة العصرية، بيروت/ (355/3).

⁵⁹⁰ البقرة 170.

⁵⁹¹ البقرة 170.

⁵⁹² ينظر أسباب النزول، لجلال الدين السيوطي/ 30.

(عَلَيْهِ) حرف جر ومجرور متعلقان بالمفعول به الثاني المقدم لألفينا، (آباءنا) مفعول به أول مؤخر، منصوب بالفتحة، ونا: ضمير متصل في محل جر مضاف إليه، فبين لنا إعراضهم عن يدعوتهم إلى اتباع الحق وما أنزل الله، وتشبهوا بما ألفوا عليه آباءهم، وأعرضوا عن الدعوة إلى الحق دون تأمل ولا تدبر.⁵⁹³

3- التحليل:

بل إضراب إبطال، أي أضربوا عن قول الرسول ﷺ لهم اتبعوا ما أنزل الله، إضراب إعراض بدون حجة سوى لأنه مخالف لما ألفوا عليه آباءهم. وفي الآية جواب لهم ورد عليهم بقوله أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، كلام من جانب آخر للرد على قولهم نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فإن المتكلم لما حكاه عنهم رد قولهم هذا باستفهام يقصد منه الرد ثم التعجيب، فالهمزة مستعملة في الإنكار كناية وفي التعجيب إيماء، والمراد بالإنكار الرد والتخطئة لا الإنكار بمعنى النفي، و (لو) للشرط وجوابها محذوف دل عليه الكلام السابق، تقديره: لاتبعوهم، والمستفهم عنه هو الارتباط الذي بين الشرط وجوابه، وإنما صارت الهمزة للرد، لأجل العلم بأن المستفهم عنه يجاب عنه بالإثبات بقرائن حال المخبر عنه والمستفهم. ومثل هذا التركيب من بدیع التراكيب العربية وأعلاها إيجازاً و (لو) في مثله تسمى وصلية وكذلك (إن) إذا وقعت في موقع (لو).⁵⁹⁴

وفي هذه الآيات يظهر لنا الاستمرار في مواجهة يهود المدينة الذين لا يكفون عن تلبيس الحق بالباطل في هذه القواعد، وكتمان الحق الذي يعلمونه في شأنا وإيقاع البلبلة والاضطراب فيه، فردوا الحق بحجة اتباع الآباء الذين لا يخطئون ولهم الحق في أن يُتبعوا وبأن يُقتدى بهم.⁵⁹⁵

هكذا يريجون أنفسهم من عناء التفكير والنظر، وحسبهم أن يقفوا آثار آبائهم، وأن يرثوا عنهم عقيدتهم، ويتلقوا منهم دينهم، كما يرثون ما خلفوا من متاع، وكما يتلقون ما استقر فيهم من تقاليد وعادات، والمجتمع الذي يحيا هذه الحياة، مجتمع مصيره إلى الضياع والبوار، لأنه أشبه بالبركة الراكدة، التي لا يلبث ماؤها طويلاً حتى يفسد ويتعفن، أما المجتمعات

⁵⁹³ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (71/1).

⁵⁹⁴ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (106/2).

⁵⁹⁵ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (148/1).

التي يكتب لها النماء والازدهار فهي المجتمعات التي يتجدد شبابها بالعمل المادي والعقلي، فتفيد من تجارب أسلافها، وتضيف إلى تلك التجارب جديداً يجلو صدأها، وينمي ويطور ذاتها، ويستولد الجديد الكريم منها، تصويرٌ كاشفٌ لحال هؤلاء الذين لبسوا الكفر تقليداً ومتابعة وإراثاً، فجمدوا على ما هم فيه، وأبوا أن يتحولوا عنه، ولو زلزلت الأرض بهم.⁵⁹⁶

2.1.18.3. الكفار يوم القيامة

سبأ ك 32

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا أُنْحُنْ صَدْدُنَا كُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾⁵⁹⁷

1- سبب الورود:

(قال الذين استكبروا) من المشركين في الدنيا، فرأسوا في الضلالة والكفر بالله (للذين استضعفوا) فيها فكانوا أتباعاً لأهل الضلالة منهم إذ قالوا لهم (لولا أنتم لكانا مؤمنين): (أنحن صددناكم عن الهدى) ومنعناكم من اتباع الحق (بعد إذ جاءكم) من عند الله يبين لكم (بل كنتم مجرمين) فمنعكم إيثاركهم الكفر بالله على الإيمان من اتباع الهدى، والإيمان بالله ورسوله، فكذب الأتباع في ردهم سبب كفرهم إلى الرؤساء والكبار في القوم لإمكانهم التسليم لله وترك أوامر القادة ومع ذلك فهذا لا يمنع تورط وتأثير القادة في ضلال أتباعهم وعوئهم على الضلال والطغيان مثلهم فهذا لا يبرؤهم البتة.⁵⁹⁸

2- الإعراب:

(الهمزة): حرف الاستفهام للإنكار. (نحن): ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ. (صددناكم): فعل ماض مبني على السكون، ونا: ضمير متصل في محل رفع فاعل، والكاف: ضمير متصل في محل نصب مفعول به. (عن): حرف جر. (الهدى): اسم مجرور بالكسرة المقدرة للتعذر، والجار والمجرور متعلقان بصددناكم، (بعد): مفعول فيه ظرف زمان منصوب متعلق بصددناكم (إذ): اسم مبني على السكون في محل جر مضاف إليه. (جاءكم): فعل ماض مبني على الفتح، والكاف: ضمير متصل في محل نصب مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره: هو. (بل): حرف استئناف للإضراب

⁵⁹⁶ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (188/1).

⁵⁹⁷ سبأ 32.

⁵⁹⁸ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (407/20).

الانتقاليّ. (كنتم): فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء: ضمير متصل في محل رفع اسم كان. (مجرمين): خبر
كنتم منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم.⁵⁹⁹

3- التحليل:

في خطابهم يوم القيامة لأتباعهم في الدنيا، حيث يقفون للحساب، وفي ذلك الموقف الذي يواجهون فيه أتباعهم كما
تبين الآية في قوله تعالى: (وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ) - انتقال هؤلاء الكافرين المكذبين بآيات الله - إلى
موقف الحساب والمساءلة في لحظة خاطفة، حيث يطلع عليهم هذا الذي كذبوا به، وما تزال كلمات التكذيب على
أفواههم ولم يجيء جواب (لو) الشرطية، بل ترك مكانه شاغرا، لنملأه التصورات المفزعة لهذا اليوم العظيم، وما يقع
للمكذبين فيه من بلاء، وفي الآية بيان للتهمة التي يترامون بها، والقول الذي يُلقى به بعضهم على بعض، فيبدأ المستضعفون
بإلقاء اللائمة على رؤسائهم، وسادتهم، الذين تولوا قيادة الحملة الضالة، ضد دعوة الحق والهداية، فجنّدوا هؤلاء الضعفاء،
وقادوهم إلى المعركة، فكانوا في الهالكين - بدأ المستضعفون بالرمي بالتهمة، لأنهم هم المجنّ عليهم من سادتهم ورؤسائهم،
بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ) وألقى الكبراء القول إلى أتباعهم، وردّوا التهمة التي اتهموهم بها، وأنكروا أنهم كانوا سببا في صدّهم عن
الهدى، فقد صدق هؤلاء المستكبرون في قولهم من جهة، لأنهم لم يكن في وسعهم أن يردّوا هؤلاء المستضعفين عن
الإيمان، لو أنهم رغبوا في الإيمان لأن الإيمان معتقد يقوم في القلب، ومن وجه آخر فقد كذب هؤلاء المستكبرون، لأنهم
كانوا دعوة من دعوات الضلال، وقوة من قوى الشرّ، تزين للناس الضلال وتغريهم به، وتعمل على جذبهم إليه، وضمهم
إلى جبهته بما لهم من جاه وسلطان وفي الآية إشارة إلى ما في طبائع هؤلاء المستضعفين من فساد، وأنهم بطبيعتهم
منجذبون إلى الضلال، منصرفون عن الهدى في قولهم: (بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ).⁶⁰⁰

⁵⁹⁹ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (227/22).

⁶⁰⁰ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم بونس الخطيب/ (827/11). وينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (2909/53).

فالتقدير: بعد زمن مجيئه إياكم، وبل إضراب إبطال عن الأمر الذي دخل عليه الاستفهام الإنكاري، أي ما صددناكم، بل كنتم مجرمين، والإجرام: الشرك وهو مؤذن بتعمدهم إياه وتصميمهم عليه على بصيرة من أنفسهم دون تسويل مسول.⁶⁰¹

2.18.3. المطلب 2: الإضراب الانتقالي

1.2.18.3. المشركون والكفار

الأنبياء ك 5

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاتٌ أَحْلَامٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾⁶⁰²

1- فيمن نزلت:

فقال أهل الكفر هو أهاويل رؤيا رآها في النوم، وقال بعضهم: هو فرية واختلاق افتراه واختلقه من قبل نفسه، وقال بعضهم: بل محمد شاعر، وهذا الذي جاءكم به شعر (فليأتنا) به، أي أنهم قالوا فليجئنا محمد إن كان صادقا في قوله، إن الله بعثه رسولا إلينا وإن هذا الذي يتلوه علينا وحي من الله أوحاه إلينا، إذا عليه أن يأتينا (بآية) أي بحجة ودلالة على حقيقة ما يقول ويدعي (كما أرسل الأولون) أي كما جاءت به الرسل الأولون من قبله من إحياء الموتى، وإبراء الأكفم والأبرص وكنافة صالح، وما أشبه ذلك من المعجزات التي لا يقدر عليها إلا الله ولا يأتي بها إلا الأنبياء والرسل.⁶⁰³

2- الإعراب:

(بل): حرف استئناف للإضراب الانتقالي في المواضع الثلاثة. (أضغات): خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو، أي: الوحي. (أحلام): مضاف إليه مجرور بالكسرة. (افتراه): فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر، والفاعل ضمير مستتر تقديره: هو، والهاء: ضمير متصل في محل نصب مفعول به. (هو): ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ. (شاعر): خبر مرفوع بالضم، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدر. واللام لام الأمر، وعلامة الجزم في الفعل حذف حرف العلة

⁶⁰¹ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (207/22).

⁶⁰² الأنبياء 5.

⁶⁰³ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري / (412/18).

(بآية) متعلق ب (يأتنا)، (الكاف) حرف جرّ وتشبيه، (ما) حرف مصدريّ، (أرسل) فعل ماضٍ مبنيّ للمجهول (الأولون) نائب الفاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو.⁶⁰⁴

3- التحليل:

يجوز أن يكون تنزيلاً من الله تعالى لأقوالهم في درج الفساد، أي أن القول الرابع أفسد وأنزل من القول الثالث، والثاني بدوره أسوأ وأفسد من القول الأول.⁶⁰⁵

الناس هنا، هم هؤلاء المشركون، من أهل مكة، ثم يدخل معهم كلّ الناس، الذين غفلوا عن ذكر الله، وعن العمل ليوم الجزاء، قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ.. بَلْ افْتَرَاهُ.. بَلْ هُوَ شَاعِرٌ.. فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ هو فضح لما تناجى به القوم، وكان مما جرى به الحديث بينهم، فقالوا فيما قالوه عن القرآن الكريم: هو (أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ) أي أخلاط أحلام، وهلوسة نائم، معتلّ المزاج، مخبول العقل والبصيرة، وإذ لم يرتض بعضهم هذا القول ردّوه، وقالوا: (بَلْ هُوَ شَاعِرٌ) أي من واردات الشعر، ومن نسج أخيلته، وهذا تسجيل وتنصيص منهم على كذب الرسول على زعمهم واغترار وتضليل منهم على ضعفاء الأنام وحثّ لهم على تكذيبه وانكار ما أتى به.⁶⁰⁶

وإذ لم يرتض بعضهم هذا القول أو ذاك قالوا: (فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) أي يدع حاجته في هذا الكلام الذي يليقه علينا، ويقول عنه إنه معجزته التي يقدّمها بين يدي رسالته، وليأتنا بمعجزة غير كلامية، فإن مجال الكلام متّسع لكل قائل، فإن كان رسولا من عند الله، كما يدّعى، فلم لم يأت بمعجزة نراها، كناقصة صالح، وعصا موسى، فانظر إلى كلمات الله، وقد أمسكت بالقوم وهم على مسرح الجريمة، ثم أخذت ما جرى على لسان كل ذي قول قاله في هذا المجلس الآثم، لقد ذهب كل فريق منهم بقول من هذه الأقوال، لكنها نسبت إليهم جميعا بسبب تواطئهم بذلك المجلس⁶⁰⁷

⁶⁰⁴ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (6/17).

⁶⁰⁵ ينظر: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (104/3).

⁶⁰⁶ الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، نعمة الله بن محمود النخجواني/ (527/1).

⁶⁰⁷ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (849/9).

فما من نجوى في مكان على الأرض إلا وهو مطلع عليها- وهو الذي يعلم القول في السماء والأرض، وما من مؤامرة يحدثونها إلا وهو كاشفها ومطلع رسوله عليها- وهو السميع العليم.

ولقد حاروا كيف يصفون هذا القرآن وكيف يتقونه. فقالوا: إنه سحر. وقالوا: إنه أحلام مختلطة يراها محمد ويرونها. وقالوا: إنه شعر. وقالوا: إنه افتراء وزعم أنه وحى من عند الله: (بَلْ قَالُوا: أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، بَلْ افْتَرَاءٌ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ)

ولم يثبتوا على صفة له، ولا على رأي يرونه فيه، لأنهم إنما يتمحلون ويحاولون أن يعللوا أثره المنزل في نفوسهم بشتى التعلات فلا يستطيعون فينتقلون من ادعاء إلى ادعاء، ومن تعليل إلى تعليل، حائرين غير مستقرين.. ثم يخلصون من الحرج بأن يطلبوا بدل القرآن خارقة من الخوارق التي جاء بها الأولون ولقد تكررت الآيات، وتكرر التكذيب بها، وتكرر كذلك إهلاك المكذبين فما بال هؤلاء سيؤمنون بالخارقة لو جاءتهم وهم ليسوا سوى بشر كهؤلاء الهالكين. ولقد جاءت الخوارق من قبل، فلم يؤمن بها من جاءتهم، فحل بهم الهلاك، وفقا لسنة الله التي لا تتخلف في إهلاك من يكذبون بالخوارق.⁶⁰⁸

فقوله تعالى: {بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاءٌ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ} لقد أضربوا عن رأيهم ثلاث مرات، باستعمال حرف الاضراب (بل). وهذا يدل على مبلغ تحفظهم وترددهم وعدم ثبوتهم على رأي، كما قيل: الباطل للجلج، أي ملتبس متردد فيه، وحيرتهم من أي باب يدخلون على النبي، ليضعفوا موقفه، ويشبطوا عزيمته، ويسفها رأيه.

فهو إضراب انتقال بالأولى من حكاية قول فريق منهم، أي القول الأول "أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ" وبل الثانية والثالثة مثل (بل) الأولى للانتقال في حكاية أقوالهم، والتقدير: بل قالوا افتراء، بل قالوا هو شاعر، وحذف فعل القول لدلالة القول الأول عليهما فيما يصفون به القرآن. والمعنى: بل افتراء واختلقه من غير أحلام، أي هو كلام مكذوب، ثم انتقلوا فقالوا هو شاعر أي كلامه شعر، فحرف (بل) الثالثة إضراب منهم عن كلامهم وذلك مؤذن باضطرابهم وهذا الاضطراب ناشئ عن ترددهم مما ينتحلونه من الاعتلال عن القرآن، وذلك شأن المبطل المباهت أن يتردد في حجته،⁶⁰⁹ محاولين بذلك طمس نوره عليه السلام نور الحق ألا ساء ما يفعلون كما قال الشاعر الأعشى:

⁶⁰⁸ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (2368/4).

⁶⁰⁹ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (15/17).

كناطح صخرة يوماً ليوهنها... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل⁶¹⁰

19.3. المبحث التاسع عشر: البناء للمجهول

" يسمى الفعل مع نائب الفاعل مبنياً للمجهول لأن فاعله حُذِفَ فصار مجهولاً "⁶¹¹ فيكون المفعول به نائباً عن الفاعل، واستخدمت العرب صيغة المبني للمجهول عند التركيز على الشخص أو الشيء الذي يقع عليه الفعل. لجعل نائب الفعل أكثر أهمية في الجملة، وقد يكون بغرض الانتقاص منه ومن قدره، وعند وقوفنا على الآيات الكريمة التي اشتملت على الفعل المجهول، سنجد أنها أعطت نائب الفاعل أهمية كبيرة وركزت عليه كعنصر مهم في الخطاب، أو أرادت تجاهله وتجاهل أهميته، فتجنبت ذكره، وبتسليط الضوء على الأسلوب المشتغل على صيغة المبني للمجهول يتضح لنا أغراض هذا الأسلوب.

1.19.3. بني إسرائيل لنبيهم شمويل

البقرة م 247

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾⁶¹²

1- فيمن نزلت:

وقال للملأ من بني إسرائيل نبيهم شمويل: إن الله قد أعطاكم ما سألتكم، وبعث لكم طالوت ملكاً. فلما قال لهم نبيهم شمويل ذلك، قالوا: أنى يكون لطالوت الملك علينا، وهو من سبط بنيامين بن يعقوب - وسبط بنيامين سبط لا ملك فيهم ولا نبوة - ونحن أحق بالملك منه، لأننا من سبط يهوذا بن يعقوب "ولم يؤت سعة من المال"، أي لم يؤت طالوت كثيراً من المال، لأنه سقاء وقيل كان دباغاً.⁶¹³ فرفضوا تملكه عليهم بحجج واهية ليست مقياساً للملك وفي نفس الوقت

⁶¹⁰ إسفار الفصح، محمد بن علي بن محمد، أبو سهل الهروي (ت: 433هـ) تحقيق: أحمد بن سعيد بن محمد قشاش الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الطبعة: 1، 1420هـ / (243/1).

⁶¹¹ قواعد الصرف والنحو، فؤاد نعمة/48.

⁶¹² البقرة 247.

⁶¹³ ينظر تفسير الطبري (306/5).

هم الذين طلبوا ذلك من نبيهم أن يبعث الله لهم ملكا يقاتلون معه ولما بعث لهم رفضوه بحجج واهية كاذبة اخترعوها من عندهم ومع ذلك يذكرونها ويعرضونها كأنها مسلمات وأمر متعارف عليه، مع أنه كذلك من سبط سيدنا يعقوب

كما يرويه الطبري في تفسيره. فالآية نزلت في بني إسرائيل بعد سيدنا موسى في زمن النبي شمويل.⁶¹⁴

2- الإعراب:

(قالوا) فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو ضمير متصل في محل رفع فاعل. (أَيَّ) اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب خبر يكون، (يكون) فعل مضارع ناقص مرفوع بالضمّة. (له): اللام: حرف جر، والهاء: ضمير متصل مبني في محلّ جرّ، والجار والمجرور متعلّقان بحال من الملك. (الملك): اسم يكون مرفوع بالضمّة. (علينا): على: حرف جرّ ونا: ضمير متصل مبني في محلّ جرّ والجار والمجرور متعلّقان بمحذوف حال من الملك، (الواو): للحال والاقتران. (نحن) ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ. (أحقّ): خبر مرفوع بالضمّة. (بالملك): الباء: حرف جر، الملك: اسم مجرور بالكسرة. والجار والمجرور متعلّقان بأحقّ. (منه): من: حرف جرّ والهاء: ضمير متصل مبني في محلّ جرّ متعلّق بأحقّ. (الواو): حرف عطف. (لم): حرف جازم. (يؤت) مضارع مبني للمجهول مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو. (سعة): مفعول به منصوب بالفتحة. (من): حرف جر. (المال): اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور متعلّقان بصفة محذوفة لسعة.⁶¹⁵

3- التحليل:

في هذه اللجاجة تتكشف سمة من سمات اليهود التي وردت الإشارات إليها كثيرة في هذه السورة. لقد كان مطلبهم أن يكون لهم ملك يقاتلون تحت لوائه. ولقد قالوا: إنهم يريدون أن يقاتلوا (في سبيل الله). فها هم أولاء ينغضون رؤوسهم، ويلوون أعناقهم، ويجادلون في اختيار الله لهم كما أخبرهم نبيهم ويستنكرون أن يكون طالوت - الذي بعثه الله لهم - ملكا

⁶¹⁴ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ينسب: لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - (ت: 68هـ) جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت: 817هـ) الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان/ (35/1).

⁶¹⁵ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (526/2). وإعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (104/1).

عليهم، لماذا؟ لأنهم أحق بالملك منه بالوراثة. فلم يكن من نسل الملوك فيهم، ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التغاضي عنهم، لما ذكروا؟ لأنهم أحق بالملك منه بالوراثة. فلم يكن من نسل الملوك فيهم، ولأنه لم يؤت سعة من المال تبرر التغاضي عنهم، لما ذكروا؟⁶¹⁶ عن أحقية الوراثة.

أنكروا لأنه كان من ذلك السبط والقوم الفقراء، فقالوا كيف له أن يكون له الملك علينا ونحن أحق منه بالملك، وفوق ذلك هو فقير ولم يؤت يعط سعة من المال، فأجابهم نبيهم بالرد الصارم، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ اخْتَارَهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ أي زاده فضيلة وسعة في العلم وذلك أنه كان أعلم بني إسرائيل في وقته، وذكر أنه أتاه الوحي حين أوتي الملك، وذكر الكلبي ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ﴾ أي علما بالحرب، والجسم يعني بالطول، وقيل أنه سمي بطالوت لطوله، وقال ابن كيسان بالجمال والعلم.⁶¹⁷

فحين رأوا أن الملك المختار لم يكن أكثرهم مالا، وأوسعهم ثراء، أنكروا أن يكون ملكا عليهم، لكنهم وجدوا الإجابة الفورية والمفحمة من نبيهم حين خاطبهم قائلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ طبعاً هذا جواب مقنع للمؤمن التقي الذي يرضى بقضاء الله وحكمه وحكمته، لكن اليهود لا ينفع معهم هذا فهم يعترضون حتى على حكم الله تعالى، فهل يرضون به؟ وهو يفضلهم في كمال الجسم وتمام العقل، وذلك مما يجعل به الملوك ويكمل به الملك، وطالوت وجالوت اسمان أعجميان معربان لم ينصرفا،

وقولهم: "ولم يؤت سعة من المال" معطوفة على جملة الحال فهي حال ثانية، وهذا إبداء مانع فيه من ولايته الملك في نظرهم، وهو أنه فقير، وشأن الملك أن يكون ذا مال ليكفي نواب الأمة فينفق المال في العدد والعطاء وإغاثة الملهوف، فكيف يستطيع من ليس بذي مال أن يكون ملكا، وإنما قالوا هذا لقصورهم في معرفة سياسة الأمم ونظام الملك فإنهم رأوا الملوك المجاورين لهم في بذخة وسعة، فظنوا ذلك من شروط الملك، فجروا على سنتهم في تعنياتهم الأنبياء، وحيدهم عن أمر الله تعالى فقالوا: "أني من أي جهة، ف" "أني" في موضع نصب على الظرف، ونحن من سبط الملوك وهو ليس كذلك وهو فقير.⁶¹⁸

⁶¹⁶ ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب/ (267/1).

⁶¹⁷ ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للثعلبي/ (211/2).

⁶¹⁸ ينظر الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي/ (246/3)، وينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (491/2). وينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (307/1).

فبنوا الفعل للمجهول لتحقيره والاستعلاء على ذكره، فبنوه للمجهول، للدلالة على ضعف وعدم علو شرف نسبه كأنه مجهول النسب، فعادة ما يكون غنى الرجل من غنى قومه وأهله وآبائه الذين يورثونه إرثهم وشرفهم وما لهم فبنوه للمجهول للدلالة على جهلهم بنسبه وأهله وللتعبير عن احتقارهم له واستبعادهم لأن يكون مثله ملكا عليهم وهم أحفاد الملوك والأشراف وكبراء القوم.

3.19.2. منافق أو مرتد

الأنعام ك 93:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾⁶¹⁹

1- سبب النزول:

قوله تعالى في المقطع: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من الآية 93، قيل إنها نزلت في مسيلمة الكذاب الحنفي كان يسجع ويتكهن ويدعي النبوة، ويزعم أن الله أوحى إليه وهو لم يوح إليه شيء.

ذكر السيوطي: (نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان قد تكلم بالإسلام، فدعاه رسول الله - ﷺ - ذات يوم يكتب له شيئاً، فلما نزلت الآية التي في المؤمنون: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة﴾ أملاها عليه، فلما انتهى إلى قوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ عجب عبد الله في تفصيل خلق الإنسان، فقال: تبارك الله أحسن الخالقين، فقال رسول الله - ﷺ - " هكذا أنزلت علي"، فشك عبد الله حينئذ وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحى إلي كما أوحى إليه، ولئن كان كذاباً لقد قلت كما قال، وذلك قوله: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وارتد عن الإسلام، وهذا قول ابن عباس في رواية الكلبي).⁶²⁰ فهو منافق أو مرتد.

⁶¹⁹ الأنعام 93.

⁶²⁰ ينظر أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري، (ت: 468هـ) تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان الناشر: دار الإصلاح - الدمام الطبعة: الثانية، 1412هـ - 1992م/220.

وأخرج ابن جرير عن عكرمة في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ قال نزلت في مسيلمة - أيقونة الكذب حتى ارتبط اسمه بالكذاب - ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ قال نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب للنبي ﷺ فيملي عليه عزيز حكيم فيكتب غفور رحيم ثم يقرأ عليه فيقول نعم سواء، فرجع وارتد عن الإسلام ولحق بقريش، وأعلن كفره، وذكر نحوه عن السدي، وزاد أنه قال: إن كان محمد يُوحى إليه فقد أُوحى إلي - كذا وافتراء - وإن كان الله ينزله فقد أنزلت مثل ما أنزل الله، فقد قال محمد سميعا عليهما، فقلت أنا عليهما حكيما.⁶²¹

2- الإعراب:

(قال): فعل ماض مبني على الفتح الظاهر، والفاعل ضمير مستتر (هو) يعود على الاسم الموصول. أوحى: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الفتح. (إِلَيَّ): إلى حرف جر، والياء: ضمير متصل مبني في محل جر، والجار والمجرور في محل رفع نائب فاعل، ولا يعلّقان.⁶²²

3- التحليل:

تقدّم الآية وصف الذين يكذبون على الله، ويدّعون نزول الوحي إليهم، فوصفهم الله تعالى بأنهم أكثر المخلوقات ظلماً، ولا يوجد من يفوقهم في الظلم، وقد أورد القرآن هذا الحكم بأسلوب بديع، وكان ذلك بنفي وجود من هو أشدّ ظلماً منهم، وكان هذا النفي عن طريق الاستفهام، فقد أخرج اسم الاستفهام (من) من الاستفهام الحقيقي إلى معنى النفي، فمعنى (من أظلم من...) في هذه الآية هو (لا أظلم من...)، وهذا أبلغ في النفي، وأكثر تأثيراً في النفس، إذ قدمت المعنى الخبري (النفي) بصورة إنشائية هي (الاستفهام)، ولا تحفى جماليات الإنشاء في أداء المعنى.

وكان من بين هؤلاء الظلمة فئة تقول: (أوحى إليّ)، فتدّعي النبوة وتنزيل كلام السماء عليها، وقد عبر القرآن عن كلامهم هذا بالفعل المبني للمجهول، وهذا يصوّر لنا بدقة حال هؤلاء، فهم يزعمون تلقيهم الوحي، لكن لم يذكروا من الذي يُلقيه إليهم، لأنه مجهول حقيقة، لأنه اختلاق لا أصل له، فهم لا يستطيعون أن ينسبوا الوحي إلى الله لجهلهم به، ولم

⁶²¹ ينظر: لباب النقول للسيوطي/116.

⁶²² الجدول في إعراب القرآن (221/7).

يجعلوه من ذاتٍ مكدوبة، لتجنب الإجابة عن تساؤلات سوف تطرح عن تلك الذات، وهي تساؤلات سوف توقعهم في تناقضات وسقطات كثيرة، لأن الكذب لا يتماسك طويلاً، إذ لا بد أن يتناقض.

ومما يظهر في أسلوب كلامهم في الآية الكريمة أنهم استعملوا الفعل الماضي، ولم يقولوا: (يوحي)، وهذا أيضاً يتناسب مع كذبهم، حتى لا يطلب منهم شيئاً من هذا الوحي، وليكون التحاور فيما وقع وفيما حضروا أنفسهم له، كما يفهم من صيغة الماضي هنا معنى التقليل، كأنّ هدفهم من هذا القول هو نفي مزية اختصاص النبي ﷺ بالوحي، وأن الوحي هو أمر يعرض لغيره أيضاً، دون التطرق إلى الجهة، والكيفية، والكثرة والقلة.

20.3. المبحث العشرون: الحذف

"يكون بحذف شيء من العبارة لا يخل بالفهم، مع قرينة تُعين المحذوف إما يكون: حرفاً، اسماً، شرطاً، جواب شرطاً، مسنداً، مسنداً إليه، متعلقاً، جملة"⁶²³ ويكون بجمع المعاني الكثيرة في لفظ قليل للإفصاح والتبيين. وهذا ما حملته الآيات الكريمة التالية، من معاني كثيرة في لفظ قليل مع المحافظة على الفهم العام للآيات دون خلل أو نقص.

وهذا هو موضوع دراستنا للأساليب التكديبية التي استخدم فيها الكافرون أسلوب الإيجاز وفيما يلي توضيح لما سبق:

1.20.3. قریش

الأنبياء ك 5:

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾⁶²⁴

1- فيمن نزلت:

فقال أهل الكفر هو أهاويل رؤيا رآها في النوم، وقال آخرون بل بمعنى؛ هو فرية واختلاق افتراه واختلقه من قبل نفسه، وقال بعضهم: بل محمد شاعر، وهذا الذي جاءكم به شعر (فليأتنا) به يقول: قالوا فليجئنا محمد إن كان صادقاً في قوله، إن الله بعثه رسولا إلينا وإن هذا الذي يتلوه علينا وحي من الله أوحاه إلينا، (بآية) أي بحجة ودلالة على حقيقة ما

⁶²³ عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي/199.

⁶²⁴ الأنبياء 5.

تقوله وتدعيه، (كما أرسل الأولون) أي كما جاءت به الرسل الأولون من قبله من إحياء الموتى، وإبراء الأكفم والأبرص وكناقة صالح، وما أشبه ذلك من المعجزات التي لا يقدر عليها إلا الله ولا يأتي بها إلا الأنبياء والرسل.⁶²⁵

2- الإعراب:

(بل): حرف عطف للإضراب الانتقالي. (قالوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل في محل رفع فاعل. (أضغاث): خبر لمبتدأ محذوف مرفوع بالضممة. (أحلام): مضاف إليه مجرور بالكسرة. (بل): حرف عطف للإضراب الانتقالي. (افتراه): فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر، والهاء: ضمير متصل في محل نصب مفعول به، والفاعل ضمير مستتر: تقديره هو. (بل): حرف عطف للإضراب الانتقالي. (هو): ضمير في محل رفع مبتدأ. (شاعر): خبر مرفوع بالضممة الظاهرة. (فليأتنا): الفاء حرف استئناف. اللام: لام الأمر حرف جازم، يأتنا: فعل مضارع مجزوم بحذف حرف العلة، نا: ضمير متصل في محل نصب مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو. (بآية): الباء: حرف جر، آية: اسم مجرور بالكسرة الظاهرة. (كما): الكاف: اسم بمعنى مثل مبني على الفتح في محل جر صفة لآية، وما: حرف مصدري (أرسل): فعل ماض مبني للمجهول مبني على الفتح الظاهر. (الأولون): نائب فاعل مرفوع بالواو، ورفع بالواو لأنه جمع مذكر سالم، والمصدر المؤول في محل جر مضاف إليه.⁶²⁶

3- التحليل:

الآية في عرض ادعاءات الكافرين في تكذيبهم للوحي المنزل على النبي ﷺ، وبيان افتراءاتهم، وحاية أقوالهم في أمر القرآن، فذكروا أنه تخالط أحلام ورؤى تراءت له في نومه، ثم رأوا أنّ هذا الكلام الذي يُتلى أمامهم هو كلام مختلف، ثم ذكروا زعمًا آخر، هو أنّ هذا القرآن ما هو إلا خيالات شاعر يطرب المتلقي لها، لكن لا حقيقة لها.

فترى أنهم في حيرة إزاء بيان حقيقة هذا القرآن، ولم يكونوا على صفة واحدة له، فتمحّلوا في محاولة تعليل الجمال والجلال والتأثير المعجز لهذا الكلام العالي، وهذا شتت نفوسهم بين تعليقات يتنقلون بينها حائرين غير مستقرين، فانتهى بهم الأمر إلى طلب معجزة مادية كالتى جاء بها الرسل من قبل. (وَذَلِكَ مُؤَذِّنٌ بِاضْطِرَابِهِمْ وَهَذَا الاِضْطِرَابُ ناشئ عَنْ

⁶²⁵ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (412/18).

⁶²⁶ الجدول في إعراب القرآن (7-6/17).

تَرَدُّدُهُمْ مِمَّا يَنْتَجِلُونَهُ مِنَ الْإِغْتِلَالِ عَنِ الْقُرْآنِ. وَذَلِكَ شَأْنُ الْمُبْطِلِ الْمُبَاهِتِ أَنْ يَتَرَدَّدَ فِي حُجَّتِهِ كَمَا قِيلَ: الْبَاطِلُ لَجَلَجَ،
 أَيُّ مُلْتَبِسٍ مُتَرَدَّدٍ فِيهِ).⁶²⁷ واضطرابهم هذا واضح في أسلوب خطابهم، فهم يريدون إطلاق أي حكم على ما أتى به
 النبي ﷺ لينفوا عنه القدسية والنسبة الإلهية له، فجاء كلامه في الآية مختصراً جداً، إلى درجة حذف المبتدأ في ﴿أَضَعَاثُ
 أَخْلَامٍ﴾، وهذا منسجم مع ضياعهم النفسي أمام هذا النص المعجز، فالمهم عندهم إبداء التفسيرات للاختلاف الهائل
 بين هذا النص وما هو غيره.

2.20.3. القرين من الجن

ق ك 27

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾⁶²⁸

1- أسباب النزول:

ذكر أن قرينه هو شيطانه، وعن مجاهد الشيطان قُبِضَ له، قال: قرينه من الجن: ربنا ما أطعته، تبرأ منه، وقوله (رَبَّنَا مَا
 أَطْعَيْتُهُ) أي: ما أنا من جعله طاغيا متعديا إلى ما ليس له، وإنما يعني بذلك الكفر بالله (وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ)
 يقول: ولكن كان في طريق جائر عن سبيل الهدى جورا بعيدا، وإنما أخبر تعالى ذكره هذا الخبر، عن قول قرين الكافر له
 يوم القيامة، إعلاما منه عباده، تبرأ بعضهم من بعض يوم القيامة، ونفورهم من بعض.⁶²⁹

2- الإعراب:

(قَالَ): فعل ماض مبني على الفتح. (قَرِينُهُ): فاعل مرفوع بالضممة، والجملة مستأنفة. (رَبَّنَا): منادى بأداة نداء محذوفة
 مضاف منصوب بالفتحة، ونا: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه. (ما): حرف نفي. (أَطْعَيْتُهُ) فعل ماض
 مبني على السكون، والتاء: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، والهاء: ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به،
 والجملة مقول القول. (وَلَكِنْ): الواو: حرف عطف، ولكن: حرف استدراك لا عمل له. (كَانَ): فعل ماض ناقص اسمه

⁶²⁷ التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (16/17).

⁶²⁸ ق 27.

⁶²⁹ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (358/22).

ضمير مستتر هو. (ي): حرف جر. (ضلال): اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور متعلقان بخبر كان محذوف. (بَعِيد) صفة مجرورة بالكسرة، والجملة معطوفة على ما قبلها (النداء) في محل نصب مقول القول وجملة: (ما أطغيته) لا محل لها جواب النداء، وجملة: (كان في ضلال)، معطوفة على جواب النداء.⁶³⁰

3- التحليل:

هو عرض لصورة من صور التلاحي والترامي بالتهمة بين قرناء السوء يوم القيامة، فحين يؤخذ أحد القرينين - وهو التابع - ليساق إلى جهنم، يتعلق به صاحبه، قائلا: ربّ هو الذي أضلني عن الحق، وأغواني بما أغواني من ضلال، وهنا يحاول القرين المتبوع، وهو الشيطان - دفع هذا الاتهام عن نفسه، فيقول:

(رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ...) إنه كان مسوقا إلى الضلال بنفسه، متجها إليه بأهوائه، سواء وجد من يدعوه إلى هذا الضلال أو لم يجد.⁶³¹

حكاية قول القرين بالأسلوب المتبع في حكاية المقاولات في القرآن وهو أسلوب

الفصل دون عطف فعل القول على شيء، وهو الأسلوب الذي ذكر في قوله تعالى:

قالوا أَلْجَعَلْ فِيهَا مَنْ يَفْسُدُ فِيهَا، الآية في سورة [البقرة: 30]، تشعر بأن في المقام كلاما مطويا ومحذوفا هو كلام صاحب القرين؛ طوي للإيجاز، ودليله ما تضمنه قول القرين من نفي أن يكون هو أطغى صاحبه إذ قال ربنا ما أطغيته، ولكن كان في ضلال بعيد. وقد حكى ذلك في سورة ص صريحا بقوله: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارَ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّمْتُمْ لَنَا فَيْئَسَ الرَّارَ قَالُوا رَبَّنَا لِمَا قَدَّمْنَا لَكَ هَذَا فَرْدَ عَذَابًا ضَعُفًا فِي النَّارِ﴾ [ص: 59-61]. وتقدير المطوي هنا: أن الكافر العنيد لما قدم إلى النار أراد التنصل من كفره وعناده وألقى تبعته على قرينه الذي كان يزين له الكفر فقال: هذا القرين أطعاني، فقال قرينه ربنا ما أطغيته، ولكن كان في ضلال بعيد.

⁶³⁰ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (259/3).

⁶³¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (485/13).

أي ما أمرته بالطغيان ولا زينته له. والاستدراك ناشئ عن شدة المقارنة بينه وبين قرينه لا سيما إذا كان المراد بالقرين شيطانه المقيض له فإنه قرن به من وقت إدراكه، فالاستدراك لدفع توهم أن المقارنة بينهما تقتضي أن يكون ما به من الطغيان بتلقيق القرين فهو ينفي ذلك عن نفسه، ويرد التهمة على صاحبه، ولذلك أتبع الاستدراك بجملة كان في ضلال بعيد ولم يكن اقترانه معه في الصحبة أو التقييد هو سبب ضلاله أو زيادته في الضلال، فقد تبرأ منه كما يتبرأ المتبوع من التابع يوم القيامة كما مر معنا، وفعل كان لإفادة أن الضلال ثابت له بالأصالة ملازم لتكوينه.

والبعيد: مستعار للبالغ في قوة النوع حدا لا يبلغ إليه إدراك العاقل بسهولة كما لا يبلغ سير السائر إلى المكان البعيد إلا بمشقة أو بعيد الزمان، أي قديم أصيل فيكون تأكيداً لمفاد فعل كان.⁶³²

كان هو الشيطان الموكل به ليغويه. وهو يتبرأ من إطفائه ويقرر أنه وجده ضالاً من عند نفسه، فاستمع لغوايته، وفي القرآن مشاهد مشابغة يتبرأ فيها القرين الشيطاني من القرين الإنساني على هذا النحو.⁶³³

21.3. المبحث الواحد العشرون: الخض

"هي حروف إذا دخلت على المضارع فهي للحض والحث على المضي في العمل وترك التهاون، أما إذا دخلت على الماضي فهي للتوبيخ والتنديم أي جعل الفاعل يندم على ما فرط منه وحروفها (ألا، هلاً، ألا، لولا، لوما)"⁶³⁴، وعند الوقوف عند الآيات الكريمة نجد أن المكذبين قد استخدموا هذا الأسلوب في خطابتهم للحث والمضي أو للتوبيخ والتنديم وعند تحليلها سيتضح لنا ذلك جلياً.

1.21.3. قریش

القصص ك 48

⁶³² ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (314/26).

⁶³³ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب / (3365/6).

⁶³⁴ المرجع في اللغة العربية، علي رضا/ 791.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾⁶³⁵

1- فيمن نزلت:

فلما جاء هؤلاء الذين لم يأتهم من قبلك يا محمد نذير فبعثناك إليهم نذيرا (الحق من عندنا)، وهو محمد ﷺ بالرسالة من الله إليهم، قالوا تمردا على الله، وتماديا في الغي: هلا أوتي هذا الذي أرسل إلينا، وهو محمد ﷺ مثل ما أوتي موسى بن عمران من الكتاب؟ يقول الله تبارك وتعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لقومك من قريش، القائلين لك (لولا أوتي مثل ما أوتي موسى) أو لم يكفر الذين علموا هذه الحجة من اليهود بما أوتي موسى من قبلك.⁶³⁶

2- الإعراب:

(أَوَّلَمْ): الهمزة حرف استفهام إنكاري، الواو: حرف استئناف، لم: حرف جازم. (يَكْفُرُوا) فعل مضارع مجزوم بحذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (بِمَا): الباء: حرف جر، ما: اسم موصول مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل، والجملة استئنافية لا محل لها. (أُوتِيَ): فعل ماض مبني للمجهول مبني على الفتح. (مُوسَى): نائب فاعل مرفوع بالضممة المقدرة للتعذر. (مِنْ): حرف جر. (قَبْلُ): اسم مبني على الضم في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بالفعل. (قَالُوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (سِحْرَانِ): خبر لمبتدأ محذوف مرفوع بالألف لأنه مثنى، والجملة الاسمية مقول القول. (تَظَاهَرَا): فعل ماض مبني على الفتح، والألف: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، والجملة صفة لسحرين. (وقالوا): الواو: حرف عطف، قالوا: فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، والجملة معطوفة على ما قبلها. (إِنَّا): إن: حرف مشبه بالفعل، ونا: ضمير متصل مبني في محل نصب اسم إن. (يَكْفُرُ):

⁶³⁵ القصص 48.

⁶³⁶ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (587/19).

الباء: حرف جر، كل: اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور متعلقان بكافرين. (كافِرُونَ): خبر إن مرفوع بالضمّة، والجملة

الاسمية مقول القول.⁶³⁷

3- التحليل:

قولهم هو في الحقيقة مذهب من مذاهب الضلال والعناد، الذي غطى على عقول المشركين، إنهم كانوا يتمنون على الله أن يبعث فيهم رسولا، وأن يكون لهم كتاب كما لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وها هو ذا رسول الله قد بعث فيهم، وها هو ذا الكتاب من الله، يتلى عليهم.. فماذا كان منهم؟ لقد ذهبوا يطلبون التعلات والمعاذير، يلقونها بين يدي رسول الله، وكتاب الله، فبنظريهم ان هذا الرسول لم يأثم بعضا موسى ولا من وسلوى كما فعل عيسى فهم يطلبون الماديات التي في الحقيقة قد كذبوا بها كذلك لما جاءهم، هكذا كانت نظرة المشركين إلى رسالات السماء مادية، وما دروا أن الله سبحانه، قد خصهم بأعظم رسالة ألا وهي القرآن العظيم، إنها الرسالة التي تتجه إلى أكرم ما في الإنسان من روح وعقل إنها الرسالة التي تغذى العقل وتهذيب النفس، وتسموا بالروح إلى الملاء الأعلى، ولهذا فإن المعجزة الكلامية على مر العصور هي أعظم معجزة وهي المعجزة الخالدة لأنها تصاحب العقل وتبقى معه في كل زمان ومكان، فقولهم ساحران تظاهروا وقولهم أنهم بكل كافرون، فهو مزج المشركين بفرعون، مزجا كاملا، وجمعهم وإياه في كيان واحد، بحيث يكون لهم موقف واحد، ومنطق واحد، وإن بعد المدى بينهم وبينه، زمانا، ومكانا، ولسانا، ومجتمعنا، فحضوا أنفسهم وغيرهم على الإصرار على الكفر والرسوخ عليه كما فعل فرعون قبلهم ومن هم من طينته في الكفر، لقد أكدوا على موقفهم بأداة التأكيد "إنّا" تأكيداً على موقفهم وكفرهم⁶³⁸ وحثا لغيرهم على البقاء ثابتين على كفرهم، من باب الحُضِّ والتَّدبُّ،⁶³⁹ والحض غير الحثّ فقد قال الخليل أن الحث يكون في السير، والحض يكون فيما عداه.⁶⁴⁰

⁶³⁷ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (265/20).

⁶³⁸ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (355/10).

⁶³⁹ معاني القرآن، أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (ت: 338هـ) تحقيق: محمد علي الصابوني الناشر: جامعة أم القرى - مكة المكرمة الطبعة: 1، 1409هـ/ (531/4).

⁶⁴⁰ ينظر: معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو 395هـ)

تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم» الطبعة: 1، 1412هـ/ (176/1).

فإذا كانت الأداة للتضيض أو للعرض وجب أن يليها المضارع إما ظاهراً، وإما مقدراً يفسره ما بعده؛ بشرط استقبال زمنه في حالتي ظهوره وتقديره؛ لأن أداة الحض والعرض تخلص زمن المضارع للمستقبل؛ إذ معناها لا يتحقق إلا فيه،⁶⁴¹ وهو ما يتحقق في الآية إذ كانت صيغة "كافرون" صفة تتضمن معنى الاستمرارية في الكفر سبقتها أداة التوكيد "إنّا". وهذا من إلزام المماثل بفعل مثيله لأن الإشراف يجمع الفريقين فتكون أصول تفكيرهم واحدة ويتحد بهتافهم، فإن القبط أقدم منهم في دين الشرك فهم أصولهم فيه والفرع يتبع أصله ويقول بقوله، كما قال تعالى كذلك: ﴿ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون [الذاريات: 52، 53] أي متمائلون في سبب الكفر والطغيان فلا يحتاج بعضهم إلى وصية بعض بأصول الكفر، والتنوين في بكل تنوين عوض عن المضاف إليه فيقدر المضاف إليه بحسب الاحتمالين إما بكل من الساحرين، وإما أن يقدر بكل من ادعى رسالة وهو أنسب بقول قریش لأنهم قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء.⁶⁴²

وهكذا لم يدعوا للحق، واستمسكوا بالتعللات الباطلة، لكنهم لم يكونوا صادقين في حجتهم، ولا مخلصين في اعتراضهم لأنهم كفروا بما لما جاءتهم من قبل، فهو المراء إذن واللجاجة، لا طلب الحق ولا نقصان البراهين، ولا هو الضعف في الدليل.⁶⁴³

22.3. المبحث الثاني والعشرون: الشرط

تعريف: " قال السكاكي قد يُقيد الفعل بالشرط لاعتبارات تستدعي التقييد به، ولا يخرج الكلام بتقييده به عما كان عليه من الخبرية والإنشائية، فالجزء إن كان خبراً فالجملة خبرية، وإن كان إنشاء فالجملة إنشائية، فالحكم عنده في الجمل المصدرة "⁶⁴⁴ فهو اقتران أمر بأمر آخر بحيث لا يتحقق الثاني إلا بتحقيق الأول.

⁶⁴¹ النحو الوافي، عباس حسن (ت: 1398هـ) الناشر: دار المعارف الطبعة: الطبعة الخامسة عشرة/ (513/4).

⁶⁴² ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (139/20).

⁶⁴³ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (2699/53).

⁶⁴⁴ عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي/ 525.

" اسم الشرط اسم مبني يربط جملتين الأولى شرط للثانية "645 ومن أدواته (إن، إذا، لو، إذما، لولا، لوما، أمّا) وهذا ما ظهر واضح في خطاب التكذيبين وأسلوبهم في الكلام، وعند تحليلنا للآيات الكريمة الآتية يتضح لنا ما يأتي:

1.22.3. المطلب 1: الشرط ب إن

1.1.22.3. قریش

الأنعام ك 109

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾⁶⁴⁶

1- أسباب النزول:

أخبرنا محمد بن موسى بن الفضل قال: حدثنا محمد بن يعقوب الأموي قال: حدثنا أحمد بن عبد الجبار قال: حدثنا يونس بن بكير عن أبي معشر، عن محمد بن كعب قال: كلمت رسول الله - ﷺ - قریش فقالوا: يا محمد إنك تخبرنا أن موسى عليه السلام كانت معه عصا ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، وأن عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى، وأن ثمود كانت لهم ناقة، فأتنا ببعض تلك الآيات حتى نصدقك، فقال رسول الله - ﷺ - "أي شيء تحبون أن آتيكم به" فقالوا: تجعل لنا الصفا ذهابا، قال: "فإن فعلت تصدقوني"، قالوا: نعم والله لئن فعلت لتتبعنك أجمعين، فقام رسول الله - ﷺ - يدعو، فجاءه جبريل عليه السلام وقال: إن شئت أصبح الصفا ذهابا، ولكني لم أرسل آية فلم يصدق بها إلا أنزلت العذاب، وإن شئت تركتهم حتى يتوب تائبهم. فقال رسول الله - ﷺ - "اتركهم حتى يتوب تائبهم" فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾⁶⁴⁷.

أخرج ابن جرير وغيره عن عكرمة قال: قال النضر بن الحرث سوف تشفع إلى اللات والعزي فنزلت هذه الآية ولقد جئتمونا فرداى إلى قوله شركاء قوله تعالى ولا تسبوا الآية قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن قتادة قال كان المسلمون يسبون

⁶⁴⁵ قواعد الصرف والنحو، فؤاد نعمة/126.

⁶⁴⁶ الأنعام 109.

⁶⁴⁷ ينظر أسباب نزول القرآن للواحدى/222 - 223.

أصنام الكفار فيسب الكفار الله فأنزل الله ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله الآية قوله تعالى وأقسموا الآية أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال كلم رسول الله فريشا فقالوا يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصا يضرب به الحجر وأن عيسى كان يحيي الموتى وأن ثمود لهم الناقة فأتنا من الآيات حتى نصدقك فقال رسول الله ﷺ أي شيء تحبون أن آتيكم به قالوا تجعل لنا الصفا ذهباً قال فأن فعلت تصدقوني قالوا نعم والله فقام رسول الله يدعو فجاءه جبريل فقال له إن شئت أصبح ذهباً فإن لم يصدقوا عند ذلك لعذبناهم وإن شئت فأتهم حتى يتوب تائبهم فأنزل الله وأقسموا بالله جهد أيمانهم إلى قوله يجهلون.⁶⁴⁸

2- الإعراب:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ الجزء المذكور من الآية.

(وأقسموا): الواو: حرف استئناف، (أقسموا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، (بالله): الباء: حرف جر، الله: لفظ الجلالة اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور متعلقان بأقسموا. (جهد): مفعول مطلق نائب عن المصدر منصوب بالفتحة. (أيمانهم): مضاف إليه مجرور بالكسرة، هم: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه. (لئن): اللام: موطئة للقسم، إن: حرف شرط جازم. (جاءهم): فعل ماض مبني على الفتح، والتاء: تاء التأنيث، هم: ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به. (آية): فاعل مرفوع (ليؤمنن): اللام واقعة في جواب القسم، يؤمنن: مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون لأنه من الأفعال الخمسة، وقد حذفت لتوالي النونات، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، والنون: نون التوكيد (بها): الباء: حرف جر، وها: ضمير متصل مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بيؤمنن.⁶⁴⁹

3- التحليل:

الآية التي أقسم المشركون على أنهم يؤمنون بها لو جاءهم، ووقعت تحت حواسهم - هي التي كانوا يقترحونها على النبي، فيما حكاها القرآن عنهم، من آية كما أرسل الأولون، أو أن يأتي معه ملك، أو يلقي إليه كنز، أو تكون له جنة يأكل

⁶⁴⁸ ينظر: لباب النقول للسيوطي/117.

⁶⁴⁹ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (249/7).

منها، أو يفجر الأرض ينبوعا، أو تكون له جنة، أو يسقط السماء عليهم كسفا، فأقسموا بالله جهد أيمانهم، أي قسما مؤكدا بكل المؤكدات، لو جاءتهم آية منها ليؤمنن بها، ويتخذونها دليلا على صدق النبي، لكن النبي ﷺ لا يملك من تلك الآيات شيئا، وإنما هي من الله سبحانه وتعالى، ينزلها بقدر، وتدبير وحكمة،⁶⁵⁰ على من يشاء كيفما ومتى يشاء. فوضعوا الشرط بعد حرف "إن" وسبقوا شرطهم بالقسم بكل ما يقسم به، أنه إذا جاءتهم آية من الآيات، ثم أقسموا كذلك في جواب الشرط أنهم سيؤمنون به ويصدقونه، لكن قسمهم هذا ووعدهم واشتراط إيمانهم بالآية محض كذب وافتراء لأنهم بعد مجيء الآيات البينات لهم قالوا سحر وشعر ولم يؤمنوا ولم يوفوا بوعدهم وأيمانهم ونذورهم تجاه الرسالة والنبي ﷺ.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ وَالْغَرَضُ حِكَايَةُ شَبْهَةِ أُخْرَى لَهُمْ وَهِيَ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَيْفَمَا كَانَ أَمْرُهُ فَلَيْسَ مِنْ جَنْسِ الْمَعْجَزَاتِ الْبَتَّةِ، وَلَوْ أَنَّكَ يَا مُحَمَّدُ جِئْتَنَا بِمَعْجَزَةٍ بَاهِرَةٍ وَبَيِّنَةٍ فَاهِرَةٍ لَأَمْنَا بِكَ وَأَكْدُوا هَذَا الْمَعْنَى بِالْإِيمَانِ وَالْأَقْسَامِ، جَهْدَ يَمِينِهِ. قَالَ الزَّجَاجُ: مَعْنَاهُ بِالْغَوَا فِي الْإِيمَانِ، وَالْمُرَادُ بِقَوْلِهِ لَكُنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ مَا رَوَى مِنْ جَعَلَ الصِّفَا ذَهَبًا وَقِيلَ يَقْصِدُ بِهَا بَاقِيَ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ الذِّكْرُ.⁶⁵¹

توعّدوا ليوقنن أجمعون، وأن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - سأل الله أن يأتيهم بآية كما سألوا، حرصا على أن يؤمنوا. فهذه الآية نازلة في ذلك المعنى لأن هذه السورة جمعت كثيرا من أحوالهم ومحتاجاتهم، واللام في لئن جاءتهم آية موطئة للقسم، لأنها تدل على أن الشرط قد جعل شرطا في القسم فتدل على قسم محذوف غالبا، وقد جاءت هنا مع فعل القسم لأنها صارت ملازمة للشرط الواقع جوابا للقسم فلم تنفك عنه مع وجود فعل القسم. واللام في ليؤمنن بها لام القسم، أي لام جوابه، والمراد بالآية ما اقترحوه على الرسول ﷺ يعنون بها خارق عادة تدل على أن الله أجاب مقترحهم ليصدق رسوله - عليه الصلاة والسلام -، فلذلك نكرت آية وأي آية من جنس ما تنحصر فيه الآيات في زعمهم، ومجيء الآية مستعار لظهورها لأن الشيء الظاهر يشبه حضور الغائب فلذلك يستعار له المجيء.⁶⁵² لئن جاءتهم

⁶⁵⁰ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (259/4-260).

⁶⁵¹ ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت: 850هـ) تحقيق: الشيخ زكريا عميرات الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: 1 - 1416 هـ / (143/3).

⁶⁵² ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (435/7).

آية من مقترحاتهم ليؤمنن بها، والخصم ب إنما رد على المشركين ظنهم بأن الآيات في مقدور النبي ﷺ إن كان نبياً فجعلوا عدم إجابة النبي ﷺ اقتراحهم آية أماره على انتفاء نبوته، فأمره الله أن يجيب بأن الآيات عند الله وحده، والله أعلم بما يظهره من الآيات.⁶⁵³

وهو الأمر الذي جعل بعض المسلمين حين سمعوا أيمانهم يقترحون على رسول الله - ﷺ - أن يسأل ربه هذه الآية التي يطلبها المشركون ليتحقق طلبهم وتلزمهم الحجة ويتم إيمانهم، ويجيء الرد الحاسم على المؤمنين، ببيان طبيعة التكذيب في هؤلاء المكذبين: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وهو يذر المكذبين في طغيانهم يعمهون، لأنه يعلم منهم أنهم يستحقون جزاء التكذيب كما يعلم عنهم أنهم لا يستجيبون، لا يستجيبون؛ ولو نزل إليهم الملائكة أو بعث لهم الموتى يكلموهم كما يقترحون.⁶⁵⁴

2.1.22.3. الكافر صاحب الجنة أو جنس الكافر عموماً

الكهف ك 36

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾⁶⁵⁵

1- فيمن نزلت:

يقول صاحب الجنة أنه لو رجع إلى الله، وهو غير موقن أنه راجع إليه (لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) يقول: لأجدن خيراً من جنتي هذه عند الله إن رددت إليه مرجعاً ومردداً، يقول: لم يعطني هذه الجنة في الدنيا إلا ولي عنده أفضل منها في المعاد إن رددت إليه، فهو شاك منكر للبعث و متمنّ على الله في نفس الوقت من غروره وكبره فهو كفور جحود لنعم ربه، مكذب ببلقائه وفي نفس الوقت متمنّ على الله.⁶⁵⁶ الكافر صاحب الجنة.

2- الإعراب:

⁶⁵³ ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (56/2)، وينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (437/7).

⁶⁵⁴ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (1170/2).

⁶⁵⁵ الكهف: 36.

⁶⁵⁶ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (23/18).

ف (وَمَا): الواو: حرف عطف، ما: حرف نفي. (أَظُنُّ): فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا. (السَّاعَةَ): مفعول به أول منصوب بالفتحة. (قَائِمَةً): مفعول به ثان منصوب بالفتحة، والجملة معطوفة. (وَلَكِنَّ): اللام: موطئة للقسم، إن: حرف شرط جازم (رُدِّدْتُ): فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون، والتاء: ضمير متصل مبني في محل رفع نائب فاعل، والجملة ابتدائية لا محل لها. (إِلَى): حرف جر. (رَبِّي): اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور متعلقان برددت، والياء: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه. (لَأَجِدَنَّ): اللام: واقعة في جواب القسم، أجدن: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والفاعل ضمير مستتر أنا. (خَيْرًا): مفعول به منصوب بالفتحة. (مِنْهَا): من حرف جر، ها: ضمير متصل مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بخيرا. (مُنْقَلَبًا): تمييز منصوب بالفتحة.⁶⁵⁷

وقرأ نافع لأجدن خيرا منهما منقلبا، بثنائية منهما وقرأ أهل الكوفة (منها) والثنائية أولى لقرب الضمير الثنية إلى الجنتين.⁶⁵⁸

3- التحليل:

لو رددت إلى ربي - على ما تزعم - لأجدن، خيرا منها منقلبا إن كنت صادقا.⁶⁵⁹

وقيل هو الكافر الشاك في البعث، وأهم تعالى مكان الجنتين إذ لا يتعلق بتعيينه كبير فائدة.⁶⁶⁰

هكذا يؤكد هذا الضالّ لصاحبه، ويحيي إليه بما يظن أنه يملأ قلبه حسرة وحسدا.. فيتحدث عن جنّته هذا الحديث الذي يتيه فيه فخرا وزهوا، بما يملك بين يديه، من ثراء طائل، وجاه عظيم.. إنه ينظر إلى جنّته كأنه يرى فيها الخلود وعدم الفناء، فيقول قولته ويرى انكار صاحبه عليه ولكنّ هذا الغويّ الضالّ لا يرفع عن غيّه وضلاله، ولا يجد فيما رأى على وجه صاحبه من أمارات الاستنكار، والاستهجان ما يصدده عن المضي قدما في كفره وغيّه، فيكمل قولته بقولة أشنع منها وأمعن في الضلال، فيقول: (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) وذلك إنما يقوله ويكرره إمعانا منه في الكيد لصاحبه، والسخرية به، وبالدين الذي يدين به، ثم لا يقف هذا الآثم الجهول عند هذا الحدّ، بل يقطع على صاحبه تلك الخواطر

⁶⁵⁷ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس / (218/2).

⁶⁵⁸ إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس / (295/2).

⁶⁵⁹ ينظر: تفسير الماتريدي لأبي منصور الماتريدي / (171/7).

⁶⁶⁰ ينظر: البحر المحیط، لابن حيان أثير الدين الأندلسي / (174/7).

التي تنبعث من إيمان، أنه إذا ردّ إلى ربه ليجدّ عنده خيرات وخير المنقلب، فيقول له: فلست وحدك يا صاحبي الذي يذهب بحظّه الذي يؤمّله في الحياة الآخرة، بل أنا كذلك سيكون لي في الآخرة - إن كانت هناك آخرة أصلا - حظ خير من حظك⁶⁶¹ فهو يكفر بما ومع ذلك يريد أن يغيض صاحبه، فشرط ب " إن " رددت إلى ربي لسوف أجد - باستعمال مؤكدين - عند ربي خيرا منهما منقلبا فهو يدعي كذبا على الله أنه مختار ومحبوب وحتى لو وجد رب وبعث سيكون له حظ من تلك الحياة الآخرة كما كان له منها في الدنيا، وهذا هو الكبر والغرور الذي يصحب المفر ويلتهم معه عند كل كافر جحود بالبعث ومنكر للآخرة.

وجملة وهو يحاوره حال من ضمير فقال. والمحاورة: مراجعة الكلام بين متكلمين، والظن بمعنى: الاعتقاد، وإذا انتفى الظن بذلك ثبت الظن بضده، وتبيد: تهلك وتنفى، وانتقل من الإخبار عن اعتقاده دوام تلك الجنة إلى الإخبار عن اعتقاده بنفي قيام الساعة.

ولا تلازم بين المعتقدين. ولكنه أراد التورك على صاحبه المؤمن تخطئة إياه، ولذلك عقب ذلك بقوله: ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا تهما بصاحبه. وقرينة التهكم قوله: وما أظن الساعة قائمة. وهذا كقول العاصي بن وائل السهمي لخباب بن الأرت (ليكونن لي مال هنالك فأقضيك دينك منه).

وأكد كلامه بلام القسم ونون التوكيد مبالغة في التهكم، وانتصب منقلبا على تمييز نسبة الخبر. والمنقلب: المكان الذي ينقلب إليه، أي يرجع.⁶⁶²

وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحس بالزهو، ويتنفش كالديك، فهكذا يكيد هذا الضالّ لصاحبه، ويحيي إليه بما يظن أنه يملأ قلبه حسرة وحسدا.. فيتحدث عن جنّته هذا الحديث الذي يتبّه فيه فخرا وزهوا، إنه الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء، أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل

⁶⁶¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (619/8).

⁶⁶² ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (321/15).

محفوظة لهم حتى في الملاء الأعلى، فما داموا يستطيعون على أهل هذه الأرض فلا بد أن يكون لهم عند السماء مكان

ملحوظ.⁶⁶³

2.22.3. المطلب 2: الشرط ب إذا

1.2.22.3. المنافقون

مريم ك 66

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثٌ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾⁶⁶⁴

1- فيمن نزلت:

قال الكلبي: نزلت في أبي بن خلف. حين أخذ عظاما بالية يفتها بيده، ويقول: زعم لكم محمد أنا نبعث بعد ما نموت.

فهو في المنافقين.⁶⁶⁵ وتصدق في كل كافر ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ الكافر الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت أخرج حيا،

فأبعث بعد الممات وبعد البلاء والفناء إنكارا منه ذلك.⁶⁶⁶

2- الإعراب:

(وَيَقُولُ): الواو: حرف استئناف، يقول: فعل مضارع مرفوع بالضمة. (الإنسان): فاعل مرفوع بالضمة، والجملة استئنافية.

(أإذا ما): الهمزة: حرف استفهام، إذا: اسم شرط غير جازم مبني على السكون في محل نصب مفعول فيه ظرف زمان،

ما: حرف زائد. (مِثٌ): فعل ماض مبني على السكون، والتاء: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، والجملة في محل

جر مضاف إليه. (لَسَوْفَ): اللام: لام الابتداء، سوف: حرف استقبال. (أُخْرَجُ): فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع

بالضمة، ونائب فاعله مستتر أنا. (حَيًّا): حال منصوبة بالفتحة.⁶⁶⁷

⁶⁶³ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (2270/4).

⁶⁶⁴ مريم 66.

⁶⁶⁵ ينظر أسباب نزول القرآن للواحدي/309.

⁶⁶⁶ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (227/18).

⁶⁶⁷ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (248/2).

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ أبي بن خلف الجُمَحِي بِإِنْكَارِ الْبَعْثِ ﴿أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ من الْقَبْرِ بعد الْمَوْتِ هَذَا مَا لَا يَكُونُ.⁶⁶⁸ فَأَنْكَرَ الْبَعْثَ وَكَذَّبَ بِهِ وَجَعَلَ شَرْطَ الْمَوْتِ بِإِذَا، مَقْرُونًا بِالْبَعْثِ، لَكِنْ تَكْذِيبُهُ هَذَا بَعِيدٌ عَنِ الْوَاقِعِ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْبَعْثِ أَنْ يَكُونَ مَبَاشَرَةً بَعْدَ الْمَوْتِ، بَلْ وَجُودَ فَاصِلٍ زَمَنِي بَيْنَهُمَا طَالٍ أَوْ قَصَرٌ هُوَ الْوَاقِعُ وَالْحَاصِلُ يَعْلَمُ اللَّهُ.

تَقْدِيمُ الظَّرْفِ، وَإِبْلَاؤُهُ حَرْفُ الْإِنْكَارِ لَمَّا أَنَّ الْمُنْكَرَ كَوْنُ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَقْتُ الْحَيَاةِ وَانْتِصَابُهُ بِفَعْلٍ دَلَّ عَلَيْهِ إِخْرَاجُهُ وَهُوَ الْبَعْثُ لَا بِهِ فَانْ مَا بَعْدَ اللَّامِ لَا يَعْمَلُ فِيمَا قَبْلُهَا لِصِدَارَتِهَا، وَهِيَ فِي الْأَصْلِ لِلْحَالِ، وَهَاهُنَا لِلتَّأْكِيدِ الْمَجْرَدِ أَيْ لِلتَّأْكِيدِ مَعْنَى هَمْزَةِ الْإِنْكَارِ فِي إِذَا، وَلِذَا جَازَ اقْتِرَافُهَا بِسَوْفَ، الَّذِي هُوَ حَرْفُ الِاسْتِقْبَالِ وَفِي التَّكْمِلَةِ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى لَسَوْفَ، لَيْسَتْ لِلتَّأْكِيدِ فَانْهُ مَنْكَرٌ، فَكَيْفَ يَحْقُقُ مَا يَنْكَرُ وَإِنَّمَا كَلَامُهُ حِكَايَةُ لِكَلَامِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَأَنَّهُ ﷺ قَالَ إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا مَاتَ لَسَوْفَ يُخْرَجُ حَيًّا فَأَنْكَرَ الْكَافِرُ ذَلِكَ الْبَعْثَ، وَحَكَّى قَوْلَهُ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ، عَلَى ذَلِكَ حَكَاهُ الْجُرْجَانِيُّ فِي كِتَابِ نَظْمِ الْقُرْآنِ قَالَ فِي بَحْرِ الْعُلُومِ لَمَّا كَانَتْ هَذِهِ اللَّامُ لَامَ الْإِبْتِدَاءِ الْمُؤَكَّدَةِ لِمُضْمُونِ الْجُمْلَةِ وَلَامَ الْإِبْتِدَاءِ لَا تَدْخُلُ إِلَّا عَلَى الْجُمْلَةِ مِنَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ وَجِبَ تَقْدِيرُ مَبْتَدَأٍ وَخَبَرٍ وَأَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ لَنَا سَوْفَ إِخْرَاجِ حَيًّا وَمَا فِي أَئِذَا مَا لِلتَّوَكُّيدِ أَيْضًا وَتَكَرُّرِ التَّوَكُّيدِ انْكَارٍ عَلَى انْكَارٍ.⁶⁶⁹

وَيَقُولُ هَذَا الْإِنْسَانُ الْجَاهِلُ الْجَحُودُ، الْمُنْكَرُ لِلْبَعْثِ وَالنَّشُورِ، أَعُودُ لِلْحَيَاةِ مَرَّةً أُخْرَى بَعْدَ مَوْتِي، وَبَعْدَ أَنْ أَكُونَ كَالْعِظَامِ النَّخْرَةِ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ وَالنَّفْيِ، وَعَبَّرَ - سَبْحَانَهُ - بِالْمُضَارِعِ يَقُولُ لِاسْتِحْضَارِ تِلْكَ الصُّورَةِ الْغَرِيبَةِ، وَتِلْكَ الْأَقْوَالِ الْمُنْكَرَةِ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْ هَذَا الْكَافِرِ، أَوْ لِإِفَادَةِ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ مَوْجُودٌ وَمُسْتَمَرٌّ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَالْمُرَادُ بِالْإِنْسَانِ هُنَا، جَمَاعَةٌ مَعِينُونَ وَهُمْ الْكَفَرَةُ الْمُنْكَرُونَ لِلْبَعْثِ أَوْ الْمُرَادُ: جَنْسُ الْكَافِرِ الْمُنْكَرِ لِلْبَعْثِ، تَكُونُ أَلْ فِي الْإِنْسَانِ لِلْعَهْدِ، وَالْمُرَادُ بِهَا أَحَدُ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ، وَيَكُونُ لَفْظُ الْإِنْسَانِ مِنْ قَبِيلِ الْعَامِ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ الْخُصُوصُ.

⁶⁶⁸ تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، جمع الفيروزآبادي/ (258/1).

⁶⁶⁹ ينظر: روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوئي، المولى أبو الفداء (ت: 1127هـ) الناشر: دار الفكر - بيروت/ (348/5).

ومن الأساليب العربية المعروفة، إسناد الفعل إلى المجموع، مع أن فاعله بعضهم لا جميعهم كما يقال: بنو فلان قتلوا فلانا مع أن القاتل واحد منهم.⁶⁷⁰

ويجوز أن يكون وصف حذف، أي الإنسان الكافر، كما حذف الوصف في قوله تعالى: يأخذ كل سفينة غصبا [الكهف: 79]، أي كل سفينة صالحة، وكذلك إطلاق الناس على خصوص المشركين منهم في آيات كثيرة كقوله تعالى: يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم [البقرة: 21]، والاستفهام في إذا ما مت لسوف أخرج حيا إنكار لتحقيق وقوع البعث، فلذلك أتى بالجملة المسلطة عليها الإنكار مقتزنة بلام الابتداء الدالة على تأكيد الجملة الواقعة هي فيها، أي يقول لا يكون ما حققتموه من إحيائي في المستقبل، ومتعلق أخرج محذوف أي أخرج من القبر؛ وقد دخلت لام الابتداء في قوله لسوف أخرج حيا على المضارع المستقبل بصريح وجود حرف الاستقبال، وذلك حجة لكلام ابن مالك بأن لام الابتداء تدخل على المضارع المراد به الاستقبال ولا تخلصه للحال،⁶⁷¹ إذا فهو إنكار لهذا القول المنكر الذي يقوله الذين لا يؤمنون بالبعث، وهو استبعادهم أن يبعث الموتى، بعد أن تبلى أجسادهم، وتحلل وتصير ترابا والإنسان هنا إذا كما تبين لنا أنه ليس إنسانا بعينه، وإنما هو جنس للإنسان، يدخل فيه كل من يقول هذا القول.⁶⁷²

23.3. المبحث الثالث والعشرون: الإطناب

الإطناب هو "زيادة التعبير عن قدر المعنى"⁶⁷³ أي يزيد اللفظ على المعنى لتقويته وتوكيده، وإذا كانت الزيادة دون فائدة فتكون حشواً لا تأثير لها على المعنى، وفائدة الزيادة منها ما هو للإيضاح بعد الإبهام، ومنها ما هو ذكر الخاص بعد العام، وذكر العام بعد الخاص، والتكرار، التوشيع، الاعتراض. هذا الأسلوب يضيفي جمالاً على الخطاب، ويفصل الحديث في المقام، وعند النظر للآيات الكريمة، يتبين لنا ذلك جيداً تأثيرها على المعنى.

⁶⁷⁰ ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي نشر: دار تحفة مصر للطباعة والنشر - القاهرة، الطبعة: 1، يونيو 1997/ (56/9).

⁶⁷¹ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (145/16).

⁶⁷² ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (753/8).

⁶⁷³ عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي/ 605.

3.23.1. فرعون

الشعراء ك 19

﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾⁶⁷⁴

1- فيمن نزلت:

وفي هذا الكلام محذوف استغني بدلالة ما ظهر عليه منه، وهو: فأتيا فرعون فأبلغاه رسالة ربهما إليه، فقال فرعون: ألم نريك فينا يا موسى وليدا، ولبثت فينا من عمرك سنين؟ وذلك مكثه عنده قبل قتل القتييل الذي قتله من القبط. (وفعلت فعلتك التي فعلت) يعني: قتله النفس التي قتل من القبط. (وأنت من الكافرين) اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: وأنت من الكافرين بالله على ديننا - تقال عند كل قوم على من يظنوه إله لهم قد تكون من باب الجهل بأنه اسم علم خاص برب العالمين لكنّه مستخدم بين أهل الكفر كذلك - فهو بادعائه أنه رب، إنما كان يزعم أنه هو الرب، فظن أن من لم يؤمن به كموسى فهو كافر به وهذا افتراء منه، فعلبه أن يكون ربا أوّلا حتى يتهم غيره بالكفر، وطبعا لا هو رب ولا موسى عليه السلام بكافر، بل العكس تماما. وقال آخرون: بل معنى ذلك: وأنت من الكافرين نعمتنا عليك. فهو في كلتا الحالتين كاذب فلا هو أنعم عليه فكفر نعمته، بل كما أجابه سيدنا موسى في الآيات التي بعدها أنه كيف يمن عليه وقد عبّد قومه وأهانهم فكيف بتلك الصفة أن تكون مزية ومنة يمنها عليه، وإن كان يقصد الأولى فهو كاذب بادعائه الربوبية واتهامه لمن لم يخضع له بأنه كافر.⁶⁷⁵

2- الإعراب:

(الواو): حرف عطف. (فعلت): فعل ماض مبني على السكون، والتاء: ضمير متصل في محل رفع فاعل. (فعلتك): مفعول به منصوب بالفتحة، والكاف: ضمير متصل في محل جر مضاف إليه. (التي): اسم موصول مبني في محل نصب نعت لفعلتك. (فعلت): فعل ماض مبني على السكون، والتاء: ضمير متصل في محل رفع فاعل. (الواو): للحال والاقتران. (أنت): ضمير منفصل في محل رفع متبداً. (من): حرف جر. (الكافرين): اسم مجرور بالياء لأنه جمع مذكر

⁶⁷⁴ الشعراء 19.

⁶⁷⁵ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (340/19).

سالم، والجار والمجرور متعلقان بخبر محذوف. وجملة (فعلت): في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول. وجملة: (أنت من الكافرين) في محلّ نصب حال من فاعل فعلت.

3- التحليل:

فموسى كافر بفرعون وبكذبه وادعائه الألوهية لكنه أول المسلمين، وإن كان يقصد تذكيره بقتله للرجل فهو قد قتله خطأ ولم يقصد قتله، وليس كفرا بفرعون أو تعديا على قوانينه.

عدّد نعمته عليه من ذلك ووبّخه بما جرى على يديه من قتل خبازه وفضعه عليه بقوله (وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك) ومن وجه التفضيع عليه أن في إتيانه به مجملا مبهما، إيدانا بأنه لفظاعته مما لا ينطق به إلا مكى عنه ونظيره في التفضيم المستفاد من الإبهام قوله: (فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا عَشِيَهُمْ) فكرر كلمة فعلت ليظهر من خلالها عظم ما قام به كانه يريد عدم ذكره لجلله وكبر ما فعله، وفعلتك (مصدر المرة) أو مصدر العدد، هو ما يذكر لبيان عدد الفعل فأعرض فرعون عن الاعتناء بإبطال دعوة موسى فعدّل إلى تذكيره بنعمة الفراعنة أسلافه على موسى وتخويفه من جنائته حسبانا بأن ذلك يقتلع الدعوة من جذمها ويكف موسى عنها، وقصده من هذا الخطاب إفحام موسى كي يتلعثم من خشية فرعون حيث أوجد له سببا يتذرّع به إلى قتله.⁶⁷⁶

فإن موسى مطلوب لفرعون في دم القتل المصري الذي قتله، إن الأبرياء لا تشفع لهم براءتهم أمام ظلم فرعون وبغيه، فكيف بأرباب التهم الذين يقعون بين يديه؟ وموسى مطلوب منه أن يمثّل أمر ربه، وإنه لممثّل له، صاعد به، فتجاهل فرعون الرسالة التي أفضى إليه بمضمونها موسى وأخوه هارون وألقى إلى موسى بهذه القذائف: - ألم نريك ألم نُرِيكَ فِينَا وَلَيْدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ؟

وَفَعَلْتَ فَعَلْتَك الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ؟

فكأنه يقول له من أنت حتى تجيء إلينا اليوم في صورة مبعوث سماوي؟ ألسنت ربيب نعمتنا، وغدّي فضلنا وإحساننا؟ فكيف تأتينا من هذا العلوّ، وتطلب إلينا هذا الطلب، الذي هو من خاصة شئوننا، وكيف تحدّثك نفسك بالجرأة

⁶⁷⁶ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (61/19). وينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (110/19).

علينا، وبالنسبة من عقوبتنا، وقد فعلت ما فعلت بارتكاب هذه الجريمة، والاعتداء على أحد رعايانا؟ أليس هذا كفرا بنعمتنا، وإحساننا؟ أليس هذا عدوانا على سلطاننا واستخفافا بناموسه؟⁶⁷⁷

فقد بدأ فرعون متهمكما مستهزئا مستعجبا⁶⁷⁸:

(قَالَ: أَلَمْ نُزِدْكَ فِيْنَا وَلِيدًا، وَلَبِثْتَ فِيْنَا مِنْ عُمْرِكَ سِنِينَ؟ وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ، وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

فعلتك البشعة الشنيعة التي لا يليق الحديث عنها بالألفاظ المفتوحة، فهل هذا جزاء التربية والكرامة التي لقيتها عندنا وأنت وليد؟ أن تأتي اليوم لتخالف ما نحن عليه من ديانة؟⁶⁷⁹

واللفظ القرآني - في ظاهره - فيه إطناب وتكرار، ولا يكون ذلك إلا لمعنى زائد، وإلا لغرض مراد، وهنا يريد فرعون إظهار عيوب وسيئات موسى وفضلهم عليه - آل فرعون - ففي هذا الإطناب تضخيم للأمر، وتعظيم للتهمة حتى تظهر كأنها شيء عظيم مفتوح الأبواب للتأويل وتصور ماذا يمكن أن يكون، فغرضه التهويل والتضخيم.

وقد كان هذا التكرار في القصص القرآني، موطنًا من المواطن التي دخل منها المستشرقون، وأشباه المستشرقين، من أعداء الإسلام، للطعن في القرآن، وأن هذا التكرار، هو اختلال في النظم، جاء نتيجة للحالات العصبية والنفسية التي كانت تعتري النبي، كما يقولون، كذبا وبهتانًا، بل هي من باب الترسيع والإطناب وليس بسبب خلل أو اضطراب.⁶⁸⁰

فكان جواب موسى فيه اعتراف بظاهر التقرير وإبطال لما يستتبعه من جعله حجة لتكذيبه برسالته عن الله، ولذلك قابل قول فرعون وأنت من الكافرين، بقوله: وأنا من الضالين إبطالا لأن يكون يومئذ كافرا، ولذلك كان هذا أهم بالإبطال، وبهذا يظهر وجه الاسترسال في الجواب بقوله: فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين فقابل سيدنا موسى استرسال فرعون وإطنابه بأسلوب يناسبه ويقابله.⁶⁸¹

⁶⁷⁷ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (79/10).

⁶⁷⁸ شِدَّةُ التَّعَجُّبِ، يُقَالُ مُسْتَعْجِبٌ وَمُسْتَعْجَبٌ بِمَا يَرَى.

⁶⁷⁹ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب / (2591/5).

⁶⁸⁰ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (76/10).

⁶⁸¹ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (114/19).

4. الفصل الثاني: البيان

لغة: الكشف والايضاح والإظهار.

اصطلاحاً:

"أصول وقواعد يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بعضها عن بعض في وضوح الدلالة على نفس ذلك المعنى، ولا بد من اعتبار المطابقة لمقتضى الحال دائماً"⁶⁸² فيعمد المرسل لإيصال المعنى للمتلقي بما يتناسب مع المقام، فالبيان باب للدخول للموضوعات منها (التشبيه، والاستعارة، والكناية، والمجاز) على وجه المبالغة بلازم الألفاظ الأصلية. واستخدمته العرب للوقوف على أسرار الكلام منثور، ومنظوم وقياس فنون الفصاحة وبيان درجات البلاغة فيه.⁶⁸³

1.4. المطلب 01: التشبيه

التشبيه هو "بيان أن شيئاً أو أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر، بأداة هي الكاف أو نحوها ملفوظة أو ملحوظة"⁶⁸⁴ وهو وسيلة من وسائل التعبير التصويرية ويستمد قوته من الخيال فيفصح عن فكرة وعاطفة في التعبير، ويرفع قدر الكلام ويحرك القلب إليه مُضفياً على المعنى قوة ووضوح، فهو ينتقل من المعنى الأصلي إلى الصورة المجازية التي تثير إعجاب المتلقي وتحزن نفسه ؛ فيكون في حالة انتظار وترقب لإثراء أدبي وجمال فني، وإبداع في التصوير، وهذا ما قال عنه ابن وهب "و أما التشبيه فهو أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم"⁶⁸⁵ طرفا التشبيه (حسيان أو خياليان أو عقليان — ومنه بالوهم وبالوجدان أو فيها يختلف الجزآن) وبحسب كل ركن تقسم أنواعه.

وقسم البلاغيون التشبيه إلى ثلاث أنواع وهي (مفرد، تمثيلي، ضمني)⁶⁸⁶

⁶⁸² ينظر: مفتاح العلوم، محمد بن علي السكاكي/ 162، وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع/ 216.

⁶⁸³ دفع المحنة عن قارئ منظومة ابن الشحنة في علم البلاغة، محمد المساوي التهامي، دار الكتب العلمية بيروت، ط 27/1.

⁶⁸⁴ ينظر: مفتاح العلوم، محمد بن علي السكاكي/ 332، البلاغة الواضحة، محمد أمين/ 20.

⁶⁸⁵ دراسات في البلاغة العربية من بلاغة القرآن الكريم، محمد علوان، نعمان علون/ 196.

⁶⁸⁶ تحقيق نظم مائة المعاني والبيان في علم البلاغة لابن الشحنة الحنفي، لإبراهيم الفقيه السريحي، دار النصيحة/ 17.

وعرّف البلاغيون التشبيه التمثيلي بـ "أنه صورة منتزعة من متعدد"⁶⁸⁷ فهو تشبيه مركب، بحيث يكون المشبه صورة، والمشبه به صورة، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اشتراك الصورتين.

1.1.4. مشركو قريش واليهود

البقرة م 275

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁶⁸⁸

1- فيمن نزلت:

بنو إسرائيل، أي اليهود عموما والمشركين. سبق ذكر سبب النزول في الصفحة 162.

2- الإعراب:

سبق إعرابها في صفحة 162.

3- التحليل:

فإن قلت: هلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن الكلام في الربا لا في البيع فهو من طريقة قياس الطرد، وهو في الحقيقة له نفس مآل المقصد لطريقة قياس العكس (بأن يقال البيع مثل الربا ولو كان الربا حراما إذا فالبيع كذلك حرام) لأن الكلام على الربا والبيع حلال اتفاقا وليس بحرام إذا فهو بقياس الاطراد، فوجب أن يقال إنهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه، وكانت شبهتهم أنهم قالوا: لو اشترى الرجل ما لا يساوى إلا درهما بدرهمين جاز، فكذلك إذا باع درهما بدرهمين؟ قلت: جيء به على طريق المبالغة، وهو أنه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا أنهم جعلوه أصلا وقانونا في الحل حتى شبهوا به

⁶⁸⁷ ينظر: مفتاح العلوم، محمد بن علي السكاكي/349، والبلاغة الواضحة، محمد أمين/36.

⁶⁸⁸ البقرة 275.

البيع. وقوله وأحل الله البيع وحرم الربا إنكار لتسويتهم بينهما، ودلالة على أن القياس يهدمه النص، لأنه جعل الدليل على بطلان قياسهم إحيال الله وتحريمه.⁶⁸⁹

أرادوا نظمهما في سلك واحد لإفضائهما إلى الربح، وقد جعلوا الربا أصلاً في الحلّ، وشبهوا البيع به للمبالغة. وهذا ما يسمى في علم البلاغة بالتشبيه المقلوب، ويجوز أن يكون التشبيه غير مقلوب بناء على ما فهموه أن البيع إنما حل لأجل الكسب والفائدة وذلك في الربا متحقق وفي غيره موهوم.⁶⁹⁰

وذلك أن الذين كانوا يأكلون من الربا من أهل الجاهلية، كان إذا حلّ مالٌ أحدهم على غريمه، يقول الغريم لغريم الحق: "زدي في الأجل وأزيدك في مالك". فكان يقال لهما إذا فعلا ذلك: "هذا رباً لا يحل". فإذا قيل لهما ذلك قالوا "سواء علينا زدنا في أول البيع، أو عند محلّ المال" فكذبهم الله في قلوبهم، فردّ على كذبهم بأنه أحل البيع وحرم الربا ولم يحل الربا بأي وجه من الوجوه.⁶⁹¹

فالربا هو الوجه المقابل للصدقة والزكاة، الوجه الطالح الكالح، لهذا كان سياقه في ذكر الربا مباشرة بعد عرض الوجه الخير الطيب الطاهر الودود الذي هو الصدقة، فعرضه عرضاً منفراً ثم ذكر شناعة قولهم وكذبهم حين جعلوها شيئاً واحداً فكيف يكون الأمر الجيد الطيب الطاهر مساوياً لنقيضه وضده؟

لقد كذب المشركون واليهود حين جعلوا الربا حلالاً وفوق هذا مكنتهم جرأتهم في الكذب على الحق تعالى حين قالوا إنهما نفس الشيء وهما أمر واحد، وشبهوهما ببعض مع أن الفارق بينهما كبير فلبسوا على عوامهم من المشركين وأوهموهم بوجود شبه كبير بين الربا والبيع حتى أخطأ متمائلين - بحسب نظرة اليهود - وهنا تظهر بلاغة القرآن الكريم في السرد وفي نظمه حيث جعل سياق ذكر الربا مباشرة عقب الكلام عن الصدقة ومحاسنها والتحفيز والتشجيع والحثّ عليها، ونجد ذلك من الآية 267 من سورة البقرة إلى غاية الآية 274.

⁶⁸⁹ ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري/ (321/1).

⁶⁹⁰ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (73/3).

⁶⁹¹ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري/ (13/6).

ثم عرض موضوع الربا، فعرضه عرضاً منفرداً، يكشف عن مدى قبح وشناعة عملية الربا، وما فيها من جفاف في القلب وشر في المجتمع، وفساد وهلاك للعباد في الأرض بسببه، ولم يبلغ من تفضيع أمر أراد الإسلام إبطاله من أمور الجاهلية ما بلغ من تفضيع الربا، ولا بلغ من التهديد في اللفظ والمعنى ما بلغ التهديد في أمر الربا والله الحكمة البالغة. فلقد كانت للربا في الجاهلية مفسده وشوره، لكنها لم تكن بادية في ذلك الزمن كما بدت في هذا الزمن المعاصر وفي عالمنا الحاضر، لوم تكن مساوئه بادية ومنكشفة كما هي بائة اليوم مع هذا النظام العالمي الحديث الذي جعل أهم أسس له هو الربا وكل شيء له علاقة بالأموال وحركاتها والبنوك وعقودها إلا وهو مبني على الربا كشرط أساسي، وكم مر العالم بأزمات وانحيارات اقتصادية كان سببها الأول الربا والتعامل به.⁶⁹²

وفي مقابل ذلك النظام الذي يقوم على الأساس الربوي الشرير الظالم اللئيم. يتبين لنا النظام الإسلامي، إنهما نظامان متقابلان؛ النظام الإسلامي. والنظام الربوي، وهما لا يلتقيان في تصور، ولا يتفقان في أساس ولا يتوافقان في نتيجة، ولا يمكن أن يكونا واحداً كما لا يمكن للبيع أن يكون مثل الربا أبداً.

ثم قوله: (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا)، فيه دليل جواز القياس في العقل؛ لأنه لو لم يكن في العقل جواز لم يكن لقولهم: (إنما البيع مثل الربا) معنى، لكنهم لم يعرفوا معنى المماثلة، ثم المماثلة على الوجهين: مماثلة أسباب، ومماثلة أحوال.⁶⁹³ فقياسهم باطل ومحض افتراء وقد ثبت عند الفقهاء كفر من اعتقد حل هذا القول.

فالقول هو قول آكلي الربا، وهم المقترضون الذين يستغلون حاجة الفقير للمال فيزدادوا غنا باستغلاله وهو يزداد فقراً إلى فقره ويصير أسيراً بين يديهم لا ينفك من التبعية لهم، وهم إنما قبلوا الربا، ورضوا بالتعامل به، قياساً على أصل باطل قاسوه عليه، وهو البيع، وهذا يكشف عن مدى ما يفعل السوء بأهله حين يستبد بهم، ويفسد عليهم عقولهم، حتى لتتقلب عندهم أوضاع الأمور، وتختل موازينها في تفكيرهم، فيروا القبيح حسناً جميلاً ويرون والخير قبيحاً سيئاً.⁶⁹⁴

⁶⁹² ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب/ (318/1).

⁶⁹³ ينظر: تفسير الماتريدي لأبي منصور الماتريدي (269/2).

⁶⁹⁴ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (354/2 - 355).

فجعلوا البيع مثل الربا بقولهم: إنما البيع مثل الربا، وهنا قصر إضافي للرد على من زعم تخالف حكمهما فحرم الربا وأحل البيع، فالمراد به قول بعضهم وهم دعاة الكفر واليهود بالمدينة، ظنوا بسوء فهمهم أو بجهلهم أن تحريم الربا اضطراب، في حين أن البيع حلال، لقصد أن يفتنوا المسلمين في صحة أحكام شريعتهم ويشككهم في دينهم وأحكامه.⁶⁹⁵

2.1.4. كفار قريش

القصص ك 48

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾⁶⁹⁶

1- فيمن نزلت:

يقول تعالى فلما جاء هؤلاء الذين لم يأثم من قبلك يا محمد نذير فبعثناك إليهم نذيرا (الحق من عندنا)، وهو محمد ﷺ بالرسالة من الله إليهم، قالوا تمردا على الله، وتماديا في الغي: هلا أوتي هذا الذي أرسل إلينا، وهو محمد ﷺ مثل ما أوتي موسى بن عمران من الكتاب؟ يقول الله تبارك وتعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لقومك من قريش، القائلين لك ﴿لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾ أو لم يكفر الذين علموا هذه الحجة من اليهود بما أوتي موسى من قبلك⁶⁹⁷.

2- الإعراب:

(قَالُوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (سِحْرَانِ) خبر لمبتدأ محذوف مرفوع بالألف لأنه مثنى. والجملة الاسمية مقول القول (تَظَاهَرَا): فعل ماض مبني على الفتح، والألف: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، والجملة صفة سحران. (وَقَالُوا): الواو حرف عطف، قالوا: فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. والجملة معطوفة على ما قبلها (إِنَّا): إن:

⁶⁹⁵ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (83/3).

⁶⁹⁶ القصص 48.

⁶⁹⁷ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن للطبري / (587/19).

حرف مشبه بالفعل، ونا: ضمير متصل مبني في محل نصب اسم إن. (يَكُلُّ): الباء: حرف جر، كل: اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور متعلقان بكافرين. (كافِرُونَ): خبر إن مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم، والجملة الاسمية مقول القول.⁶⁹⁸

3- التحليل:

فهذا أحد مذاهب الضلال والعناد، الذي غطى على عقول المشركين، إثم قد تمنوا من قبل على الله أن يبعث لهم رسولاً منهم، وأن يكون لهم كتاب كما لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، وهذا ما يحكيه القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾⁶⁹⁹

هذا ما أرسله لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، هذا كتاب الله، قرأوا عليهم كما قالوا، فما هي ردة فعلهم؟ يذهبون ليجدوا أعذاراً وعللاً ويبهتون بها رسل الله وكتابه.

الرسول الذي جاء إليهم لم يكن من الكتب المادية لموسى كما قالوا، ولم يكن لديه عصا مثل عصا موسى، ولا يده المؤامرة، وأرسل موسى المن والسمان في أطفال إسرائيل، فماذا حصل محمد من هنا أين الثروة المادية التي جلبها لهم فطلبوا منه أن يرسم لهم الأنهار في هذه الصحاري وأن يفتح أعينهم وإلا أين الرسول رسالته أين؟

هل سأرسل رسولاً بدون هذه الآيات، وأدعهم يجنون ثمار المال والمتعة بأيديهم؟ أرسل لهم كل بضاعته حرفياً؟ إنها مهمة سهلة، يمكن لكل منا أن يكون رسولاً، إذا كان حمل الرسالة كلاماً، وبضائع الرسول حديثة (لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا.. إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)،⁷⁰⁰ هذا ما يعتقده المشركون أنهم لا يدركون الله، والمجد له يفردهم بأعظم رسالة ينقلونها إلى أعظم روح وعقل ومنطق للإنسان.⁷⁰¹ فشبّهوا النبيين ببعضهم وشبّهوا الدعوتين ببعض وأعلنوا كفرهم بالنبيين والدعوتين معاً.

⁶⁹⁸ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس / (434/2).

⁶⁹⁹ الأنعام 157.

⁷⁰⁰ الأنفال 31.

⁷⁰¹ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب / (355/10).

حكاية قولهم ساحران تظاهرا هي من قول مشركي مكة في موسى وهارون، لما سمعوا قصتهما أو في موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام. وهو الأظهر وهو الذي يلتئم مع قوله بعده وقالوا إنا بكل كافرون، والتنوين في بكل تنوين عوض عن المضاف إليه فيقدر المضاف إليه بحسب الاحتمالين إما بكل من الساحرين، وإما أن يقدر بكل من ادعى رسالة وهو أنسب بقول قريش لأنهم قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء.⁷⁰²

وهكذا لم يدعوا للحق، واستمسكوا بالتعلّلات الباطلة: (قالوا: لولا أوتي مثل ما أوتي موسى) إما من الخوارق المادية، وإما من الألواح التي نزلت عليه جملة، وفيها التوراة كاملة. ولكنهم لم يكونوا صادقين في حجتهم، ولا مخلصين في اعتراضهم: (أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل؟) ولقد كان في الجزيرة يهود، وكان معهم التوراة، فلم يؤمن لهم العرب، ولم يصدقوا بما بين أيديهم من التوراة.

ولقد علموا أن صفة محمد - ﷺ - مكتوبة في التوراة، واستفتوا بعض أهل الكتاب فيما جاءهم به فأفتوهم بأنه مطابق لما بين أيديهم من الكتاب فلم يدعوا لهذا كله، وادعوا أن التوراة سحر، وأن القرآن سحر، وأنهما من أجل هذا يتطابقان، ويصدق أحدهما الآخر، فقالوا: ساحران تظاهرا. وقالوا إنهم بكل كافرون، إذا فهو المرء إذن واللجاجة، ليس لنقصان البراهين ولا لطلب الحق، ولا لضعف الدليل،⁷⁰³ فسحران تظاهرا في الكتابين، وذلك حين بعثوا الرهط إلى رؤساء اليهود بالمدينة فسألوهم عن النبي ﷺ، فأخبروهم أنه نعتة وصفته، وأنه مذكور في كتابهم، فرجع الرهط إلى قريش فأخبروهم بجواب اليهود، فنعتوها حينها أنهما ساحران تظاهرا رفضا للحق لما بان واتضح.⁷⁰⁴

3.1.4. المشركون

الأنعام ك 124:

⁷⁰² ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (138/20).

⁷⁰³ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب / (5/2699).

⁷⁰⁴ الكشف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري / (3/420).

﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِیُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾⁷⁰⁵

1- فيمن نزلت:

نقل الطبري في تفسيره: "يقول تعالى ذكره: وإذا جاءت هؤلاء المشركين الذين يجادلون المؤمنين بزخرف القول فيما حرم الله عليهم، ليصدّوا عن سبيل الله أي يقولون: لن نصدق بما دعانا إليه محمد ﷺ من الإيمان به، وبما جاء به من تحريم ما ذكر أنّ الله حرّمه علينا (حتى نُؤْتَى)، يعنون: حتى يعطيهم الله من المعجزات مثل الذي أعطى موسى من فلق البحر، وعيسى من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص".⁷⁰⁶

2- الإعراب:

(لن): حرف ناصب. (نؤمن) فعل مضارع منصوب بالفتحة، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن. وجملة (لن نؤمن) ابتدائية في القول لا محل لها من الإعراب. (حتى): حرف جر (نُؤْتَى): فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بـ(أن) مضمر بعد حتى، وعلامة نصبه الفتحة المقدرة للتعذر، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره نحن. وجملة (نُؤْتَى): صلة الحرف المصدر لا محل لها من الإعراب، والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بـ(حتى)، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: نؤمن. (مثل) مفعول به ثانٍ منصوب بالفتحة الظاهرة. (ما) اسم موصول مبني على السكون في محل جر مضاف إليه. (أُوتِيَ): فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع بالضمة المقدرة منع ظهورها التعذر. (رسل) نائب فاعل مرفوع وعلامة رفع الضمة الظاهرة على آخره.

والله لفظ الجلالة في محل جر مضاف إليه والجملة (أُوتِيَ رسل) صلة الاسم الموصول لا محل لها.⁷⁰⁷

3- التحليل:

⁷⁰⁵ الآية 124 من سورة الأنعام.

⁷⁰⁶ ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري / (96 / 12).

⁷⁰⁷ الجدول في إعراب القرآن (150/13).

تحكي الآية الكريمة اعتراض جديد للمشركين على نبوة رسولنا الكريم ﷺ، فطلبوا أن يُعطوا ما أعطي الرسل، وللمفسرين في تفسير المعطى رأيان، الأول: أن المشركين أرادوا أن تكون النبوة فيهم لا في محمد ﷺ، "وَذَلِكَ أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ قَالَ: لَوْ كَانَتِ النَّبُوءَةُ حَقًّا لَكُنْتُ أَوَّلَ بِهَا مِنْكَ، لِأَنِّي أَكْبَرُ مِنْكَ سِنًا وَأَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا"⁷⁰⁸، وقال أبو جهل: والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً، إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، والثاني: (أَنَّ الْمَعْنَى وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ تَأْمُرُهُمْ بِاتِّبَاعِ النَّبِيِّ قَالُوا: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ... فَالْقَوْمُ مَا طَلَبُوا النَّبُوءَةَ وَإِنَّمَا طَلَبُوا أَنَّ تَأْتِيَهُمْ آيَاتٌ قَاهِرَةٌ وَمُعْجَزَاتٌ ظَاهِرَةٌ مِثْلَ مُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ كَيْ تَذُلَّ عَلَى صِحَّةِ نُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ).⁷⁰⁹ والرأي الأول أولى وأنسب لبقية الآية: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، مع ملاحظ التعريض بهم في هذه العبارة، فمفهوم المخالفة لها هو أنهم غير أهل لهذا المقام، لذا لم تكن النبوة فيهم.

لكن كلامهم هذا على غاية المكر والحسد، فهم أرادوا أن ينالوا هذا المقام والشرف، وجاء ذلك بأسلوب تشبيه، أداته (مثل)، وهي أقوى من الكاف، إذ الكاف تفيد التشبيه والتقريب، أما (مثل) فتفيد المماثلة والمطابقة، فهم لطمعهم يطلبون نبوة كاملة، وهذه حال المعرضين عن الهداية والمنهمكين في طلب الدنيا وأمجادها وعزّها، إلّا أنّ الآية جاءت بضد ما يرمون إليه، فجعلت مصيرهم الذل والصغار، ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾، فالصغار جاء في مقابل الاستعلاء عند الأتباع، والاستكبار على الحق، والتجريح على مقام الرسالة، والعذاب الشديد يقابل المكر الشديد، ومعاداة الرسل، وأذية المسلمين.⁷¹⁰

2.4. المطلب 02: التمثيل

1.2.4. مشركي قريش

الإسراء 48

⁷⁰⁸ معالم التنزيل في تفسير القرآن، تفسير البغوي / (185/3).

⁷⁰⁹ مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، تفسير الرازي / (136/13).

⁷¹⁰ ينظر: الدر المنثور، جلال الدين السيوطي / (354/3)، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي / (80/7).

﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾⁷¹¹

1- سبب الورد:

ومن أوصافهم الثابتة بالقرآن الكريم - الكفار عموماً ومشركي قريش خاصة - هو ضرب الأمثال ما يؤدي بهم للضلال المبين، والعلم في الضلال، يقول تعالى ذكره: انظر يا محمد بعين قلبك فاعتبر كيف مثلوا لك الأمثال، وشبهوا لك الأشباه، بقولهم: هو مسحور، وهو شاعر، وهو مجنون (فضلوا) أي فجاروا عن قصد السبيل بقولهم (فلا يستطيعون سبيلاً) يقول: فلا يهتدون لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه، وأن الله قد خذلهم عن إصابته، فهم لا يقدرّون على المخرج مما هم فيه من كفرهم بتوفيقهم إلى الإيمان به. وعن مجاهد (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً) مخرجاً، قال هي في الوليد بن المغيرة وأصحابه.⁷¹²

2- الإعراب:

(انْظُرْ): فعل أمر مبني على السكون، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت، والجملة استئنافية. (كَيْفَ): اسم استفهام مبني في محل نصب حال. (ضَرَبُوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. والجملة في محل نصب مفعول به (لَكَ): اللام: حرف جر، الكاف: ضمير متصل مبني في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بضربوا. (الْأَمْثَالَ): مفعول به منصوب بالفتحة. (فَضَلُّوا): الفاء: حرف عطف، ضلوا: فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (فَلَا): الفاء: حرف عطف. لا: حرف نفي. (يَسْتَطِيعُونَ): فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل، والجملة معطوفة (سَبِيلًا): مفعول به منصوب بالفتحة.⁷¹³

3- التحليل:

⁷¹¹ الإسراء 48.

⁷¹² ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري / (462/17).

⁷¹³ إعراب القرآن الكريم، لأحمد عبيد الدعاس / (193/2).

ضرب الأمثال هو من بين صفات وأساليب المشركين في المواجهة والتكذيب والجدال، الأمر هنا في (انظر) هو إلفات للنبي، ولكل مؤمن، أن ينظر في تلك المقولات التي يقولها المشركون، وإلى تلك الأمثال التي يضربونها، لقد كانوا يحبون الشعر، والأمثال والحكم ويحثون على تعلمهم، لما يرون في ذلك من ذكاء وحكمة، ويتخذون منها حجة على إنكار البعث، وقد كانت تلك الأمثلة التي ضربوها مما أملت عليهم أهواؤهم الفاسدة، وعقولهم المريضة- كانت سببا في أن ضلوا هذا الضلال، الذي ألقى بهم في متاهات لا يستطيعون الخروج منها، ولا يجدون فيها من يدهم على طريق يسبرون فيه، حتى في وسط هذا الضلال وتركتهم في حيرة مطبقة، وقدم الأمر بالنظر إلى تلك الأمثال التي ضربوها، حتى يتهيا الناظر إليها، ويخلى نفسه من كل نظر إلى غيرها وذلك لما فيها من فتنة وضلال وتشويه للحقائق وكذب على الحق. الأمر الذي يدعو إلى إمعان النظر فيها، حتى يتوقى الناظر إليها ما فيها من شرّ مستطير، وخطر داهم.⁷¹⁴

والتعبير بفعل النظر إشارة إلى أنه بلغ من الوضوح أن يكون منظورا. والاستفهام ب (كيف) للتعجب من حالة تمثيلهم للنبي- عليه الصلاة والسلام- بالمسحور وغيرها من التهم، وأصل (ضرب) وضع الشيء وتثبيته يقال: ضرب خيمة، ويطلق على صوغ الشيء على حجم مخصوص، يقال: ضرب دنانير، وهو هنا مستعار للإبراز والبيان تشبيها للشيء المبرز المبين بالشيء المثبت، واللام في لك للتعليل والأجل، أي ضربوا الأمثال لأجلك، أي لأجل تمثيلك، أي مثلك. يقال: ضربت لك مثلا بكذا. وأصله مثلتك بكذا، أي أجد كذا مثلا لك، قال تعالى: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾⁷¹⁵.

والأمثال هنا جاءت بصيغة الجمع وليس المفرد وإن كان المحكي عنهم بالآية مفرد، أي مثله بالمسحور وهو مثل واحد فجمعت لأن المقصود منها التعجب من هذا المثل ومن غيره فيما يصدر عنهم من تم بأنه شاعر، وكاهن، و مجنون، و ساحر، وقالوا مسحور، وسميت أمثالا باعتبار حالهم، لأنهم تحيروا فيما يصفونه به للناس لثلا يعتقدوه نبيا، فحاولوا استخدام كل التهم والكذبات لينفروا عنه الخلق، فجعلوا يتطلبون أشبه الأحوال بحاله في خيالهم فيلحقونه به، كمن يدرج فردا غريبا في أشبه الأجناس به، كمن يقول في الزرافة: إنها من الأفراس أو من الإبل، وفرع ضلالهم على ضرب أمثالهم

⁷¹⁴ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (497/8).

⁷¹⁵ النحل 74.

لأن ما ضربوه من الأمثال كله باطل وضلال وقوة في الكفر. فالمراد تفريع ضلالهم الخاص ببطلان تلك الأمثال، أي فظهر ضلالهم.⁷¹⁶

ويراد بالضلال هنا إما الضلال عن طريق الحق والهدى، أو الضلال بمعناه الأصلي، وهو الخيرة في الطريق وعدم الاهتداء، أي ضربوا لك أشباها كثيرة لأنهم تحيروا فيما يعتذرون به عن شأنك العظيم، فيكون الضلال تمثيلا لحال ضلالهم بحال الذي وقف في فيفاء لا يدري من أية جهة يسلك إلى المقصود، أي أنهم تحيروا كيف يصفون حالك للناس لتوقعهم أن الناس يكذبونهم، فلذلك جعلوا ينتقلون في وصفه من صفة إلى صفة لاستشعارهم أن ما يصفونه به باطل لا يطابقه الواقع وصعب التصديق لعلمهم به في أنفسهم أنه كذب منهم فتوقعوا عدم تصديق المتلقي لكلامهم لكذبته فوجدوا ونوعوا في ضرب أمثالهم ليصدوا عنه.

ثم يلتفت السياق عن هؤلاء المكذبين بالبعث والنشور، المستهزئين بوعد الله وقول الرسول، المنغضين رؤوسهم المتهكمين المتهمجين، الرافضين للدين والصادين عنه بكل التهم والأساليب والأمثال التي قد تجعل الناس تعرض عنه وتحول إلى سواه. فلقد كان كبراء قريش يستمعون إلى القرآن، ولكنهم يجاهدون قلوبهم ألا ترق له، ويمانعون فطرتهم أن تتأثر به فجعل الله بينهم وبين الرسول حجابا، حجابا خفيا، وجعل على قلوبهم كالأغفلة فلا تفقه القرآن، وجعل في آذانهم كالصمم فلا تعي ما فيه من توجيه.⁷¹⁷ فشبهوا حالة النبي ﷺ بحالة من قبله من الأنبياء وطلبوا منه ما طلبه قوم الأنبياء من قبلهم من أسلافهم من الأمم فشبهوا صورة مركبة بصورة مركبة بتمثيل حال النبي بحال سابقه من الأنبياء ليريههم الآيات والمعجزات التي كانت في الأنبياء السابقين، فجعلوا الصورة المركبة لحال غيره من الأنبياء شبيهة بحاله في زمنهم.

3.4.3. المطلب 3: الاستعارة

1.3.4. اليهود

البقرة م 275

⁷¹⁶ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (122/15).

⁷¹⁷ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب / (2231/4).

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾⁷¹⁸

1- فيمن نزلت:

نزلت في بني إسرائيل، اليهود عموماً قالوا ان البيع مثل الربا، مع أنه قد حُرِّمَ عليهم، وتبعهم في ذلك الكثير من الناس، وقيل إن الآية نزلت في ثقيف⁷¹⁹ أي المشركين. وسبق ذكره في صفحة 162.

2- الإعراب:

سبق إعرابها في صفحة 162.

3- التحليل:

استعارة مكنية فهي استعارة محسوس لمحسوس، أي حكم الحلية للبيع شبه بحلية الربا فحذف المشبه به، فإن أصل الحل في البيع فاستعير حكمه لحكم الربا فاستعير لحكم الربا لاشتراك المستعار والمستعار له لاشتراك المستعار والمستعار له في الحكم أو طريقة الاستفادة - بحسب اليهود ومشركي العرب من المرابين - وهي استعارة مكنية تبعية أوهم الخلق أنها بحكم البيع والقبض مقابل منفعة ومصلحة. فحذف وجه الشبه وجعلوها متطابقين، وهو من أبلغ أنواع الاستعارة، لأنها تخيلية وهي أبلغ من التحقيقية ويقصد بالأبلغ أنها تفيد الزيادة في التأكيد والمبالغة في التشبيه.⁷²⁰

يتعذر أن يكون كل من أكل الربا من الناس قد قال هذا الكلام، وإن كان قولاً حالياً بحيث يقوله كل من يأكل الربا في حال سألته سائل عن وجه تعاطيه الربا، فهو استعارة، ويجوز أن يكون " قالوا " مجازاً لأن اعتقادهم مساواة البيع للربا فلا يستلزم أن يقوله قائل، فأطلق القول وأريد لازمه، وهو الاعتقاد به.⁷²¹

⁷¹⁸ البقرة 275.

⁷¹⁹ ينظر: النكت والعيون للماوردي/ (348/1).

⁷²⁰ ينظر: الموسوعة القرآنية، إبراهيم بن إسماعيل الأبياري (ت: 1414هـ) الناشر: مؤسسة سجل العرب الطبعة: 1405هـ (217/2).

⁷²¹ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (83/3).

فالإسلام نظام متكامل، تعمل نصوصه وتوجيهاته وشرائعه كلها متحدة، ولا يؤخذ أجزاء وتفاريق وهو يضع نظمه لتعمل كلها في وقت واحد، فتتكامل وتتناسق. وهكذا أنشأ مجتمعه الفريد الذي لم تعرف له البشرية نظيرا في مجتمعات الأرض جميعا فحين يحرم الربا يفرض الزكاة التي تجمع من أغنيائهم وتعطى لفقرائهم، لكن المكذبين بأحكام الله قالوا في نفوسهم مصريين معتقدين "إِنَّمَا الْبَيْعُ" في التنمية والزيادة مِثْلُ الرِّبَا وهما سيان في الازدياد والنمو وَمَنْ أَيْنَ أَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وما يترتب عليه من الربح وَحَرَّمَ الرِّبَا مع أن إرضاء المتعاقدين حاصل فيها من كلا الجانبين، فشبهاوا الربا بالبيع وجعلوها شيئا واحدا.⁷²²

⁷²² ينظر: الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، نعمة الله بن محمود النخجواني / (92/1).

5. الفصل الثالث: البديع

لغة:

هو شيء جديد لم يسبق له مثيل.

اصطلاحاً:

قال الآمدي: " قد يأتي في الشعر ثلاثة أنواع آخر، يكتسي المعنى العامّ بها بهاء وحسناً، حتى يخرج بعد عمومته إلى أن

يصير مخصوصاً ثم قال: وهذه الأنواع هي التي وقع عليها اسم البديع، وهي الاستعارة والطباق والتجنيس".⁷²³

"فهو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية مطابقة الكلام لمقتضى الحال ورعاية وضوح الدلالة".⁷²⁴

ودرج علماء البلاغة على تقسيم المحسنات التي يزين بها الكلام على نوعين:

- المحسنات المعنوية: وهي التي يكون التجميل فيها عائداً إلى المعنى أولاً ذاتاً، ويتبعه تحسين اللفظ ثانياً عرضاً.

- المحسنات اللفظية: وهي التي يكون وجه الحسن والجمال راجعاً فيها إلى اللفظ أولاً بالذات، ويتبعه تحسين المعنى ثانياً

عرضاً، (كالجناس والسجع والقلب).⁷²⁵

وخير ضابط يعين على التفريق بين النوعين أن نستبدل باللفظ المستخدم مرادفه، فإن زال الحسن دلّ على أن المحسن

متعلق باللفظ فهو من النوع الثاني، وإن بقي المحسن على ما كان عليه قبل التغيير كان الحسن متحرراً عن اللفظ وراجعاً

إلى المعنى.⁷²⁶

وقسم علماء البلاغة البديع إلى قسمين محسنات (معنوية، لفظية)، وسيكون حديثنا في المحسنات المعنوية وعلى وجه

الخصوص الطباق.

⁷²³ أسرار البلاغة في علم البيان، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي، الجرجاني الدار (المتوفى: 471 هـ)

المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ - 2001 م / 283.

⁷²⁴ عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي / 242.

⁷²⁵ ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ومختصر المعاني (ضمن شروح التلخيص) التفتازاني / (4 / 285).

⁷²⁶ ينظر: البديع في ضوء أساليب القرآن لاشين، عبد الفتاح، دار الفكر العربي، مصر، القاهرة 1999 م / 23.

الطباق:

" هو الجمع بين الشيء وضده في الكلام، وهو أن يجمع المتكلم في كلامه بين لفظين، يتنافى وجود معناه معاً في شيء واحد، في وقت واحد، بحيث، يجمع المتكلم في الكلام بين معنيين متقابلين، سواء أكان ذلك التقابل: تقابل الضدين، أو النقيضين، أو الإيجاب والسلب، أو التضاد⁷²⁷ وهو من المحسنات المعنوية في البديع.

الطباق: هو الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى، وهما قد يكونان اسمين - نحو: قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيَقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أو فعلين - نحو: قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ - وكقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا﴾ أو حرفين - نحو: قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أو مختلفين - نحو: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

والطباق ضربان: أحدهما طباق الإيجاب، وهو ما لم يختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً وكان أحدهما مخالفاً للآخر نحو قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمَلِكِ تَوَتَّى الْمَلِكِ مِنْ تَشَاءَ وَتَنْزَعُ الْمَلِكُ مِنْ تَشَاءَ وَتَعَزُّ مِنْ تَشَاءَ وَتَذَلُّ مِنْ تَشَاءَ﴾ ونحو: قوله تعالى ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ فيكون تقابل المعنيين وتخالفهما مما يزيد الكلام حسناً وطرافة. وثانيهما طباق السلب وهو ما اختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً بحيث يجمع بين فعلين من مصدر واحد، أحدهما مثبت والآخر منفي.⁷²⁸

1.5.1. المطلب 1: طباق الإيجاب

1.1.5. المنافيين

البقرة م 11

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾⁷²⁹

⁷²⁷ عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي/303.

⁷²⁸ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع/303.

⁷²⁹ البقرة 11.

1- سبب النزول:

أخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد قال: أربع آيات من أول البقرة نزلت في المؤمنين، وآيتان في الكافرين، وثلاث عشرة آية في المنافقين، أي من [8: 20] من سورة البقرة نزلت في المنافقين.⁷³⁰

2- الإعراب:

(وإذا): الواو: حرف عطف، إذا: اسم شرط غير جازم مبني على السكون في محل نصب مفعول فيه ظرف زمان، (قيل): فعل ماض مبني للمجهول مبني على الفتح، ونائب الفاعل ضمير مستتر هو. (هَئِمَّ): اللام: حرف جر، والهاء: ضمير متصل في محل جر، والجار والمجرور متعلقان بـ(قيل)، وجملة قيل في محل جر بالإضافة، (لا): حرف جازم. (تفسدوا): فعل مضارع مجزوم بحذف النون، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (في): حرف جر. (الأرض): اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور متعلقان بتفسدوا. (قالوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (إنما): إن: حرف مشبه بالفعل، ما: كفته عن العمل. (نحن) ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ. (مصلحون) خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والنون عوض عن التنوين.⁷³¹

3- التحليل:

هكذا ينافق المنافق حتى مع نفسه، فيرى أنه على طريق الحق، على حين أنه غارق في الضلال، والله سبحانه وتعالى يقول: (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا)⁷³² فلقد غلبت عليهم شقوتهم، ونظروا إلى أنفسهم في مرايا النفاق، فرأوا أنهم أحسن الناس حالا، وأكملهم كمالا.⁷³³

وهكذا تظهر لنا ملامح خصائص التعبير القرآني في وصف هؤلاء الناس وأصنافهم، التي تتجلى في قيام الكلمة مقام الخط واللون، إذ سرعان ما ترتسم الصور من خلال الكلمات ثم سرعان ما تنبض هذه الصور وكأنها تموج بالحياة، ففي

⁷³⁰ ينظر أسباب النزول المسمى "لباب القول في أسباب النزول" لجلال الدين السيوطي/11.

⁷³¹ إعراب القرآن الكريم لأحمد عبيد الدعاس/ (11/1). ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (51/1).

⁷³² فاطر 8.

⁷³³ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (33/1).

عدد قليل من الكلمات والعبارات في أول سورة البقرة ترتسم ثلاث صور لثلاثة أنماط من النفوس، حتى ما تكاد البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها تخرج عن تلك الأنماط الثلاثة، وهي مجموعة المؤمن الموقن، الكافر الجاحد المكذب، والمنافق المستتر المشكك، وهذا هو الإعجاز.⁷³⁴

كل نخط منها نموذج حي لمجموعات ضخمة من البشر. نموذج أصيل عميق متكرر في كل زمان ومكان. إنهم لا يقفون عند حد الكذب والخداع، بل يضيفون اليهما السفه والادعاء: (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض) لم يكتفوا بأن ينفوا عن أنفسهم الإفساد، بل تجاوزوه إلى التبجح والتبرير بأن ادّعوا أنهم المصلحون، والذين يفسدون أشنع الفساد، ويقولون: إنهم مصلحون، كثيرون جدا في كل زمان. يقولونها لأن الموازين مختلفة في أيديهم. ومتى اختل ميزان الإخلاص والتجرد في النفس اختلت سائر الموازين والقيم

والذين لا يخلصون سريرتهم لله يتعذر أن يشعروا بفساد أعمالهم، لأن ميزان الخير والشر والصالح والفساد في نفوسهم يتأرجح مع الأهواء الذاتية، ولا يثوب إلى قاعدة ربانية فيعقب الله تعالى بالتعقيب الحاسم بالآية التي بعدها، بأنهم هم المفسدون، ولكن لا يشعرون.⁷³⁵

بسبب تكذيبهم الرسول وإخباره بأنه مرسل من الله وأن القرآن وحي الله إلى الرسول، فمادة التفعيل للنسبة إلى الكذب مثل التعديل والتجريح وعلى كذبهم العام في قولهم: إنما نحن مصلحون في البقرة آية 11، فالمقصود كذبهم في إظهار الإيمان وفي جعل أنفسهم المصلحين دون المؤمنين، والكذب ضد الصدق، كقوله تعالى: ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب.

وفي الجملة إخبار عن بعض عجيب أحوالهم، ومن تلك الأحوال أنهم قالوا إنما نحن مصلحون في حين أنهم مفسدون فيكون معطوفا على أقرب الجمل الملازمة لأحوالهم، وهي جملة في قلوبهم مرض من الآية 10 بسورة البقرة، وإن كان ذلك آثلا في المعنى إلى كونه معطوفا على الصلة في قوله: من يقول آمنا بالله من آية 8 بسورة البقرة.

⁷³⁴ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (1/37-38).

⁷³⁵ ينظر: ظلال القرآن لسيد قطب/ (1/44).

و (إذا) هنا مجرد الظرفية وليست متضمنة معنى الشرط كما أنها هنا للماضي وليست للمستقبل وذلك كثير فيها كقوله

تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾⁷³⁶

ومن نكت القرآن المغفول عنها تقييد هذا الفعل بالظرف فإن الذي يتبادر إلى الذهن أن محل المذمة هو أنهم يقولون إنما نحن مصلحون مع كونهم مفسدين، ولكن عند التأمل يظهر أن هذا القول يكون قائلوه أجدر بالمذمة حين يقولونه في جواب من يقول لهم لا تفسدوا في الأرض فإن هذا الجواب الصادر من المفسدين لا ينشأ إلا عن مرض القلب وأفن الرأي، لأن شأن الفساد أن لا يخفى ولئن خفي فالتصميم عليه واعتقاد أنه صلاح بعد الإيقاظ إليه والموعظة إفراط في الغباوة أو المكابرة وجهل فوق جهل، وهذا هو الذي اقتضى تقديم الظرف على جملة قالوا لأنه أهم وهو محل التعجب من حالهم، ونكت الإعجاز بالقرآن لا تتناهى. فردهم بوزن مطابق لوزن ما نھوا عنه فيه نوع من السخرية والاستهزاء بالمخاطب، كأن يقال لشخص لا تشتم العلماء فيقول بل أنا أمدحهم ساخراً، فاستخدموا الطباق؛ طباق الإيجاب، بالجمع بين المصلح والمفسد، فهو من باب تقابل الضدين.⁷³⁷

2.5. المطلب 2: طباق السلب

1.2.5. المشركين

الأنفال م 21

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾⁷³⁸

1- فيمن نزلت:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين بالله ورسوله من أصحاب نبي الله ﷺ: لا تكونوا، أيها المؤمنون، في مخالفة رسول الله ﷺ، كالمشركين الذين إذا سمعوا كتاب الله يتلى عليهم قالوا: "قد سمعنا"، بأذاننا "وهم لا يسمعون"، أي وهم لا يعتبرون بما

⁷³⁶ آل عمران 152.

⁷³⁷ ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي/ (46/1). معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي/ (66/1)، والتحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (283/1).

⁷³⁸ الأنفال 21.

يسمعون بأذانهم، ولا ينتفعون به لإعراضهم عنه، وتركهم أن يُوعَّوه قلوبهم ويتدبروه. فجعلهم الله بمنزلة من لم يسمعها، إذ لم ينتفعوا بمواعظ القرآن وإن كانوا قد سمعوها بأذانهم.⁷³⁹

2- الإعراب:

الكاف في موضع نصب على الظرف وخبر كان يكون سمعنا بمعنى قبلنا كما يقال: سمع الله لمن حمده، ويكون من سماع الأذن، ويكون بمعنى وهم لا يتدبرون، لا يشعرون، فلما كانوا لم يفهموا فهم بمنزلة من لم يسمع.⁷⁴⁰

(لا): حرف جزم ونهي (تكونوا): فعل مضارع ناقص مجزوم بحذف النون، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع اسم تكون. (كالذين): الكاف: اسم مبني على الفتح في محل نصب اسم يكونوا. الذين: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر مضاف إليه. (قالوا): فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (سمعنا): فعل ماض مبني على السكون، نا: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (وهم): الواو: للحال والاقتران، هم: ضمير منفصل مبني في محل رفع مبتدأ. (لا): حرف نفي. (يسمعون): فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، الواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل.⁷⁴¹

3- التحليل:

تعارض قولهم بأفواههم وقولهم في قلوبهم فتصور لنا شكل جميل بديع في الجمع بين قولي الكافر الكاذب في قوله والمتناقض في كلامه فقوله إنه سمع، ولكنه لم يسمع ولا يريد أن يسمع وإلا لو أنه سمع حقا بقلب خاشع وأذن سامعة وبصيرة متفتحة لوعى ما يقال له ولفهم ما يدعونه له ولقبلته فطرته الكامنة في قلبه والتي جبله الله عليها. والآية بعد النظر في تفاسير عدة منها معاني الفراء ومجاز القرآن لمعمر بن المثنى، وغريب القرآن لابن قتيبة، تفسير التستري، ولم أجد فيهم أي إشارة أو شرح للآية المدروسة.

⁷³⁹ ينظر جامع البيان في تأويل القرآن للطبري / (458/13).

⁷⁴⁰ إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس / (94/2).

⁷⁴¹ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي / (195/9).

يحذر المؤمنين أن يتشبهوا بالكفار والمنافقين من الذين يسمعون بآذانهم، ولكنهم لا يسمعون، أي لا يسمعون بوعيههم وقلوبهم وفهمهم، لأنهم لا يستجيبون وينتهي الدرس بندايات متكررة للذين آمنوا. ليستجيبوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحییهم وما ينفعهم في الدنيا والآخرة.⁷⁴²

وقد لا يكون تحذيرا للمؤمنين من الوقوع في ذلك، فجملة "وهم لا يسمعون" أي لا ينتفعون بما سمعوه، فالمعنى هو معنى السمع الذي أرادوه بقولهم: سمعنا وهو إيهامهم أنهم مطيعون، فالواو في قوله: وهم لا يسمعون واو الحال. وتقديم المسند إليه على المسند الفعلي للاهتمام به ليتقرر مفهومه في ذهن السامع فيرسخ اتصافه بمفهوم المسند، وهو انتفاء السمع عنهم، على أن المقصود الأهم من قوله: ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون هو التعريض بأهل هذه الصلة من الكافرين أو المنافقين لا خشية وقوع المؤمنين في مثل ذلك.⁷⁴³

هنا صيغ فعل "لا يسمعون" بصيغة المضارع لإفادة أنهم مستمررون على عدم السمع فلذلك لم يقل وهم لم يسمعوا، لإفادة الاستمرارية والديمومة في غشاوتهم وعميهم عن الحق ووعيههم لما يسمعون بآذانهم، فكان طباق السلب بين يسمعون ولا يسمعون. مع أنهم ليس من قولهم الظاهر، أي ليس كلا القولين لهما ظاهرا، ولكن هو مقاهم ظاهرا مع جمعه بالباطن، فمقال حالهم هو الجمع بين السمع وعدم السمع وبين الفعل وضده المنفي بحرف نفي "ما" فصور لنا حالهم كالقائل سمعت وما سمعت. فقولهم بأفواههم سمعنا، وقولهم بأفعالهم ما سمعنا ولا فهمنا.⁷⁴⁴

ومن شاكلتها قول الله سبحانه وتعالى في ذم المنافقين: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾⁷⁴⁵

فمن لم يوافق قوله بلسانه قوله بجوارحه دل ذلك على احتمال كبير لكذب لسانه ومخالفة قلبه للسانه، فليحذر من التلبس بالنفاق أو صفة من صفات الكفار الذين لم يؤمنوا لأن من علم لزم، كم اقال قول عبيد بن عمير: ليس الإيمان

⁷⁴² ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب/ (1472/3).

⁷⁴³ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (304/9).

⁷⁴⁴ ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، شهاب الدين الألوسي (369/8). والتحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور/ (305/9).

⁷⁴⁵ آل عمران 167.

بالتمني، ولكن الإيمان قول يفعل، وعمل يعمل.⁷⁴⁶ فمن أساليبهم المستخدمة في الكذب، والتي فيها بديع ولو ضمنيا الطباق، وطباق السلب منه خاصة.

2.2.5. المنافقين

البقرة م 8

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾⁷⁴⁷

1- سبب النزول:

نزلت في المنافقين، وأخرج الفريابي وابن جرير عن مجاهد أن الثلاث عشر آية من سورة البقرة قد نزلت في المنافقين.⁷⁴⁸

2- الإعراب:

(يقول): فعل مضارع مرفوع بالضمة، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو. (آمنا): فعل ماض مبني على السكون، نا: ضمير متصل في محل رفع فاعل. (بالله): الباء: حرف جر، الله: لفظ الجلالة اسم مجرور، والجار والمجرور متعلقان بآمنّا. (وباليوم): الواو: حرف عطف، الباء: حرف جر، اليوم: اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور معطوفان ولا يعلقان. (الآخر): صفة مجرور بالكسرة. (وما): الواو: للحال والافتزان، ما: حرف مشبه بالفعل الناقص. (هم): ضمير منفصل

⁷⁴⁶ فتح الباري شرح صحيح البخاري، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (ت: 795هـ) تحقيق: 1 - محمود بن شعبان بن عبد المقصود، مجدي بن عبد الخالق الشافعي ومجموعة من تحقيقين الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية. مكتب تحقيق دار الحرمين - القاهرة، الطبعة: 1، 1417هـ - 1996م / (6/1) وينظر: الإبانة الكبرى لابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان الغُكُزِّي المعروف بابن بطة العكبري (ت: 387هـ) تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض عدد الأجزاء: 9، الطبعة: الثانية، 1415هـ - 1994م / (804/2).

⁷⁴⁷ البقرة 8.

⁷⁴⁸ ينظر أسباب النزول المسمى " لباب التّقول في أسباب التّزول " لجلال الدين السيوطي/11.

في محلّ رفع اسم ما. (بمؤمنين): الباء: حرف جرّ زائد، مؤمنين: اسم مجرور لفظاً منصوب محلاً خبر ما، وعلامة الجرّ الياء لأنه جمع مذكر سالم.⁷⁴⁹

3- التحليل:

آفة الكافرين في كفرهم موزعة بين أجهزة ثلاثة في كيافهم، هي القلب، والسمع، والبصر فقلوبهم معلقة عن الخير، وأسماعهم نائية عن الحق، وأبصارهم قليلة عن الهدى.

أما المنافقون فإن آفة نفاقهم في القلوب وحدها، حيث قد سمعوا الحق ووعوه، وأبصروا الهدى واستيقنوه، ولكن حين ينفذ هذا كله إلى موطن الإيمان من قلوبهم، يصادف قلوباً مريضة، موسوسة ومرتابة، لا تقبل الحق والخير، وإن قبلتهما فإنها سرعان ما تلفظهما، كما يلفظ المريض طيب الطعام، فزادهم الله مرضاً فوق مرض قلوبهم، فالفاء للتفريع في: "فزادهم الله مرضاً" والجملة التي بعدها دعائية أي بمعنى أن هؤلاء المنافقين بسبب ما استبطنوا من نفاق ومرض نفوس لا يرجى شفاؤه فاستحقوا أن يدعى عليهم بأن يزيد قلوبهم مرضاً.⁷⁵⁰

ويجوز في الناس أن يكون أصله "أناس" أسقطت الهمزة منها لكثرة الكلام بها، ثم دخلتها الألف واللام المعرفتان، فأدغمت اللام - التي دخلت مع الألف فيها للتعريف - في النون، كما قيل في (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي)⁷⁵¹، على ما قد بينا في "اسم الله" الذي هو الله. وقد زعم بعضهم أن "الناس" لغة غير "أناس"، وأنه سمع العرب تصغرهُ "نؤيس" من الناس، وأن الأصل لو كان أناس لقليل في التصغير: أنيس، فُرِدَّ إلى أصله.

وأجمع جميع أهل التأويل على أنّ هذه الآية نزلت في قوم من أهل التّفاق، وأن هذه الصّفة صِفَتُهُم.

ذكر الله تعالى المؤمنين الذين أخلصوا دينهم لله تعالى وواطأت فيه قلوبهم أَلَسْتَهُم، وثنى بأضدادهم الذين محضوا الكفر ظاهراً وباطناً ولم يلتفتوا لفتة رأساً، ولم يتركوا كفرهم وعتوهم، وثلث بالقسم الثالث المذبذب بين القسمين، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلاً للتقسيم، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله لأنهم موهوا الكفر وخلطوا به خداعاً

⁷⁴⁹ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (45/1).

⁷⁵⁰ ينظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (32/1).

⁷⁵¹ الكهف 38.

واستهزاءً، ولذلك طول في بيان خبثهم وجهلهم وعرف بهم، وضرب لهم الأمثال، والناس أصله أناس لقولهم: إنسان وأنس وأناسي فحذفت الهمزة حذفها في لوقة وعوض عنها حرف التعريف ولذلك لا يكاد يُجمع بينهما.⁷⁵²

وبعد هذا التقسيم تظهر لنا ثلاث فرق متباينة وأخطرهم هو الفريق الأخير، فهذا فريق له ظاهر الإيمان وباطنه الكفر وهو لا يعدو أن يكون مبطناً للشرك أو مبطناً التمسك باليهودية ويجمعه كله إظهار الإيمان كذباً، فالواو لعطف طائفة من الجمل على طائفة مسوق كل منهما لغرض جمعتهما في الذكر المناسبة بين الغرضين فلا يتطلب في مثله إلا المناسبة بين الغرضين لا المناسبة بين كل جملة وأخرى من كلا الغرضين، على ما حققه التفتازاني في شرح الكشاف، أنه أصل عظيم في باب العطف لم ينتبه له كثيرون فأشكل عليهم الأمر في مواضع شتى وأصله مأخوذ من قول الكشاف: (وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا في سورة البقرة آية 6 كما تعطف الجملة على الجملة) فأفاد بالتشبيه أن ذلك ليس من عطف الجملة على الجملة. وهذا ما أهمله السكاكي وانتبه له الزمخشري كما ذكر بعض المحققين.⁷⁵³

واعلم أن الآيات السابقة لما انتقل فيها من الثناء على القرآن بذكر المهتدين به بنوعيه الذين يؤمنون بالغيب والذين يؤمنون بما أنزل إليك إلى آخر ما تقدم، وانتقل من الثناء عليهم إلى ذكر أضدادهم وهم الكافرون الذين أريد بهم الكافرون صراحة وهم المشركون، كان السامع قد ظن أن الذين أظهروا الإيمان داخلون في قوله الذين يؤمنون بالغيب كما في الآية 3 من سورة البقرة، فلم يكن السامع سائلاً عن قسم آخر وهم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الشرك أو غيره وهم المنافقون الذين هم المراد هنا بدليل قوله: وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا في الآية 14 من سورة البقرة، لأنه لغرابته وندرة وصفه بحيث لا يخطر بالبال وجوده ناسب أن يذكر أمره للسامعين، ولذلك جاء بهذه الجملة معطوفة بالواو إذ ليست الجملة المتقدمة مقتضية لها ولا مثيرة لمدلولها في نفوس السامعين، بخلاف جملة: إن الذين كفروا سواء عليهم؛ من الآية 6 سورة البقرة حيث ترك عطفها على التي قبلها لأن ذكر مضمونها بعد المؤمنين كان مترقياً للسامع، فكان السامع كالسائل عنه فجاء الفصل للاستئناف البياني، والتخصيص بـ "الناس" هو من باب التشويق وتبنيه السامع على أمر عجيب سيذكر، وتشويقاً لمعرفة ما سيتم الإخبار عنه، فيقدم الخبر للفت انتباه السامع.⁷⁵⁴

⁷⁵² ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي / (43/1).

⁷⁵³ ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري / (104/1).

⁷⁵⁴ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (260/1).

فبعد أن رأينا الصورة الأولى للبشر في شفافيته وسماحتها، والثانية في عتامتها وصفافتها، فننتقل مع السياق إلى الصورة الثالثة والتي تتلوى في الحس. وتروغ من البصر، وتخفى وتبين إنها صورة المنافقين، لقد كانت هذه صورة واقعة في المدينة المنورة، ولكننا حين نتجاوز نطاق الزمان والمكان نجدها نموذجاً متكرراً في أجيال البشرية جمعاء، حيث نجد هذا النوع من المنافقين من عليّة الناس، من الذين لا يجدون في أنفسهم الشجاعة لمواجهة الحق بالإيمان الصريح، أو يجدون في نفوسهم الجرأة لمواجهة الحق بالإنكار الصريح. وهم في الوقت ذاته يتخذون لأنفسهم مكان المترفع على جماهير الناس، فهذا الإخبار موجه إلى هذا الفريق من المنافقين في كل جيل. وإلى صميم النفس الإنسانية الثابت في كل جيل، إنهم يدعون الإيمان بالله واليوم الآخر.⁷⁵⁵ وهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين، فمن السياق نفهم أنهم يُسألون هل أنتم مؤمنون؟ فيجيبون نحن مؤمنون ولكنهم غير مؤمنين، في طباق السلب، أي جمع الكلمة ونفيها بحرف نفي والذي هو هنا حرف " ما " فجمعوا في خطابهم وكذبهم نفس كلمة السؤال هل أنتم مؤمنون فقالوا نحن مؤمنون ولكن باطنهم يخبرنا عنه الله تعالى وماهم بمؤمنين فهنا تصوير الآية كما لو أنهم يقولون - لما تجمع بين ظاهرهم وباطنهم - الظاهر يقول نحن مؤمنون والباطن يقول ما نحن بمؤمنين، وهذا في الحقيقة تصوير جمالي معجز من الله تعالى وليس من خطاب المنافق نفسه بل تصوير القرآن لخطابهم الكاذب والجمع بين ظاهرهم وباطنهم وبين قولهم بأفواههم وقولهم بقلوبهم نتج لنا هذا الأسلوب البديعي المتمثل في طباق السلب، بين: آمنت بالله/ ما آمنت بالله.

3.5.3. المطلب 3: التورية

التورية: لغة - مصدر ورّيت الخبر تورية: إذا سترته، وأظهرت غيره.

واصطلاحاً: التورية أن يطلق لفظ له معنيان، أحدهما قريب غير مراد، والآخر بعيد هو المراد، ويدل عليه بقرينة يغلب أن تكون خفية لا يدركها إلا الفطن، فهي أن يذكر المتكلم لفظاً مفرداً له معنيان، أحدهما قريب غير مقصود ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد مقصود، ودلالة اللفظ عليه خفية، فيتوهم السامع: أنه يريد المعنى القريب، وهو إنما يريد

⁷⁵⁵ ينظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن، البغوي/ (67/1). الدر المنثور، جلال الدين السيوطي/ (98/1). في ظلال القرآن لسيد قطب/ (42/1).

756 ما جرحتم بالنهار) أراد بقوله جرحتم معناه البعيد، وهو ارتكاب الذنوب، ولأجل هذا سميت التوراة إيهاماً، وتخبيلاً.⁷⁵⁶

1.3.5. اليهود

النساء م 46

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْتَ بِالْسِتَةِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾⁷⁵⁷

-1 فيمن نزلت:

وهم اليهود الذين وصفَ الله صفتهم في قوله: "ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب"، وعن مجاهد في قوله: "يخرفون الكلم عن مواضعه"، تبديل اليهود التوراة. ويعني بذلك جل ثناؤه: من الذين هادوا يقولون: سمعنا، يا محمد، قولك، وعصينا أمرك.⁷⁵⁸

وعصينا أمرك.⁷⁵⁸

-2 الإعراب:

إن شئت جعلتها متصلة بقوله (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ، مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ) وإن شئت كانت، منقطعة منها مستأنفة، والمعنى: من الذين هادوا من يحرفون الكلم. وذلك من كلام العرب: أن يضمروا (من) في مبتدأ الكلام، فيقولون: منا يقول ذلك، ومنا لا يقول. فمن بعض ما هي منه، فلذلك تؤدي المعنى المتروك.⁷⁵⁹

في مبتدأ الكلام، فيقولون: منا يقول ذلك، ومنا لا يقوله. فمن بعض لما هيّ منه، فلذلك تؤدي المعنى المتروك.⁷⁵⁹

((يقولون): فعل مضارع مرفوع بثبوت النون، والواو: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (سمعنا): فعل ماض مبني على السكون، نا: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل. (وَعَصَيْنَا): الواو: حرف عطف. عصينا: فعل ماض مبني على السكون، نا: ضمير متصل مبني في محل رفع فاعل والجملتان مقول القول. (وَأَسْمَعُ) فعل أمر مبني على السكون، والجملة

756 ينظر: عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي / 301.

757 النساء 46.

⁷⁵⁸ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري / (432/8).

759 ينظر: معاني القرآن، للفراء / (271/1).

معطوفة على سمعنا (عَزَّ): حال منصوبة بالفتحة. (ثُمَّ سَمِعَ): مضاف إليه مجرور بالكسرة. (وَرَاعِنَا): الواو: حرف عطف، راعنا: فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت، نا: ضمير متصل مبني في محل نصب مفعول به، والجملة معطوفة على اسمع. (لَيْتَا): حال منصوبة بالفتحة. (بِأَلْسِنَتِهِمْ): الباء: حرف جر، ألسنتهم: اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور متعلقان بلياً، والهاء: ضمير متصل مبني في محل جر مضاف إليه (وَطَعْنَا): اسم معطوف على لياً منصوب بالفتحة. (فِي): حرف جر. (الدين): اسم مجرور بالكسرة، والجار والمجرور متعلقان بطعن.⁷⁶⁰

3- التحليل:

وهذا خبر من الله جل ثناؤه عن اليهود الذين كانوا حواري مهاجر رسول الله ﷺ في عصره: أنهم كانوا يسبون رسول الله ﷺ ويؤذونه بالقبيح من القول، ويقولون له: اسمع منا غير مسمع، كقول القائل للرجل يسبُّه: "اسمع، لا أسمعك الله"، أو بمعنى "اسمع لا سمعت"، أذنى لرسول الله ﷺ، وشتماً له واستهزاءً، كذلك وقد سمعنا، ولكن لا نطيعك.⁷⁶¹

نجد نموذجاً في الدرس الذي نتعلمه من الآيات نموذجاً مثالياً لرفعة الإسلام وحسن معاملته لليهودي فرد في المجتمع الإسلامي، مع ما في السورة من دروس في المعركة الخارجية مع المشركين والمعركة الداخلية مع المنافقين، وطبيعة التوافق والتكامل، بين المعركة الداخلية والمعركة الخارجية في حياة المجتمع الإسلامي الأول، وهي هي بذاتها معركة الأمة المسلمة اليوم وغداً، في أساسها وحقيقتها وطبيعتها.

إنه التعجب الأول، من بين التعجيبات الكثيرة من موقف أهل الكتاب، عموماً ومن اليهود خاصة، يوجه الخطاب فيه إلى الرسول ﷺ، أو إلى كل من يرى هذا الموقف العجيب المستنكر والمستقبح في التعامل مع نبي الله ﷺ، فبعد أن اختاروا الضلالة بدل الهدى الذي جاءهم به ويعلمونه في كتبهم، فلا يتوقفون عند هذا الحد من الضلال وفقط، بل يريدون أن يضلوا غيرهم من المهتدين ويلبسوا على المتبعين للنبي الذين آمنوا، بشتى الطرق والوسائل، وفي الآيات تنبيه للمسلمين وتحذير لهم من ألاعيب اليهود وخبثهم وسوء تعاملهم وتديبرهم وتخطيطهم، فيصف حالهم وتصرفاتهم وسوء أدبهم مع الرسول، أن يقولوا له: سمعنا يا محمد ما تقول ولكننا عصينا! فلا نؤمن ولا نتبع ولا نطيع، ويقولون: اسمع، غير

⁷⁶⁰ إعراب القرآن الكريم، لأحمد عبيد الدعاس/ (199/1).

⁷⁶¹ ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري/ (433/8).

مسمع، وراعنا - ففي ظاهر اللفظ أنهم يقولون: اسمع، غير مأمور بالسمع فهي صيغة تأدب في الأصل وفي المعنى القريب الموضوعة له اللفظة وما يفهمه عموم الناس، وراعنا: أي انظر إلينا نظرة رعاية لحالنا أو نظرة اهتمام لوضعنا؛ فيما أنهم أهل كتاب، فلا ينبغي أن يُدعوا إلى الإسلام كالمشركين، فيظهرون في ظاهر كلامهم أنهم يطلبون الرفق والمعاملة الخاصة لهم بصفقتهم أهل كتاب وليس كغيرهم من المشركين، أما في اللَّيِّ الذي يلوونه بالسنتهم والتورية التي يوارون خلفها المعنى البعيد الذي يقصدونه في الأصل فهي غير ما يظهر من كلامهم وخطابهم المشؤوم عليهم، فهم يقصدون اسمع - لا سمعت، ولا كنت سامعا - (أخزاهم الله)، وراعنا يميلوننا إلى وصف الرعونة، أو إلى صفة الرعي مع بقاء النسبة؛ كأنهم يقولون يا راعي الغنم تَهَكِّمًا وسخرية من النبي ﷺ واستهتارًا بعمله في صغره في رعي الغنم فيطلقون عليه صفة الراعي إلى يرعى غنمهم ويعمل أجيرا عندهم، وهكذا تبجح وسوء أدب، والتواء ومداهنة، وتحريف للكلم عن مواضعه وعن معانيه، وسب وانتقاص من الحضرة المحمدية ﷺ وتكذيب له، وهو يدعوهم لخيرهم ويدلهم على خيري الدنيا والآخرة، ومُشفق عليهم مما ينتظرهم من عذاب، وهم يعلمون صدقه وصدق رسالته وبشارة قدومه بين أيديهم في كتبهم.⁷⁶²

يقولون للنبيِّ بأفواههم: (سمعنا) ويقولون بقلوبهم عصينا.⁷⁶³ ﴿لَيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ قال قتادة: اللَّيُّ هو تحريك ألسنتهم بذلك، أي تلفظهم به، وقال ابن قتيبة معنى (لياً بألسنتهم) أي أنهم يحرفون (راعنا) عن طريق المراعاة، والانتظار إلى معنى السَّبِّ والرعونة.⁷⁶⁴

ومن تبعية، وهي خبر لمبتدأ محذوف دلت عليه صفته وهي جملة يحرفون والتقدير: قوم يحرفون الكلم، وحذف المبتدئ في مثل هذا شائع في كلام العرب اجتزاء بالصفة عن الموصوف وذلك إذا كان المبتدأ موصوفاً بجملة أو ظرف، وكان بعض اسم مجرور بحرف من، وذلك الاسم مقدم على المبتدأ، ومن كلمات العرب الماثورة قولهم: (منا ظعن ومنا أقام) أي منا فريق ظعن ومنا فريق أقام. ومنه قول ذي الرمة:

فظلوا ومنهم دمه غلب له... وآخر يذري دمه العين بالهمل

⁷⁶² ينظر: في ظلال القرآن لسيد قطب/ (676/2) بتصرف.

⁷⁶³ ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي/ (241/5)، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي/ (244/2 - 245). والتفسير

القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب/ (806/3).

⁷⁶⁴ ينظر: زاد المسير، للجوزي/ (416/1).

أي ومنهم فريق، بدليل قوله في العطف وآخر، ومعنى اسمع غير مسمع أنهم يقولون للرسول ﷺ عند مراجعته في أمر الإسلام اسمع منا، ويعقبون ذلك بقولهم: غير مسمع يوهمون أنهم قصدوا الظاهر المتبادر من قولهم: غير مسمع، أي غير مأمور بأن تسمع، في معنى قول العرب: (افعل غير مأمور)، فلعل العرب كانوا يقولون: أسمع به معنى سبه، والحاصل أن هذه الكلمة كانت معروفة الإطلاق بين العرب في معنى الكرامة والتلطف في ظاهر معناها لكن معناها البعيد هو سب وقلة أدب.⁷⁶⁵

فمن توريتهم على قصدهم السيء وقلة أدبهم مع النبي ﷺ وكذبهم عليه ووصفهم إياه كذبا بأنه راعٍ لغنمهم، استخدموا عبارات ذات معنى قريب جيد ومؤدب، ولكن معناها البعيد والمقصود كان ببالح سوء والوقاحة، والكذب بالقول، وتكذيب دعوة النبي ﷺ، طعنا في الدين وتشويهه ولينا بألسنتهم المسمومة.

وهذا خاص باليهود دون غيرهم من الأمم لاشتغالهم بالتلاعب والتحايل في الكلام والعبارات كما كانوا من قبل مع سيدنا موسى حين قيل لهم ادخلوا الباب سجدا فدخلوا بالعكس، وقيل لهم قولوا " حطّة " لتغفر لهم خطاياهم فقالوا " حنطة " فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم بغيهم وسوء أدبهم مع الله وأنبيائه كما بين ذلك في سورة البقرة: 58 وسورة الأعراف: 161 ووصفهم بالظلم والفسق.

⁷⁶⁵ ينظر: التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور / (74/5).

6. الخاتمة والنتائج

ظهر لنا في سورة الزخرف آية 7، أبرز صفات المكذبين وهي: الاستهزاء والسخرية من المؤمنين.

السؤال الانكاري يتكرر كثيرا ويظهر لنا ذلك جليا في الآية 94 من سورة الإسراء، ففي هذا التساؤل رد وتكذيب، كأنهم ينكرون ارسال البشر بالرسالة أو أنهم اعتادوا على أن يكون الرسول ملكا فأنكروا رسولهم البشر والآيات قبلها من 90 الى 93 ينكرون نبوته ويشترطون عليه شروطا ليست بحق، ولكن جعلوها كأنها لازمة للرسالة تكديبا وافتراء وكذبا على الله.

تجلت لنا مكانة انتقاء الألفاظ في البلاغة والأدب. والحق الذي لا مرأ فيه أن اختيار اللفظة ووضعها في موضعها حسب المقام ومقتضى الحال تلك موهبة لا تنال بالمراس وحده، وملكة لا يؤتاها إلا القليل من الناس. لا سيما ونحن أمام لغة كثرت مفرداتها المترادفة ولكل منها مقام يحدده الذوق وملكة أدبية لا تخضع لقياس. ولا توزن بميزان ولعل كثرة الاطلاع وتعهده النماذج الأدبية الرفيعة بالقراءة، وكثرة المداولة مما ينمي هذه الملكة ويهذبها حتى تكتمل أو تدنو من الكمال، وهي في القرآن الكريم في أعلى مرتبة من حسن الانتقاء وملكة الاختيار.⁷⁶⁶

وجدنا أن قسم المعاني أكبر من قسمي البيان والبديع، أي أن الكاذب لا يحتاج لخيال واسع أو فكر ثاقب أو أسلوب عميق لكي يطلق كذبه، أو يُنكر ويُكذّب، وخاصة التكذيب فهو فيه نفي الخبر أو رد الرسالة ببساطة بالتكذيب وعدم التصديق وتلفيق أي تهمة للمخاطب، أو بطلب معجزات وشروط.

أما التصور البياني والفكر الواسع وتركيب صورة بصور فهو ليس من مميزات المكذّب وليس له متسع من الوقت لكي يلجّن القول أو يحسن تلوين الكلام بمحسنات بدعية، فمقام الحال يحتاج لردّ الدعوة بأي تهمة أو كذبة مهما كانت، فالملتبس يتعب في إثبات دعوته أما النافي فهو يكتفي بمجرد النفي والإنكار.

ووصلنا إلى أنهم يعتمدون على شبه قوالٍ جاهزة يستخدمونها مباشرة وكأنهم يتوارثونها أبا عن جد، (الاعتماد على قوالٍ مباشرة وجاهزة للجواب والتكذيب) أما الكذب فقد يحتاج أحيانا على جهد في التصور والترتيب للأفكار مع قتلها.

من بديع الكلام أن تسأل عن الجائز فتجيب بالمنوع لأن المنوع منحصر والمباح غير منحصر فحصل التصريح به، فحصر المنوع وترك المباح، وهذا أسلوب بالقرآن الكريم بديع نجده في الجواب والرد على الكفار وأسئلته.

كثرة استعمال أسلوب الاستفهام الانكاري، والقسم، والتأكيدات، وهذه من القواسم المشتركة بين جموع المكذبين.

في سورة الأنعام آية 146، يظهر لنا لكثرة كذب اليهود خاصة وعظم افتراءهم على الله الكذب وتماديهم في ذلك عبر في الآية الكريمة بأكثر من أداة تأكيد "إنا، واللام" ليؤكد صدق ما جاء به نبيه وما أنزله في كتابه فقال سبحانه وتعالى (وإننا لصادقون) وهذا لما كثر إعراضهم وتمادوا في تكذيبهم، وهذا يظهر حال المخاطب.

⁷⁶⁶ ينظر: الجدول في إعراب القرآن، صافي/ (20/ 269).

طائفتين قريبتين في طرقهما وأساليب تكذيبهما وتقاربهما، وهم اليهود وأهل النفاق، في طرق سخريتهم وانتقاصهم من مقام الأنبياء، والظعن في صدقهم، والتعالي والترفع أمام الحق بعد أن ظهر لهم وبان، وكثرة تلاعبهم بالكلام والألفاظ.

نجد أن أسلوب الكفار والمشركين عموماً يتميز بالتكرار والإعادة كأنه قالب أو مجموعة قوالب يستخدمها المكذب الكاذب ضد صاحب كل دعوة ليرد دعوته كأنهم توارثوها عن بعض كما قال تعالى: ﴿اتَّوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾، وتلك القوالب هي مجرد اتهامات وطلبات للتعجيز أو مقارنات أو افتراءات على الأنبياء، لكنها كلها ضربات وهجمات خارجية يعلم بطلانها من آمن واتباع تلك الدعوة ﴿اتَّوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ الذاريات: 53.

في حين أن أساليب المنافقين هي أساليب مختلفة عن سابقينهم، تعتمد على الغدر من الداخل والظعن في الأسس التي بني عليها ذلك الدين وظعن الدعوة وحاملها في القلب بادعاءات كاذبة كذلك لكنها توهم للغير أنها صحيحة لأن السامع يتهيأ له أن المنافق من داخل البيت وأدري بخباياه وأسراره لذلك قطعنا المناق أشد وقعا وظعنا للدين وتأثيرا على الكافر والمسلم على حد سواء كما قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ التوبة: 47.

تكرر الوعيد والإنذار للمكذبين في الآيات التي ذكر فيها قولهم وخطابهم ومن مثال ذلك تكرر الآية 15 من سورة المرسلات عشر مرات لتأكيد الوعيد للمكذبين والويل لهم.

وجدنا في الكثير من المواضع وصفا للمكذبين وأحوالهم، ومنها: (الأنعام 24 - الأعراف 37 - العنكبوت 68 - الروم 10 - لقمان 6 - السجدة 22 - الأحزاب 4 - الزمر 32 - الزمر 60 - الجاثية 7. 8. 9 - الصف 7) وهي على الترتيب تبين أنهم:

يكذبون حتى على أنفسهم ويضل عنهم افتراءهم، أنهم أظلم الناس، أظلم الناس من افتري على الله الكذب أو كذب بآياته، التكذيب والاستهزاء، اتخاذ الآيات هزواً، أظلم الناس وأجرمهم المكذب، قولهم بأفواههم مغاير للحقيقة، المكذب الكاذب أظلم الخلق، تسود وجوههم يوم القيامة لتكبرهم وكذبهم على الله، المكذب صفاته منها أنه أفاك أثيم، مصر على ذنبه مستكبر أمام آيات الله، مستهزئ بها إذا علم منها شيئاً، الظلم الحقيقي هو أن تفتري على الله الكذب.

فوردت لفظة أظلم بصيغة " أفعل" للمبالغة، تكررت كثيراً في وصف الكاذب المكذب في عدة مواضع منها المواضع المذكورة ووردت بهذه الصيغة " ومن أظلم ممن كذب" كثيراً لتبين عظم وشناعة ما وقع فيه المكذب بآيات الله.

الأسلوب المتبع كثيراً عند أسياد وأعيان الأقوام الكافرة هو أسلوب التهوين والاستخفاف بالنبي وتسفيه قوله ومن اتبعه والانتقاص منه ومن مقامه، مهما كان مهماً، ومن عليّة القوم لأن بتسفيه وتنزيل مرتبته الحقيقية، فبتقليل قيمة الشخص يقل متبعيه وتسقط هيئته ومنزلته بين الناس. وهذا الأسلوب مع الأسف كان قديماً هو أسلوب أهل الكفر لكننا نجده مستخدماً في زمننا هذا بين المسلمين فلطالما قام ناس بتسفيه عالم أو كبير في قومه حتى ينقصوا تأثيره الديني أو السياسي بين الناس فيتم رميه بالتهمة الكاذبة والافتراءات البينة للعاقل فتارة يرمونه بأنه سارق أو أنه فاسق أو كذاب أو أنه أكل أموال الناس أو أنه مبتدع أو أنه مشكوك في ولاءه أو إيمانه ولا تتوقف تلك التهم والإشاعات حتى يسقط العالم أو الرجل المهم في قومه أو قبيلته وتذهب هيئته ووزنه فبالكذب المتكرر والمستمر باتهامات لا أساس لها من الصحة ودون دليل يتم كسر شوكة الرجل وهيئته وقيمة علمه ونسبه بين قومه بمجرد كذبة أو فرية يتم النفخ فيها وتضخيمها من طرف

المخالفين فلا إنصاف ولا عدالة ولا حقيقة تهمهم سوى إسقاط الشخص وفض الناس من حوله. وخاصة إذا كان من سفهاء القوم فكم وقعه أليم على أهل الحق، لأن السفية الساقط المروءة، يجد في التناول على أهل الحكمة وأصحاب الشأن بين الناس فرصته، في الاستعلاء بنفسه، حين يكون هو ومن فوقه في منزلة سواء بالجدال والرد والاتهام والنقاش والجدال، وفي هذا يقول الشاعر "أبي الحسن الأخفش":

بلاء ليس يعد له بلاء... عداوة غير ذي حسب ودين

يبيعك منه عرضا لم يصنه... ليرتع منك في عرض مصون⁷⁶⁷

يتميز كذب المشرك بضعف الحجة وتكرر طلب البعث بعد الموت أو الإتيان بالآباء وبعثهم من القبور، وربط ذلك الطلب بكذب النبي فيما أن يأتيهم بأبائهم أو اعتبار ذلك دليلا على كذبه وهذا قمة الظلم وعدم الإنصاف لأن النبي أصلا لا يدعي أنه يفعل أي شيء من نفسه، بل ينسب كل ما يأتي به من دعوة وآيات ومعجزات إلى الله وحده ومع ذلك يقوم المكذب بوضع شرط خالٍ من التوازن والمنطقية حين يطلب من النبي أن يحيي موتاهم أو أنهم لن يصدقوا ادعاءاته ورسالته.

في هذا البحث وجدنا التورية والتي هي التلاعب بالكلام ومعانيه واستخدامه في غير ما وضع له بالوضع الأولي ومعناها القريب واستخدام معناه البعيد الذي يراد به السوء والطعن بالدين دون أن يفهمه غيرهم ليسخروا بالدين ويستهنؤوا بالنبي ﷺ، وهذا الأسلوب خاص باليهود دون غيرهم من الأمم، لتمييزهم بالسوء الفاحش والندالة الغارقة في آثامهم عبر الأزمان، لاشتهارهم بالتلاعب والتحايل في الكلام والعبارات كما كانوا من قبل مع سيدنا موسى، من قبل بعد أن أنجاهم الله من فرعون وقومه وملئه، و حين قيل لهم ادخلوا الباب سجدا فغيروا كلام الله ودخلوا بالعكس متوجيئين إلى الباب بظهورهم، وقيل لهم قولوا " حطّة " لتغفر لهم خطاياهم فقالوا " حنطة " فبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم بغيهم وسوء أدبهم مع الله وأنبيائه كما بين ذلك في سورة البقرة: 58 وسورة الأعراف: 161 وقد وصفهم بالظلم تارة والفسق تارة أخرى في الآية الثانية.

يتميز المنافقون عن غيرهم بصفات ترسخ فيهم وتميزهم لكثرة ظهورها فيهم وفي أسلوب خطابهم مع الله والرسل والأنبياء وهو ما يظهر جليا لنا في سورة التوبة:

- من مميزات المنافقين الحلف وكثرة القسم التوبة آية 56.

-الكذب والافتراء بقذف ورمي التهم على النبي ﷺ، كاتهامه بتكرار ما يقال له (أذن) لا غير للانتقاص من قيمته وقدره الآية 61.

-الإكثار والمبالغة في الحلف من صفات المنافقين لأجل إرضاء المؤمنين وتضليلهم، واستعطاف الخلق واستمالة عطفهم، وإظهار عكس ما يخفون وما يضمرون من غيظ وبغض وكره للمسلمين كما في الآية 62، والآية 95، و96.

-من سماتهم كذلك الاستهزاء، واللعب بدين الله والخوض في آياته باستهزاء واستهتار ويهوين سخريتهم بالدين بأنها مجرد مزاح لا غير مع علمهم أن لا مزاح بالدين وثوابت الإسلام الآية 65.

⁷⁶⁷ ينظر: كتاب شرح درة الغواص للشهاب الخفاجي/ 256.

-القسم من صفات المنافقين المتكررة، والنفي بالكذب والادعاء أنهم ما قالوا كلمة الكفر كذبا وبهتاناً وافتراء على الله الذي بين حقيقتهم وسرائرهم للنبي والمؤمنين الآية 74.

- كذلك من سمات المنافق إطلاق العهود والوعود الكاذبة، وتأكيدات واستخدام حروف التوكيد المختلفة في صيغة العهد للتظاهر بالإخلاص، لكن كل وعودهم كاذبة وماهي إلا ابتغاء مصالح دنيوية وعرض الحياة هذا في الآية 75.

-وفي الآية 77، يظهر الله حقيقتهم وحقيقة اخلاف وعودهم التي أطلقوها كذبا وخداعا، بجهلهم أنهم يتعاملون مع الأحد الصمد من لا يخدعه أحد، فهو عالم الغيب والشهادة ويعلم ما يخفون وما يكتُمون.

-وفي الآية 94، الاعتذار بالكذب لإرضاء المؤمنين والتظاهر كذبا بخلاف الباطن.

-وفي الآية 107، كذلك تظهر صفتهم في الحلف بالكذب، والتظاهر أنهم يريدون الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون فيؤكد كذبهم وزورهم.

-وفي الآية 124، تساؤل للسخرية والتهوين من أمر الوحي، استهزاءً وسخريةً منه.

-وفي الآية 127، سؤال انكاري وسخرية وانصراف، ويظهر كذلك من خلال لغة الجسد وحركاتهم معاني عدم الاهتمام بالانصراف، كتقليل شأنٍ منهم للرقابة الإلهية، وعدم اهتمام بالوحي.

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾
التوبة: 127.

بين القرآن الكريم جزاء الكاذبين وشنع عليهم فعلهم - ممن يكذبون على الله ويفترون على الله الكذب - ويظهر ذلك جليا في الآيتين 69 والآية 70 من سورة يونس، حيث ينتظرهم العذاب الشديد بكفرهم وافترائهم على الله الكذب فلا فلاح ولا نجاة لهم.

المؤمنون الآية 110 من حركات الكافر والمنافق السخرية والضحك على المؤمنين، الخطاب الإشاري أو لغة الجسد.

اشتمال القرآن على الإخبار بالغيبات وخلوه من التناقضات والاختلافات.

يحتوي القرآن الكريم أقوال ومواقف العباد الظاهرة والخفية، ويشتمل على أنواع العلوم المختلفة.

من مميزات الخطاب التكميلي الفرعوني كثرة انزياحاته عن الموضوعات فلا يلبث أن يغير صلب الموضوع والنقاش من البحث عن الرب إلى من أعطى الإذن للسحرة إلى من هو أغنى الناس ومن تجري تحته الأنهار فهو يحور الموضوعات لينسي من حوله أصل القضية ويلهيهم بنقاشات جديدة فهو ذكي ولغوي بامتياز، يحسن فن الخطابة والكذب والطعن في الطرف الآخر، ومن دلائل علمه بعلوم اللغة والخطاب تمييزه بين السؤال ب " ما " و " من " كما رأينا ذلك.

الشخصية الأكثر ورودا وذكرًا في البحث هي شخصية فرعون، وذلك لسببين الأول كثرة تعنته ورفضه لكل الآيات التي جاءت، والسبب الثاني كثرة ورود قصة سيدنا موسى عليه السلام وكلما ذكر النبي ذكر معه عدوه فكان أكثر مخاطب ذكر بالبحث خصوصا.

من ميزات أسلوب اليهود هو التكرار وكثرة التشكيك والتكذيب، والسخرية من الأنبياء مهما جاءهم من بينات، فهم يعلمون الحق ويخفونه ويتعمدون التظاهر بعدم الفهم فهم أقرب ما يكونوا إلى المنافق.

من صفات وسمات الكاذبين المكذبين يظهر لنا في سورة لقمان آية 6، والسجدة 22، واتخاذهم لآيات الله هزواً، والإعراض، واتخاذهم لهُو الحديث للصد عن سبيل الله.

وجدنا من خلال بحثنا هذا قلة استخدام الخيال في التصوير، والتشبيه أو استخدام باب البيان عموماً من طرف الكفار عموماً، وذلك لأن الكافر المكذب يعجز عن استخدام خياله في الافتراء على الدعوة والرسالة، وقاصر على الإبداع الفني الذي عادة ما ينطلق من المشاعر الصادقة فهو مجرد كاذب يكرر قوالب موجودة سمعها أو توارثها يرمي بها الحق ببساطة.

وتظل هذه السياقات العامة تكشف دعاوى الكاذبين المضللة والتي تريد التغطية على أمر أهم، لأنها ترتبط بقضية أوسع من الحدود الزمنية والمكانية، هي قضية الإيمان بالعقيدة، فهو صراع بين طريقي الخطاب؛ جانب أصحاب العقيدة الإلهية النابعة من الوحي، وجانب أصحاب العقيدة الصنمية الصادرة من غايات سلطوية طغيانية زادها الشيطان غوراً فكانت من أوليائه.

واقع الكاذبين في الماضي وفي كل العصور متشابه لحد كبير، إلى درجة تجعلنا نشك ونشتبه في أنهم جاءوا من الزمن البعيد أو كأنهم انتقلوا في آلة للزمن ليعيدوا نفس أساليبهم وكلامهم وكذبهم وطرقهم في الافتراء، فعندما نجد شخصاً مثلاً يطلب من الجماهير لأجل مصلحة شخصية في نفسه يطلب منهم تأييده ونصرته، ويعددهم في مقابل ذلك بتحقيق أمور هي مجرد افتراء، فهو هنا يستخدم أسلوباً خطايا خادعا ومؤثراً في العقل الباطن للناس فهو يجعلهم بطريقة غير مباشرة وغير إرادية يصدقون ذلك الادعاء الكاذب ويصبح كأنه مسلمة ويصب تركيزهم على ما سيكون منه من إجراءات لإبطال ذلك الوضع - الذي هو في الحقيقة غير موجود - عوض البحث عن حقيقة وجوده أصلاً، فهو يجعله موجوداً في خياله وخطابه الكاذب ثم يقرره ويرسخه في أذهان السامعين ليحوله كذبة مقبولة، ويستقبلها المتلقي بصدر رحب ودون أدنى شك أو ارتياب في صحة ذلك الكلام، فينتقل السامع والمتلقي من الشك في تلك المعلومة إلى الترقب في صدق تطبيقه لما وعد به من تصحيح الوضع وتغيير تلك الحالة الغير عادلة والتي في الحقيقة هي غير موجودة أصلاً (مثل ادعاء أن فئة من الناس لا يدفعون مصاريف العلاج، في حين أن المواطن يدفع النقود مقابل علاجه، فيعد الواعد أنصاره بأن يجعلهما سواسية ! وكأن يقول سنقطع عنهم المنح الشهري والحياة المجانية)، فهو عوض أن يبرهن على صحة كلامه فيقول يوجد كذا وكذا فيكون السامع الاختيار بين أمرين، واختيار التصديق أو التكذيب فهو يجعله في مقام المصدق والمتأكد من تلك المعلومة لأنه يعده بإيقافها ومنعها فلم يترك للشك من باب أو مدخل، بل أصبح وجودها لا غبار عليه، ولكن فقط سيهتم السامع بكفاءتها في تطبيق تلك الوعود، وهذا كله كذب فقط من أجل التأثير وكسب قلوب المتعاطفين.

فهذا اسقاط واقعي لأساليب الكاذبين بالقديم ومحاكاته بواقعنا الحديث، فهو في صلب الموضوع، فإذا رأينا ودققنا في الأسلوب المستخدم، والغرض المؤدى من ذلك الأسلوب في الكذب، وماله من أثر على الأنفس والتأثير بها، فهي طرق مستعملة بقصد ومتعمدة، وليست عبثية أو عشوائية، بل هي أساليب تُدرس وتدرس لتحقيق الغرض المطلوب (تعليقاً على الكذب لترسيخ الكذبة وجعلها مسلماً بها).

يمكنك مشاركة أو فتح شراكة مع أي شخص بمالك، أو بجهدك، أو بشركة، أو ببناء، أو بمحل، لكن لا تقم بمشاركته أفكارك أو مخططاتك لأنه عند فسخ الشراكة وتفرق الشركاء يمكنك استرجاع وتقاسم المال أو المحل أو الأرض، أو الأغراض أو تقاسم الشركة لكنك أبدا لا يمكنك تقاسم الفكرة أو استرجاع نصفها لأنها لما تخرج تصبح ليس ملكا لك ولا يمكنك استرجاعها ولا نصفها حتى، لهذا من الخطر مقاسمة المنافقين بأسرار قد يضررون بها الأمة الإسلامية وهذا ما حذرنا الله منه في القرآن الكريم.

يظهر كذبهم حتى في نهيهم للنبي ﷺ، عن أن يفتنهم فهم كذبوا في ذلك لعلمهم أن النبي ﷺ لم ولن يفتنهم وهو جاء بعكس ذلك، وليس ليفتنهم، فاتهموه أنه لو أخرجهم معه - سعيًا للهروب والفرار من الحرب والمعارك - اتهموه أنه سيفتنهم بإخراجه لهم معه للقتال، فكذبوا على الرسول الأعظم بأن نسبوا له مثل هذه النسبة ولا فتنة إلا فتنهم لأنفسهم وفتنهم لغيرهم من ضعيفي الإيمان في كل الأزمان، لكن اللطيف هنا هو إمكانية الكذب والصدق حتى في الأسلوب الإنشائي ولهذا نرى أنه ذلك المقياس في تعريف والتفريق بين الأسلوب الإنشائي والخبري ليس صحيحا في القرآن الكريم وحين دراسته.

هذا وإن للقرآن الكريم حقا عظيما ومسؤولية على الباحثين في علوم البلاغة حيث يتحتم عليهم الاهتمام البالغ ببلاغة هذا الكتاب الخالد والذي يحتوي على أرفع مستويات اللغة والبلاغة، فلا بد من دراسته من زوايا علمية جديدة لم تدرس أو لم تبحث بالقدر اللازم، فتضيف إلى ما قدّمه علماء التراث، ففيه جوانب كثيرة تبين ربانية هذا النص القرآني ويكشف عن براعة نظم لغته، فأدعو دارسي العلوم القرآنية والبلاغية إلى الاهتمام بجانب السياق والقصد للوصول لجمال التصوير الفني الموجود بالقرآن الكريم وتبيين عظمة بلاغته، والتركيز على دراسة الشكل البلاغي ودوره في تحلية الإعجاز القرآني.

المصادر

القرآن الكريم.

الإبانة الكبرى لابن بطة المؤلف: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَرِي المعروف بابن بَطَّة العكبري (المتوفى: 387هـ) المحقق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض عدد الأجزاء: 9، الطبعة: الثانية، 1415هـ - 1994م.

الإتقان في علوم القرآن، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: 1394هـ - 1974م.

أخلاقيات الكذب، بقلم إيمانويل كانط ترجمة عبد الرحيم نورالدين، مصر دار الفكر العربي 1996م.

إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

أسباب النزول المسمى "لباب التقول في أسباب النزول" لجلال الدين السيوطي، (المتوفى: 911هـ)، بيروت لبنان، مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1422هـ-2002م.

أسباب نزول القرآن المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري، الشافعي (المتوفى: 468هـ) المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان الناشر: دار الإصلاح الدمام الطبعة: الثانية، 1412هـ-1992م.

أسباب نزول القرآن المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت 468هـ) المحقق: كمال بسيوني زغلول الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، 1411هـ.

أسباب نزول القرآن لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري تحقيق: السيد أحمد صقر، بيروت الطبعة: 1، 1418هـ.

أسرار البيان في التعبير القرآني المؤلف: فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي 1999م.

إسفار الفصيح المؤلف: محمد بن علي بن محمد، أبو سهل الهروي (المتوفى: 433هـ) المحقق: أحمد بن سعيد بن محمد قشاش الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، 1420هـ.

إعراب القرآن الكريم، المؤلف: أحمد عبيد الدعاس - أحمد محمد حميدان - إسماعيل محمود القاسم الناشر: دار المنير ودار الفارابي - دمشق، الطبعة: الأولى، 1425هـ.

إعراب القرآن المؤلف: أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: 338هـ) وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة: الأولى، 1421هـ.

إعراب القرآن وبيان، المؤلف: محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى: 1403هـ) الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية، (دار اليمامة - دمشق - بيروت)، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت)، الطبعة: الرابعة، 1415هـ.

أنوار التنزيل وأسرار التأويل المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: 685هـ) المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى - 1418هـ.

البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ) المحقق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: 1420هـ.

البحر المديد في تفسير القرآن المجيد المؤلف: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجزي الفاسي الصوفي (المتوفى: 1224هـ) المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان الناشر: الدكتور حسن عباس زكي - القاهرة، الطبعة: 1419هـ.

البرهان في علوم القرآن المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: 794هـ) المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه ودار المعرفة، بيروت، لبنان الطبعة: الأولى، 1376هـ - 1957م.

بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المؤلف: عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: 1391هـ) الناشر: مكتبة الآداب الطبعة: السابعة عشر: 1426هـ - 2005م عدد الأجزاء: 4.

بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعرابا وتفسيرا بإيجاز، بهجت عبد الواحد الشبخلي، مكتبة دنديس، الطبعة الأولى 2001م، 1422هـ.

بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز إعرابا وتفسيرا بإيجاز، لعبد الواحد الشبخلي، مكتبة دنديس - الأردن. 2001م/ 1422هـ.

البلاغة الواضحة ودليل البلاغة الواضحة، المؤلف: علي الجارم - مصطفى أمين، الناشر: دار المعارف، عدد المجلدات: 2. 2008م.

بيان المعاني، المؤلف: عبد القادر بن ملاً حويش السيد محمود آل غازي العاني (المتوفى: 1398هـ) الناشر: مطبعة الترقى - دمشق، الطبعة: الأولى، 1382هـ - 1965م.

تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: 571هـ) المحقق: عمرو بن غرامة العمروي الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: 1415هـ - 1995م.

التبيان في إعراب القرآن المؤلف: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (المتوفى: 616هـ) المحقق: علي محمد البجاوي الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه. ط3، 1986م.

التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ) الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: 1984هـ.

تسهيل الوصول إلى معرفة أسباب النزول، الجامع بين روايات الطبري والنيسابوري وابن الجوزي والقرطبي وابن كثير والسيوطي، تصنيف الشيخ خالد عبد الرحمن العكّ، دار المعرفة، بيروت - لبنان، طبعة 1، سنة 1419هـ، 1998م.

تفسير الإمام البنا، نظرات في كتاب الله للإمام الشهيد حسن البنا، جمع وتحقيق وتعليق عصام تليمة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، مصر 2002م.

التفسير البياني للقرآن الكريم المؤلف: عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (المتوفى: 1419هـ) دار النشر: دار المعارف - القاهرة الطبعة: السابعة.

تفسير التستري المؤلف: أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن ربيع التستري (المتوفى: 283هـ) جمعها: أبو بكر محمد البلدي المحقق: محمد باسل عيون السود الناشر: منشورات محمد علي بيضون/ دارالكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى - 1423هـ.

تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) المؤلف: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: 1354هـ) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة النشر: 1990م.

تفسير القرآن العظيم المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ) المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية سنة: 1420هـ - 1999م.

التفسير القرآني للقرآن، المؤلف: عبد الكريم يونس الخطيب (المتوفى: بعد 1390هـ) الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة.

تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: 333هـ) المحقق: د. مجدي باسلوم الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان الطبعة: الأولى، 1426هـ - 2005م.

التفسير الوسيط للقرآن الكريم المؤلف: محمد سيد طنطاوي الناشر: دار تحفة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة، الطبعة: الأولى، يونيو 1997م.

تفسير مجاهد المؤلف: أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: 104هـ) المحقق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل الناشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، القاهرة مصر الطبعة: الأولى، 1410هـ - 1989م.

تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ينسب: لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - (المتوفى: 68هـ) جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (المتوفى: 817هـ) الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان.

تيسير التفسير المؤلف: إبراهيم القطان (المتوفى: 1404هـ).

جامع البيان في تأويل القرآن المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، 1420هـ - 2000م.

الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964م.

الجدول في إعراب القرآن الكريم، المؤلف: محمود بن عبد الرحيم صافي (المتوفى: 1376هـ) الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت، الطبعة: الرابعة، 1418هـ.

الجسم باعتباره رهانا فلسفيا عند سبينوزا" دولوز جيل، ترجمة عادل حدجامي، ضمن: مجلة كتابات فلسفية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، عدد 1، 2014م.

جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (المتوفى: 1362هـ) ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 1996م.

الجواهر الحسان في تفسير القرآن المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: 875هـ) المحقق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الأولى - 1418هـ.

حَاشِيَةُ الشَّهَابِ عَلَى تَفْسِيرِ الْبَيْضَاوِيِّ، الْمُسَمَّاةُ: عِنَايَةُ الْقَاضِي وَكَفَايَةُ الرَّاضِي عَلَى تَفْسِيرِ الْبَيْضَاوِيِّ الْمُؤَلَّف: شَهَابُ الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ عَمْرِ الْخَفَاجِيِّ الْمِصْرِيِّ الْخَنْفِيِّ (المتوفى: 1069هـ) دار النشر: دار صادر - بيروت، عدد الأجزاء: 8.

الخصائص المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: 392هـ) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: الرابعة. 1991م.

ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: 808هـ)، المحقق: خليل شحادة الناشر: دار الفكر، بيروت الطبعة: الثانية، 1408هـ-1988م.

روح البيان المؤلف: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (المتوفى: 1127هـ) الناشر: دار الفكر - بيروت، 2001م.

زاد المسير في علم التفسير المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: 597هـ) المحقق: عبد الرزاق المهدي الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الأولى - 1422هـ.

شرح درة الغواص في أوهام الخواص، المؤلف: أحمد بن محمد الخفاجي المصري المحقق: عبد الحفيظ فرغلي علي قرني الناشر: دار الجيل، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، 1417هـ - 1996م.

الصحيح من أسباب النزول، عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الذخائر للنشر والتوزيع، مؤسسة الريان، الطبعة الأولى 1420هـ - 1999م، بيروت لبنان.

الصناعتين لأبي الهلال العسكري. الصناعتين المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو 395هـ) المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: المكتبة العنصرية - بيروت عام النشر: 1419هـ.

صيغة نفي القسم في القرآن الكريم المؤلف: سمية محمد عناية حاج نايف، رسالة دكتوراه، إشراف: د. عبد الرحمن مطلق الجبوري، 1425هـ-2004م.

عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح المؤلف: أحمد بن علي بن عبد الكافي، أبو حامد، بهاء الدين السبكي (المتوفى: 773 هـ) المحقق: الدكتور عبد الحميد هندواوي الناشر: المكتبة العنصرية للطباعة والنشر، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، 1423هـ-2003م.

علم المعاني المؤلف: عبد العزيز عتيق (المتوفى: 1396هـ) الناشر: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، 1430هـ-2009م.

غرائب القرآن ورغائب الفرقان المؤلف: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: 850هـ) المحقق: الشيخ زكريا عميرات الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى - 1416هـ.

فتح الباري شرح صحيح البخاري المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: 795هـ) تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود، مجدي بن عبد الخالق الشافعي ومجموعة من المحققين الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية. الحقوق: مكتب تحقيق دار الحرمين - القاهرة الطبعة: الأولى، 1417هـ - 1996م.

فتح البيان في مقاصد القرآن المؤلف: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي (المتوفى: 1307هـ) عني بطبعه وقدم له وراجعته: خدام العلم عبد الله بن إبراهيم الأنصاري الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا - بيروت عام النشر: 1412هـ - 1992م.

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي محمد الشوكاني، طبعة منقحة من مخطوطة دار الكتب المصرية، دار الخير، ط1، 1991م.

فتح القدير، المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: 1250هـ) الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت الطبعة: الأولى - 1414هـ.

فضائل القرآن لأبي عبيد فضائل القرآن للقاسم بن سلام المؤلف: أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: 224هـ) تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين الناشر: دار ابن كثير، دمشق - بيروت الطبعة: الأولى، 1415هـ - 1995م.

في ظلال القرآن المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: 1385هـ) الناشر: دار الشروق - بيروت - القاهرة الطبعة: السابعة عشر - 1412هـ.

قلب الأفلاطونية، دولوز جيل، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، مجلة فكر ونقد، عدد1، سبتمبر. 1997م.

كانط والواجب المثالي تجاه الآخرين هو عدم الكذب جيمس إدوين ماهون، المجلة البريطانية لتاريخ الفلسفة عدد 14، 2006م.

كتاب حقيقة الكذب، لتشارلز الخامس " The Truth About Lying ".

الكذب والتضليل في الخطاب، أندرياس ستوك، نشرت في المجلة الفلسفية ببريطانيا، 2016م.

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ) الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - 1407هـ.

الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: 427هـ) تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى 1422هـ - 2002م.

اللباب في علوم الكتاب، المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي لدمشقي النعماني (المتوفى: 775هـ) المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان الطبعة: الأولى، 1419هـ-1998م.

لطائف الإشارات، تفسير القشيري المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (المتوفى: 465هـ) المحقق: إبراهيم البسيوني الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر الطبعة: الثالثة. 2001م.

لغة الجسد، لجيمس بوج، سبعة دروس لتتحكم باللغة الصامتة 2001م.

مبادئ علم النفس العام، مراد يوسف، مكان النشر: مصر: الناشر: دار المعارف، منشورات علم النفس التكاملية، تاريخ النشر: 1948م.

معالم التنزيل في تفسير القرآن، تفسير البغوي المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: 510هـ) المحقق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، 1417هـ - 1997م.

معاني القرآن، المؤلف: أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد (المتوفى: 338هـ) المحقق: محمد علي الصابوني الناشر: جامعة أم القرى - مكة المكرمة الطبعة: الأولى، 1409هـ.

معاني القرآن المؤلف: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: 207هـ) المحقق: أحمد يوسف النجاتي/ محمد علي النجار/ عبد الفتاح إسماعيل الشلي الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر، الطبعة: الأولى، 1990م.

معاني القرآن وإعراجه المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: 311هـ) المحقق: عبد الجليل عبده شلي الناشر: عالم الكتب - بيروت الطبعة: الأولى 1408هـ - 1988م.

معاني النحو المؤلف: د. فاضل صالح السامرائي الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - الأردن الطبعة: الأولى، 1420هـ - 2000م.

معجم الفروق اللغوية المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو 395هـ) المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين بـ «قم» الطبعة: الأولى، 1412هـ.

المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ) المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الثانية (دار الصميعي - الرياض/ الطبعة الأولى، 1415هـ - 1994م).

المعرفة في بيان عقيدة المسلم للشيخ عبد الكريم الرفاعي، دار الإمام الغزالي ط 6. 2010م.

مفاتيح الغيب، التفسير الكبير المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - 1420هـ.

مفتاح العلوم المؤلف: يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (المتوفى: 626هـ) ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الثانية، 1407هـ - 1987م.

المكي والمدني في القرآن الكريم، د. محمد بن عبد الرحمن الشايع، قسم القرآن الكريم وعلومه، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، الطبعة الأولى 1418هـ - 1997م.

مناهل العرفان في علوم القرآن، المؤلف: محمد عبد العظيم الزرقاني (المتوفى: 1367هـ) الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة: الطبعة الثالثة. 1996م.

الموافقات، المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: 790هـ) المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى 1417هـ - 1997م.

الموسوعة القرآنية، المؤلف: إبراهيم بن إسماعيل الأبياري (المتوفى: 1414هـ) الناشر: مؤسسة سجل العرب الطبعة: 1405هـ.

موسوعة مصطلحات الفلسفة عند العرب، جهامي جبرار، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1998م.

النحو الوافي، المؤلف: عباس حسن (المتوفى: 1398هـ) الناشر: دار المعارف الطبعة: الطبعة الخامسة عشرة.

النكت والعيون، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: 450هـ) المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان عدد الأجزاء: 6.

نواهد الأبقار وشوارد الأفكار، حاشية السيوطي على تفسير البضاوي، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: 911هـ) الناشر، جامعة أم القرى، الأجزاء: 3. عام النشر: 1424هـ - 2005م.

EKLER

الملحق الأول: جدول الآيات التي ورد فيها كذب أو تكذيب بحسب الفئة أو الأمم والأقوام:

المكذب/ الكاذب	القوم	رقم السورة	السورة	رقم الآية
إخوة يوسف		12	يوسف ك	11
إخوة يوسف		12	يوسف ك	12
إخوة يوسف		12	يوسف ك	17
إخوة يوسف		12	يوسف ك	63
إخوة يوسف		12	يوسف ك	65
إخوة يوسف		12	يوسف ك	73
إخوة يوسف		12	يوسف ك	77
إخوة يوسف		12	يوسف ك	81
إخوة يوسف		12	يوسف ك	95
أعراب		49	الحجرات	14
المتأله		25	الفرقان ك	18
النصارى واليهود		2	البقرة م	116
اليهود والنصارى		2	البقرة م	111
اليهود والنصارى		2	البقرة م	113
اليهود والنصارى		2	البقرة م	135
اليهود والنصارى		2	البقرة م	140
امراة العزيز		12	يوسف ك	25
امراة العزيز		12	يوسف ك	52
بنو إسرائيل	شمويل	2	البقرة م	246
بنو إسرائيل	شمويل	2	البقرة م	247
بنو إسرائيل	شمويل	2	البقرة م	249
بنو إسرائيل	موسى	20	طه ك	87
بنو إسرائيل	موسى	20	طه ك	88
بنو إسرائيل	موسى	28	القصص ك	19
بنو إسرائيل		2	البقرة م	70
جن		37	الصافات ك	29
جن		37	الصافات ك	30
جن		37	الصافات ك	32
جن		50	ق ك	23
جن		50	ق ك	27
جن		55	الرحمان ك	13
جن		72	الجن ك	3

22	الكهف ك	18		خائضون
22	ص ك	38		خصم
23	ص ك	38		خصم
63	طه ك	20		سحرة
44	الشعراء ك	26		سحرة
76	ص ك	38	إبليس	شيطان
12	الأعراف ك	7		شيطان
20	الأعراف ك	7		شيطان
21	الأعراف ك	7		شيطان
189	الأعراف ك	7		شيطان
22	إبراهيم ك	14		شيطان
33	الحجر ك	15		شيطان
39	الحجر ك	15		شيطان
120	طه ك	20		شيطان
29	الأنبياء ك	21		شيطان
63	القصص ك	28		شيطان
44	يوسف ك	12		عزيز مصر
70	يوسف ك	12		فتيان يوسف
77	مريم ك	19	العاص بن وائل	كفار
103	المائدة م	5	العرب	كفار
24	النحل ك	16	العرب	كفار
42	الإسراء ك	17	العرب	كفار
47	الإسراء ك	17	العرب	كفار
134	طه ك	20	العرب	كفار
71	النمل ك	27	العرب	كفار
31	سبأ ك	34	العرب	كفار
37	القلم ك	68	العرب	كفار
25	الأنعام ك	6	النضر بن الحارث	كفار
10	القلم ك	68	الوليد بن المغيرة	كفار
11	القلم ك	68	الوليد بن المغيرة	كفار
15	القلم ك	68	الوليد بن المغيرة	كفار
24	المدثر ك	74	الوليد بن المغيرة	كفار
25	المدثر ك	74	الوليد بن المغيرة	كفار
14	الصف ك	61	الحواريون	كفار
53	الأنبياء ك	21	إبراهيم	كفار
59	الأنبياء ك	21	إبراهيم	كفار
63	الأنبياء ك	21	إبراهيم	كفار

كفار	أبو جهل	21	الأنبياء ك	36
كفار	أبو جهل	44	الدخان ك	49
كفار	أبي بن خلف	36	يس ك	78
كفار	أبي حذيفة	39	الزمر ك	49
كفار	أصحاب القرية	36	يس ك	15
كفار	أصحاب القرية	36	يس ك	18
كفار	بنو إسرائيل	61	الصف ك	6
كفار	ثمود	11	هود ك	62
كفار	ثمود	23	المؤمنون ك	36
كفار	ثمود	23	المؤمنون ك	37
كفار	رجال فرعون	7	الأعراف ك	109
كفار	رجال فرعون	7	الأعراف ك	127
كفار	رجال فرعون	7	الأعراف ك	134
كفار	رجال فرعون	10	يونس ك	76
كفار	رجال فرعون	40	غافر ك	24
كفار	رجال فرعون	43	الزخرف ك	49
كفار	رجال فرعون	43	الزخرف ك	50
كفار	صاحب الجنة	18	الكهف ك	35
كفار	صاحب الجنة	18	الكهف ك	36
كفار	عاد	41	فصلت ك	15
كفار	عاد	46	الأحقاف ك	22
كفار	عاد	46	الأحقاف ك	24
كفار	عاد وثمود ونوح	14	إبراهيم ك	9
كفار	فرعون	7	الأعراف ك	123
كفار	فرعون	10	يونس ك	90
كفار	فرعون	17	الإسراء ك	101
كفار	فرعون	20	طه ك	57
كفار	فرعون	20	طه ك	71
كفار	فرعون	23	المؤمنون ك	47
كفار	فرعون	26	الشعراء ك	19
كفار	فرعون	26	الشعراء ك	27
كفار	فرعون	26	الشعراء ك	29
كفار	فرعون	26	الشعراء ك	34
كفار	فرعون	26	الشعراء ك	35
كفار	فرعون	26	الشعراء ك	49
كفار	فرعون	26	الشعراء ك	55
كفار	فرعون	27	النمل ك	13

14	النمل ك	27	فرعون	كفار
36	القصص ك	28	فرعون	كفار
38	القصص ك	28	فرعون	كفار
26	غافر ك	40	فرعون	كفار
29	غافر ك	40	فرعون	كفار
37	غافر ك	40	فرعون	كفار
51	الزخرف ك	43	فرعون	كفار
52	الزخرف ك	43	فرعون	كفار
53	الزخرف ك	43	فرعون	كفار
39	الذاريات ك	51	فرعون	كفار
24	النازعات ك	79	فرعون	كفار
78	القصص ك	28	قارون	كفار
7	الأنعام ك	6	قريش	كفار
109	الأنعام ك	6	قريش	كفار
148	الأنعام ك	6	قريش	كفار
157	الأنعام ك	6	قريش	كفار
31	الأنفال م	8	قريش	كفار
48	الأنفال م	8	قريش	كفار
13	هود ك	11	قريش	كفار
48	الإسراء ك	17	قريش	كفار
49	الإسراء ك	17	قريش	كفار
94	الإسراء ك	17	قريش	كفار
4	الكهف ك	18	قريش	كفار
5	الفرقان ك	25	قريش	كفار
48	القصص ك	28	قريش	كفار
57	القصص ك	28	قريش	كفار
12	العنكبوت ك	29	قريش	كفار
50	العنكبوت ك	29	قريش	كفار
7	سبأ ك	34	قريش	كفار
15	الصفافات ك	37	قريش	كفار
16	الصفافات ك	37	قريش	كفار
17	الصفافات ك	37	قريش	كفار
36	الصفافات ك	37	قريش	كفار
89	الصفافات ك	37	قريش	كفار
158	الصفافات ك	37	قريش	كفار
168	الصفافات ك	37	قريش	كفار
169	الصفافات ك	37	قريش	كفار

176	الصفافات ك	37	قريش	كفار
149.150.153	الصفافات ك	37	قريش	كفار
4	ص ك	38	قريش	كفار
5	ص ك	38	قريش	كفار
7	ص ك	38	قريش	كفار
8	ص ك	38	قريش	كفار
56/ 45	الزمر ك	39	قريش	كفار
5	فصلت ك	41	قريش	كفار
14	فصلت ك	41	قريش	كفار
26	فصلت ك	41	قريش	كفار
44	فصلت ك	41	قريش	كفار
47	فصلت ك	41	قريش	كفار
24	الشورى ك	42	قريش	كفار
23	الزخرف ك	43	قريش	كفار
30	الزخرف ك	43	قريش	كفار
31	الزخرف ك	43	قريش	كفار
47	الزخرف ك	43	قريش	كفار
58	الزخرف ك	43	قريش	كفار
81/ 80	الزخرف ك	43	قريش	كفار
12	الدخان ك	44	قريش	كفار
35	الدخان ك	44	قريش	كفار
36	الدخان ك	44	قريش	كفار
24	الجاثية ك	45	قريش	كفار
7	الأحقاف ك	46	قريش	كفار
8	الأحقاف ك	46	قريش	كفار
11	الأحقاف ك	46	قريش	كفار
26	الأحقاف ك	46	قريش	كفار
2	ق ك	50	قريش	كفار
3	ق ك	50	قريش	كفار
52	الذاريات ك	51	قريش	كفار
29	الطور ك	52	قريش	كفار
30	الطور ك	52	قريش	كفار
33	الطور ك	52	قريش	كفار
39	الطور ك	52	قريش	كفار
44	الطور ك	52	قريش	كفار
2	القمر ك	54	قريش	كفار
44	القمر ك	54	قريش	كفار

51	القلم ك	68	قريش	كفار
10	النازعات ك	79	قريش	كفار
12	النازعات ك	79	قريش	كفار
210	الشعراء ك	26	قريش	كفار
25	القمر ك	54	قوم ثمود	كفار
88	الأعراف ك	7	قوم شعيب	كفار
90	الأعراف ك	7	قوم شعيب	كفار
87	هود ك	11	قوم شعيب	كفار
91	هود ك	11	قوم شعيب	كفار
185	الشعراء ك	26	قوم شعيب	كفار
186	الشعراء ك	26	قوم شعيب	كفار
33	المؤمنون ك	23	قوم صالح	كفار
34	المؤمنون ك	23	قوم صالح	كفار
38	المؤمنون ك	23	قوم صالح	كفار
153	الشعراء ك	26	قوم صالح	كفار
154	الشعراء ك	26	قوم صالح	كفار
47	النمل ك	27	قوم صالح	كفار
49	النمل ك	27	قوم صالح	كفار
24	القمر ك	54	قوم صالح	كفار
34	غافر ك	40	قوم فرعون	كفار
29	العنكبوت ك	29	قوم لوط	كفار
60	الأعراف ك	7	قوم نوح	كفار
66	الأعراف ك	7	قوم نوح	كفار
27	هود ك	11	قوم نوح	كفار
35	هود ك	11	قوم نوح	كفار
54	هود ك	11	قوم نوح	كفار
24	المؤمنون ك	23	قوم نوح	كفار
25	المؤمنون ك	23	قوم نوح	كفار
111	الشعراء ك	26	قوم نوح	كفار
137	الشعراء ك	26	قوم نوح	كفار
138	الشعراء ك	26	قوم نوح	كفار
9	القمر ك	54	قوم نوح	كفار
6	نوح ك	71	قوم نوح	كفار
7	نوح ك	71	قوم نوح	كفار
23	نوح ك	71	قوم نوح	كفار
258	البقرة م	2	نمرود	كفار
167	البقرة م	2	يوم القيامة	كفار

103	طه ك	20	يوم القيامة	كفار
100	المؤمنون ك	23	يوم القيامة	كفار
107	المؤمنون ك	23	يوم القيامة	كفار
113	المؤمنون ك	23	يوم القيامة	كفار
102	الشعراء ك	26	يوم القيامة	كفار
52	سبأ ك	34	يوم القيامة	كفار
53	سبأ ك	34	يوم القيامة	كفار
37	فاطر ك	35	يوم القيامة	كفار
60	ص ك	38	يوم القيامة	كفار
63/ 62	ص ك	38	يوم القيامة	كفار
57	الزمر ك	39	يوم القيامة	كفار
58	الزمر ك	39	يوم القيامة	كفار
60/ 59	الزمر ك	39	يوم القيامة	كفار
11	غافر ك	40	يوم القيامة	كفار
74	غافر ك	40	يوم القيامة	كفار
84	غافر ك	40	يوم القيامة	كفار
15	الطور ك	52	يوم القيامة	كفار
47	الواقعة ك	56	يوم القيامة	كفار
49	الأنفال م	8	يوم بدر	كفار
23	الأنعام ك	6		كفار
28	الأنعام ك	6		كفار
29	الأنعام ك	6		كفار
63	الأنعام ك	6		كفار
105	الأنعام ك	6		كفار
124	الأنعام ك	6		كفار
136	الأنعام ك	6		كفار
138	الأنعام ك	6		كفار
139	الأنعام ك	6		كفار
156	الأنعام ك	6		كفار
27	الأنعام ك	6		كفار
28	الأعراف ك	7		كفار
49	الأعراف ك	7		كفار
173	الأعراف ك	7		كفار
21	الأنفال م	8		كفار
18	يونس ك	10		كفار
22	يونس ك	10		كفار
38	يونس ك	10		كفار

68	يونس ك	10		كفار
7	هود ك	11		كفار
5	الرعد ك	13		كفار
27	الرعد ك	13		كفار
43	الرعد ك	13		كفار
10	إبراهيم ك	14		كفار
44	إبراهيم ك	14		كفار
6	الحجر ك	15		كفار
15	الحجر ك	15		كفار
28	النحل ك	16		كفار
35	النحل ك	16		كفار
38	النحل ك	16		كفار
57	النحل ك	16		كفار
62	النحل ك	16		كفار
86	النحل ك	16		كفار
101	النحل ك	16		كفار
103	النحل ك	16		كفار
116	النحل ك	16		كفار
98	الإسراء ك	17		كفار
73	مريم ك	19		كفار
88	مريم ك	19		كفار
91	مريم ك	19		كفار
104	طه ك	20		كفار
133	طه ك	20		كفار
3	الأنبياء ك	21		كفار
5	الأنبياء ك	21		كفار
26	الأنبياء ك	21		كفار
38	الأنبياء ك	21		كفار
42	الحج ك	22		كفار
68	الحج ك	22		كفار
70	المؤمنون ك	23		كفار
82	المؤمنون ك	23		كفار
83	المؤمنون ك	23		كفار
90	المؤمنون ك	23		كفار
91	المؤمنون ك	23		كفار
4	الفرقان ك	25		كفار
7	الفرقان ك	25		كفار

8	الفرقان ك	25		كفار
41	الفرقان ك	25		كفار
42	الفرقان ك	25		كفار
67	النمل ك	27		كفار
68	النمل ك	27		كفار
47	القصص ك	28		كفار
4	العنكبوت ك	29		كفار
55	الروم ك	30		كفار
58	الروم ك	30		كفار
3	السجدة ك	32		كفار
10	السجدة ك	32		كفار
12	السجدة ك	32		كفار
28	السجدة ك	32		كفار
3	سبأ ك	34		كفار
8	سبأ ك	34		كفار
29	سبأ ك	34		كفار
32	سبأ ك	34		كفار
33	سبأ ك	34		كفار
35	سبأ ك	34		كفار
43	سبأ ك	34		كفار
42	فاطر ك	35		كفار
30	يس ك	36		كفار
46	يس ك	36		كفار
47	يس ك	36		كفار
48	يس ك	36		كفار
69	يس ك	36		كفار
28	الصفافات ك	37		كفار
52	الصفافات ك	37		كفار
53	الصفافات ك	37		كفار
58	الصفافات ك	37		كفار
152	الصفافات ك	37		كفار
3	الزمر ك	39		كفار
32	الزمر ك	39		كفار
50	فصلت ك	41		كفار
35	الشورى ك	42		كفار
7	الزخرف ك	43		كفار
15	الزخرف ك	43		كفار

20	الزخرف ك	43		كفار
22	الزخرف ك	43		كفار
24	الزخرف ك	43		كفار
25	الجائية ك	45		كفار
32	الجائية ك	45		كفار
17	الأحقاف ك	46		كفار
53	الذاريات ك	51		كفار
12	الذاريات ك	51		كفار
21	النجم ك	53		كفار
27	النجم ك	53		كفار
82	الواقعة ك	56		كفار
6	التغابن ك	64		كفار
7	التغابن ك	64		كفار
9	المملك ك	67		كفار
25	المملك ك	67		كفار
41	الحاقة ك	69		كفار
42	الحاقة ك	69		كفار
22	التكوير ك	81		كفار
24	التكوير ك	81		كفار
25	التكوير ك	81		كفار
13	المطففين ك	83		كفار
32	المطففين ك	83		كفار
33	المطففين ك	83		كفار
15	الفجر ك	89		كفار
16	الفجر ك	89		كفار
6	البلد ك	90		كفار
59	الصافات ك	37		كفار
14	الدخان ك	44		كفار ومنافقون
18	المجادلة	58	ابن نبتل	منافقون
42	التوبة م	9	تبوك	منافقون
49	التوبة م	9	جد بن قيس	منافقون
74	التوبة م	9	عبد الله بن أبي	منافقون
1	المنافقون م	63	عبد الله بن أبي	منافقون
7	المنافقون م	63	عبد الله بن أبي	منافقون
8	المنافقون م	63	عبد الله بن أبي	منافقون
93	الأنعام ك	6	مسيلمة	منافقون
81	النساء م	4	مكة	منافقون

97	النساء م	4	مكة	منافقون
12	الأحزاب	33	يوم الخندق	منافقون
154	آل عمران م	3	يوم أحد	منافقون
156	آل عمران م	3	يوم أحد	منافقون
167	آل عمران م	3	يوم أحد	منافقون
168	آل عمران م	3	يوم أحد	منافقون
78	النساء م	4	يوم أحد	منافقون
15	الأحزاب	33	يوم أحد	منافقون
8	البقرة م	2		منافقون
11	البقرة م	2		منافقون
13	البقرة م	2		منافقون
14	البقرة م	2		منافقون
72	النساء م	4		منافقون
73	النساء م	4		منافقون
141	النساء م	4		منافقون
52	المائدة م	5		منافقون
53	المائدة م	5		منافقون
56	التوبة م	9		منافقون
61	التوبة م	9		منافقون
62	التوبة م	9		منافقون
65	التوبة م	9		منافقون
75	التوبة م	9		منافقون
94	التوبة م	9		منافقون
95	التوبة م	9		منافقون
96	التوبة م	9		منافقون
107	التوبة م	9		منافقون
66	مريم ك	19		منافقون
47	النور	24		منافقون
53	النور	24		منافقون
10	العنكبوت ك	29		منافقون
13	الأحزاب	33		منافقون
18	الأحزاب	33		منافقون
19	الزخرف ك	43		منافقون
16	محمد	47		منافقون
30	محمد	47		منافقون
11	الفتح	48		منافقون
12	الفتح	48		منافقون

15	الفتح	48		مناققون
14	المجادلة	58		مناققون
11	الحشر	59		مناققون
16	الحشر	59		مناققون
10	المناققون م	63		مناققون
124	التوبة م	9		مناققون
127	التوبة م	9		مناققون
31	يوسف ك	12		نسوة يوسف
171	النساء م	4	نجران	نصارى
17	المائدة م	5		نصارى
169	الأعراف ك	7		نصارى
80	البقرة م	2	المدينة	يهود
88	البقرة م	2	المدينة	يهود
91	البقرة م	2	المدينة	يهود
118	البقرة م	2	المدينة	يهود
170	البقرة م	2	المدينة	يهود
24	آل عمران م	3	المدينة	يهود
75	آل عمران م	3	المدينة	يهود
78	آل عمران م	3	المدينة	يهود
181	آل عمران م	3	المدينة	يهود
183	آل عمران م	3	المدينة	يهود
46	النساء م	4	المدينة	يهود
51	النساء م	4	المدينة	يهود
18	المائدة م	5	المدينة	يهود
19	المائدة م	5	المدينة	يهود
41	المائدة م	5	المدينة	يهود
64	المائدة م	5	المدينة	يهود
91	الأنعام ك	6	المدينة	يهود
76	البقرة م	2	بنو إسرائيل	يهود
52	آل عمران م	3	بنو إسرائيل	يهود
53	آل عمران م	3	بنو إسرائيل	يهود
54	آل عمران م	3	بنو إسرائيل	يهود
63	المائدة م	5	بنو إسرائيل	يهود
157	النساء م	4	عيسى	يهود
72	المائدة م	5	عيسى	يهود
73	المائدة م	5	عيسى	يهود
110	المائدة م	5	عيسى	يهود

27	مريم ك	19	مريم	يهود
79	البقرة م	2		يهود
94	البقرة م	2		يهود
275	البقرة م	2		يهود
62	النساء م	4		يهود
61	المائدة م	5		يهود
30	التوبة م	9		يهود
40	الإسراء ك	17		يهود
5/ 4	غافر ك	40		يهود
8	المجادلة	58		يهود
4	الحشر	59		يهود
6	الجمعة م	62		يهود

الملحق الثاني: جدول الآيات التي ورد فيها كذب أو تكذيب بحسب ترتيب السور:

رقم السورة	السورة	رقم الآية	المكذب/ الكاذب	القوم
2	البقرة م	116	النصارى واليهود	
2	البقرة م	111	اليهود والنصارى	
2	البقرة م	113	اليهود والنصارى	
2	البقرة م	135	اليهود والنصارى	
2	البقرة م	140	اليهود والنصارى	
2	البقرة م	246	بنو إسرائيل	شمويل
2	البقرة م	247	بنو إسرائيل	شمويل
2	البقرة م	249	بنو إسرائيل	شمويل
2	البقرة م	70	بنو إسرائيل	
2	البقرة م	258	كفار	نمروذ
2	البقرة م	167	كفار	يوم القيامة
2	البقرة م	8	منافقون	
2	البقرة م	11	منافقون	
2	البقرة م	13	منافقون	
2	البقرة م	14	منافقون	
2	البقرة م	80	يهود	المدينة
2	البقرة م	88	يهود	المدينة
2	البقرة م	91	يهود	المدينة
2	البقرة م	118	يهود	المدينة
2	البقرة م	170	يهود	المدينة
2	البقرة م	76	يهود	بنو إسرائيل
2	البقرة م	79	يهود	
2	البقرة م	94	يهود	
2	البقرة م	275	يهود	
3	آل عمران م	154	منافقون	يوم أحد
3	آل عمران م	156	منافقون	يوم أحد
3	آل عمران م	167	منافقون	يوم أحد
3	آل عمران م	168	منافقون	يوم أحد
3	آل عمران م	24	يهود	المدينة
3	آل عمران م	75	يهود	المدينة
3	آل عمران م	78	يهود	المدينة
3	آل عمران م	181	يهود	المدينة
3	آل عمران م	183	يهود	المدينة
3	آل عمران م	52	يهود	بنو إسرائيل

3	آل عمران م	53	يهود	بنو إسرائيل
3	آل عمران م	54	يهود	بنو إسرائيل
4	النساء م	81	منافقون	مكة
4	النساء م	97	منافقون	مكة
4	النساء م	78	منافقون	يوم أحد
4	النساء م	72	منافقون	
4	النساء م	73	منافقون	
4	النساء م	141	منافقون	
4	النساء م	171	نصارى	نجران
4	النساء م	46	يهود	المدينة
4	النساء م	51	يهود	المدينة
4	النساء م	157	يهود	عيسى
4	النساء م	62	يهود	
5	المائدة م	103	كفار	العرب
5	المائدة م	52	منافقون	
5	المائدة م	53	منافقون	
5	المائدة م	17	نصارى	
5	المائدة م	18	يهود	المدينة
5	المائدة م	19	يهود	المدينة
5	المائدة م	41	يهود	المدينة
5	المائدة م	64	يهود	المدينة
5	المائدة م	63	يهود	بنو إسرائيل
5	المائدة م	72	يهود	عيسى
5	المائدة م	73	يهود	عيسى
5	المائدة م	110	يهود	عيسى
5	المائدة م	61	يهود	
6	الأنعام ك	25	كفار	النضر بن الحارث
6	الأنعام ك	7	كفار	قريش
6	الأنعام ك	109	كفار	قريش
6	الأنعام ك	148	كفار	قريش
6	الأنعام ك	157	كفار	قريش
6	الأنعام ك	23	كفار	
6	الأنعام ك	28	كفار	
6	الأنعام ك	29	كفار	
6	الأنعام ك	63	كفار	
6	الأنعام ك	105	كفار	
6	الأنعام ك	124	كفار	

6	الأنعام ك	136	كفار	
6	الأنعام ك	138	كفار	
6	الأنعام ك	139	كفار	
6	الأنعام ك	156	كفار	
6	الأنعام ك	27	كفار	
6	الأنعام ك	93	منافقون	مسيلمه
6	الأنعام ك	91	يهود	المدينه
7	الأعراف ك	12	شيطان	
7	الأعراف ك	20	شيطان	
7	الأعراف ك	21	شيطان	
7	الأعراف ك	189	شيطان	
7	الأعراف ك	109	كفار	رجال فرعون
7	الأعراف ك	127	كفار	رجال فرعون
7	الأعراف ك	134	كفار	رجال فرعون
7	الأعراف ك	123	كفار	فرعون
7	الأعراف ك	88	كفار	قوم شعيب
7	الأعراف ك	90	كفار	قوم شعيب
7	الأعراف ك	60	كفار	قوم نوح
7	الأعراف ك	66	كفار	قوم نوح
7	الأعراف ك	28	كفار	
7	الأعراف ك	49	كفار	
7	الأعراف ك	173	كفار	
7	الأعراف ك	169	نصارى	
8	الأنفال م	31	كفار	قريش
8	الأنفال م	48	كفار	قريش
8	الأنفال م	49	كفار	يوم بدر
8	الأنفال م	21	كفار	
9	التوبة م	42	منافقون	تبوك
9	التوبة م	49	منافقون	جد بن قيس
9	التوبة م	74	منافقون	عبد الله بن أبي
9	التوبة م	56	منافقون	
9	التوبة م	61	منافقون	
9	التوبة م	62	منافقون	
9	التوبة م	65	منافقون	
9	التوبة م	75	منافقون	
9	التوبة م	94	منافقون	
9	التوبة م	95	منافقون	

9	التوبة م	96	منافقون	
9	التوبة م	107	منافقون	
9	التوبة م	124	منافقون	
9	التوبة م	127	منافقون	
9	التوبة م	30	يهود	
10	يونس ك	76	كفار	رجال فرعون
10	يونس ك	90	كفار	فرعون
10	يونس ك	18	كفار	
10	يونس ك	22	كفار	
10	يونس ك	38	كفار	
10	يونس ك	68	كفار	
11	هود ك	62	كفار	ثمود
11	هود ك	13	كفار	قريش
11	هود ك	87	كفار	قوم شعيب
11	هود ك	91	كفار	قوم شعيب
11	هود ك	27	كفار	قوم نوح
11	هود ك	35	كفار	قوم نوح
11	هود ك	54	كفار	قوم نوح
11	هود ك	7	كفار	
12	يوسف ك	11	إخوة يوسف	
12	يوسف ك	12	إخوة يوسف	
12	يوسف ك	17	إخوة يوسف	
12	يوسف ك	63	إخوة يوسف	
12	يوسف ك	65	إخوة يوسف	
12	يوسف ك	73	إخوة يوسف	
12	يوسف ك	77	إخوة يوسف	
12	يوسف ك	81	إخوة يوسف	
12	يوسف ك	95	إخوة يوسف	
12	يوسف ك	25	امراة العزيز	
12	يوسف ك	52	امراة العزيز	
12	يوسف ك	44	عزيز مصر	
12	يوسف ك	70	فتيان يوسف	
12	يوسف ك	31	نسوة يوسف	
13	الرعد ك	5	كفار	
13	الرعد ك	27	كفار	
13	الرعد ك	43	كفار	
14	إبراهيم ك	22	شيطان	

14	إبراهيم ك	9	كفار	عاد وثمود ونوح
14	إبراهيم ك	10	كفار	
14	إبراهيم ك	44	كفار	
15	الحجر ك	33	شيطان	
15	الحجر ك	39	شيطان	
15	الحجر ك	6	كفار	
15	الحجر ك	15	كفار	
16	النحل ك	24	كفار	العرب
16	النحل ك	28	كفار	
16	النحل ك	35	كفار	
16	النحل ك	38	كفار	
16	النحل ك	57	كفار	
16	النحل ك	62	كفار	
16	النحل ك	86	كفار	
16	النحل ك	101	كفار	
16	النحل ك	103	كفار	
16	النحل ك	116	كفار	
17	الإسراء ك	42	كفار	العرب
17	الإسراء ك	47	كفار	العرب
17	الإسراء ك	101	كفار	فرعون
17	الإسراء ك	48	كفار	قريش
17	الإسراء ك	49	كفار	قريش
17	الإسراء ك	94	كفار	قريش
17	الإسراء ك	98	كفار	
17	الإسراء ك	40	يهود	
18	الكهف ك	22	خائفون	
18	الكهف ك	35	كفار	صاحب الجنة
18	الكهف ك	36	كفار	صاحب الجنة
18	الكهف ك	4	كفار	قريش
19	مريم ك	77	كفار	العاص بن وائل
19	مريم ك	73	كفار	
19	مريم ك	88	كفار	
19	مريم ك	91	كفار	
19	مريم ك	66	منافقون	
19	مريم ك	27	يهود	مريم
20	طه ك	87	بنو إسرائيل	موسى
20	طه ك	88	بنو إسرائيل	موسى

20	طه ك	63	سحرة	
20	طه ك	120	شيطان	
20	طه ك	134	كفار	العرب
20	طه ك	57	كفار	فرعون
20	طه ك	71	كفار	فرعون
20	طه ك	103	كفار	يوم القيامة
20	طه ك	104	كفار	
20	طه ك	133	كفار	
21	الأنبياء ك	29	شيطان	
21	الأنبياء ك	53	كفار	إبراهيم
21	الأنبياء ك	59	كفار	إبراهيم
21	الأنبياء ك	63	كفار	إبراهيم
21	الأنبياء ك	36	كفار	أبو جهل
21	الأنبياء ك	3	كفار	
21	الأنبياء ك	5	كفار	
21	الأنبياء ك	26	كفار	
21	الأنبياء ك	38	كفار	
22	الحج ك	42	كفار	
22	الحج ك	68	كفار	
23	المؤمنون ك	36	كفار	ثمود
23	المؤمنون ك	37	كفار	ثمود
23	المؤمنون ك	47	كفار	فرعون
23	المؤمنون ك	33	كفار	قوم صالح
23	المؤمنون ك	34	كفار	قوم صالح
23	المؤمنون ك	38	كفار	قوم صالح
23	المؤمنون ك	24	كفار	قوم نوح
23	المؤمنون ك	25	كفار	قوم نوح
23	المؤمنون ك	100	كفار	يوم القيامة
23	المؤمنون ك	107	كفار	يوم القيامة
23	المؤمنون ك	113	كفار	يوم القيامة
23	المؤمنون ك	70	كفار	
23	المؤمنون ك	82	كفار	
23	المؤمنون ك	83	كفار	
23	المؤمنون ك	90	كفار	
23	المؤمنون ك	91	كفار	
24	النور	47	منافقون	
24	النور	53	منافقون	

25	الفرقان ك	18	المثأله	
25	الفرقان ك	5	كفار	قريش
25	الفرقان ك	4	كفار	
25	الفرقان ك	7	كفار	
25	الفرقان ك	8	كفار	
25	الفرقان ك	41	كفار	
25	الفرقان ك	42	كفار	
26	الشعراء ك	44	سحرة	
26	الشعراء ك	19	كفار	فرعون
26	الشعراء ك	27	كفار	فرعون
26	الشعراء ك	29	كفار	فرعون
26	الشعراء ك	34	كفار	فرعون
26	الشعراء ك	35	كفار	فرعون
26	الشعراء ك	49	كفار	فرعون
26	الشعراء ك	55	كفار	فرعون
26	الشعراء ك	210	كفار	قريش
26	الشعراء ك	185	كفار	قوم شعيب
26	الشعراء ك	186	كفار	قوم شعيب
26	الشعراء ك	153	كفار	قوم صالح
26	الشعراء ك	154	كفار	قوم صالح
26	الشعراء ك	111	كفار	قوم نوح
26	الشعراء ك	137	كفار	قوم نوح
26	الشعراء ك	138	كفار	قوم نوح
26	الشعراء ك	102	كفار	يوم القيامة
27	النمل ك	71	كفار	العرب
27	النمل ك	13	كفار	فرعون
27	النمل ك	14	كفار	فرعون
27	النمل ك	47	كفار	قوم صالح
27	النمل ك	49	كفار	قوم صالح
27	النمل ك	67	كفار	
27	النمل ك	68	كفار	
28	القصص ك	19	بنو إسرائيل	موسى
28	القصص ك	63	شيطان	
28	القصص ك	36	كفار	فرعون
28	القصص ك	38	كفار	فرعون
28	القصص ك	78	كفار	قارون
28	القصص ك	48	كفار	قريش

28	القصص ك	57	كفار	قريش
28	القصص ك	47	كفار	
29	العنكبوت ك	12	كفار	قريش
29	العنكبوت ك	50	كفار	قريش
29	العنكبوت ك	29	كفار	قوم لوط
29	العنكبوت ك	4	كفار	
29	العنكبوت ك	10	منافقون	
30	الروم ك	55	كفار	
30	الروم ك	58	كفار	
32	السجدة ك	3	كفار	
32	السجدة ك	10	كفار	
32	السجدة ك	12	كفار	
32	السجدة ك	28	كفار	
33	الأحزاب	12	منافقون	يوم الخندق
33	الأحزاب	15	منافقون	يوم أحد
33	الأحزاب	13	منافقون	
33	الأحزاب	18	منافقون	
34	سبأ ك	31	كفار	العرب
34	سبأ ك	7	كفار	قريش
34	سبأ ك	52	كفار	يوم القيامة
34	سبأ ك	53	كفار	يوم القيامة
34	سبأ ك	3	كفار	
34	سبأ ك	8	كفار	
34	سبأ ك	29	كفار	
34	سبأ ك	32	كفار	
34	سبأ ك	33	كفار	
34	سبأ ك	35	كفار	
34	سبأ ك	43	كفار	
35	فاطر ك	37	كفار	يوم القيامة
35	فاطر ك	42	كفار	
36	يس ك	78	كفار	أبي بن خلف
36	يس ك	15	كفار	أصحاب القرية
36	يس ك	18	كفار	أصحاب القرية
36	يس ك	30	كفار	
36	يس ك	46	كفار	
36	يس ك	47	كفار	
36	يس ك	48	كفار	

36	يس ك	69	كفار	
37	الصافات ك	29	جن	
37	الصافات ك	30	جن	
37	الصافات ك	32	جن	
37	الصافات ك	15	كفار	قريش
37	الصافات ك	16	كفار	قريش
37	الصافات ك	17	كفار	قريش
37	الصافات ك	36	كفار	قريش
37	الصافات ك	89	كفار	قريش
37	الصافات ك	158	كفار	قريش
37	الصافات ك	168	كفار	قريش
37	الصافات ك	169	كفار	قريش
37	الصافات ك	176	كفار	قريش
37	الصافات ك	149.150.153	كفار	قريش
37	الصافات ك	28	كفار	
37	الصافات ك	52	كفار	
37	الصافات ك	53	كفار	
37	الصافات ك	58	كفار	
37	الصافات ك	152	كفار	
37	الصافات ك	59	كفار	
38	ص ك	22	خصم	
38	ص ك	23	خصم	
38	ص ك	76	شيطان	إبليس
38	ص ك	4	كفار	قريش
38	ص ك	5	كفار	قريش
38	ص ك	7	كفار	قريش
38	ص ك	8	كفار	قريش
38	ص ك	60	كفار	يوم القيامة
38	ص ك	63/ 62	كفار	يوم القيامة
39	الزمر ك	49	كفار	أبي حذيفة
39	الزمر ك	56/ 45	كفار	قريش
39	الزمر ك	57	كفار	يوم القيامة
39	الزمر ك	58	كفار	يوم القيامة
39	الزمر ك	60/ 59	كفار	يوم القيامة
39	الزمر ك	3	كفار	
39	الزمر ك	32	كفار	
40	غافر ك	24	كفار	رجال فرعون

فرعون	كفار	26	غافر ك	40
فرعون	كفار	29	غافر ك	40
فرعون	كفار	37	غافر ك	40
قوم فرعون	كفار	34	غافر ك	40
يوم القيامة	كفار	11	غافر ك	40
يوم القيامة	كفار	74	غافر ك	40
يوم القيامة	كفار	84	غافر ك	40
	يهود	5/ 4	غافر ك	40
عاد	كفار	15	فصلت ك	41
قريش	كفار	5	فصلت ك	41
قريش	كفار	14	فصلت ك	41
قريش	كفار	26	فصلت ك	41
قريش	كفار	44	فصلت ك	41
قريش	كفار	47	فصلت ك	41
	كفار	50	فصلت ك	41
قريش	كفار	24	الشورى ك	42
	كفار	35	الشورى ك	42
رجال فرعون	كفار	49	الزخرف ك	43
رجال فرعون	كفار	50	الزخرف ك	43
فرعون	كفار	51	الزخرف ك	43
فرعون	كفار	52	الزخرف ك	43
فرعون	كفار	53	الزخرف ك	43
قريش	كفار	23	الزخرف ك	43
قريش	كفار	30	الزخرف ك	43
قريش	كفار	31	الزخرف ك	43
قريش	كفار	47	الزخرف ك	43
قريش	كفار	58	الزخرف ك	43
قريش	كفار	81/ 80	الزخرف ك	43
	كفار	7	الزخرف ك	43
	كفار	15	الزخرف ك	43
	كفار	20	الزخرف ك	43
	كفار	22	الزخرف ك	43
	كفار	24	الزخرف ك	43
	منافقون	19	الزخرف ك	43
أبو جهل	كفار	49	الدخان ك	44
قريش	كفار	12	الدخان ك	44
قريش	كفار	35	الدخان ك	44

44	الدخان ك	36	كفار	قريش
44	الدخان ك	14	كفار ومنافقون	
45	الجائية ك	24	كفار	قريش
45	الجائية ك	25	كفار	
45	الجائية ك	32	كفار	
46	الأحقاف ك	22	كفار	عاد
46	الأحقاف ك	24	كفار	عاد
46	الأحقاف ك	7	كفار	قريش
46	الأحقاف ك	8	كفار	قريش
46	الأحقاف ك	11	كفار	قريش
46	الأحقاف ك	26	كفار	قريش
46	الأحقاف ك	17	كفار	
47	محمد	16	منافقون	
47	محمد	30	منافقون	
48	الفتح	11	منافقون	
48	الفتح	12	منافقون	
48	الفتح	15	منافقون	
49	الحجرات	14	أعراب	
50	ق ك	23	جن	
50	ق ك	27	جن	
50	ق ك	2	كفار	قريش
50	ق ك	3	كفار	قريش
51	الذاريات ك	39	كفار	فرعون
51	الذاريات ك	52	كفار	قريش
51	الذاريات ك	53	كفار	
51	الذاريات ك	12	كفار	
52	الطور ك	29	كفار	قريش
52	الطور ك	30	كفار	قريش
52	الطور ك	33	كفار	قريش
52	الطور ك	39	كفار	قريش
52	الطور ك	44	كفار	قريش
52	الطور ك	15	كفار	يوم القيامة
53	النجم ك	21	كفار	
53	النجم ك	27	كفار	
54	القمر ك	2	كفار	قريش
54	القمر ك	44	كفار	قريش
54	القمر ك	25	كفار	قوم ثمود

54	القمر ك	24	كفار	قوم صالح
54	القمر ك	9	كفار	قوم نوح
55	الرحمان ك	13	جن	
56	الواقعة ك	47	كفار	يوم القيامة
56	الواقعة ك	82	كفار	
58	المجادلة	18	منافقون	ابن نبتل
58	المجادلة	14	منافقون	
58	المجادلة	8	يهود	
59	الحشر	11	منافقون	
59	الحشر	16	منافقون	
59	الحشر	4	يهود	
61	الصف ك	14	كفار	الحواريون
61	الصف ك	6	كفار	بنو إسرائيل
62	الجمعة م	6	يهود	
63	المنافقون م	1	منافقون	عبد الله بن أبي
63	المنافقون م	7	منافقون	عبد الله بن أبي
63	المنافقون م	8	منافقون	عبد الله بن أبي
63	المنافقون م	10	منافقون	
64	التغابن ك	6	كفار	
64	التغابن ك	7	كفار	
67	الملك ك	9	كفار	
67	الملك ك	25	كفار	
68	القلم ك	37	كفار	العرب
68	القلم ك	10	كفار	الوليد بن المغيرة
68	القلم ك	11	كفار	الوليد بن المغيرة
68	القلم ك	15	كفار	الوليد بن المغيرة
68	القلم ك	51	كفار	قريش
69	الحاقة ك	41	كفار	
69	الحاقة ك	42	كفار	
71	نوح ك	6	كفار	قوم نوح
71	نوح ك	7	كفار	قوم نوح
71	نوح ك	23	كفار	قوم نوح
72	الجن ك	3	جن	
74	المدثر ك	24	كفار	الوليد بن المغيرة
74	المدثر ك	25	كفار	الوليد بن المغيرة
79	النازعات ك	24	كفار	فرعون
79	النازعات ك	10	كفار	قريش

قريش	كفار	12	النازعات ك	79
	كفار	22	التكوير ك	81
	كفار	24	التكوير ك	81
	كفار	25	التكوير ك	81
	كفار	13	المطففين ك	83
	كفار	32	المطففين ك	83
	كفار	33	المطففين ك	83
	كفار	15	الفجر ك	89
	كفار	16	الفجر ك	89
	كفار	6	البلد ك	90

ÖZGEÇMİŞ

Zakaria Doudach, liseyi Konstantin'de bitirdikten sonra eğitimine Prens Abdelkader İslam Bilimleri Üniversitesi'nde Edebiyat ve İslam Medeniyeti Fakültesi Arap Dili ve Dilbilimi Bölümünde devam etti. 2015 yılında "Kuran Kıssalarındaki Hazfler Üzerine Semantik Bir Çalışma (Müfessir Zemahşerî ve Tâhir b. Âşûr Örneğinde)" isimli tezini başarıyla savunarak yüksek lisans derecesi aldı. Nuhbe Medrese'sine bağlı İslami İlimler Enstitüsü'nde öğretmen olarak çalıştı. Türkiye'deki Dünya Öğrenci Örgütleri Federasyonunda "UDEF" de aktif olarak çalışmakta ve halihazırda Kuzey Afrika Uluslararası Öğrenci Ofisi'nin başkanlık görevini yürütmektedir.

السيرة الذاتية

زكرياء دوداش، بعد التخرج من مرحلة الثانوية بمدينة قسنطينة، تابع تعليمه بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، في كلية الآداب والحضارة الإسلامية، قسم اللغة العربية، تخصص: لغة عربية ولسانيات. تحصل على شهادة الماجستير سنة 2015م، كان عنوان الرسالة: (الحذف في سورة القصص عند المفسرين "الزمخشري والطاهر بن عاشور نموذجاً" دراسة دلالية) عمل في التدريس في معهد الدراسات الإسلامية، التابعة لمدرسة النخبة، نشط في الإتحاد العالمي للمنظمات الطلابية بتركيا "UDEF"، رئيس مكتب الطلبة الدوليين لشمال إفريقيا.

RESUME

Zakaria Doudach, after graduating from high school in Constantine, continued his education at Prince Abdelkader University of Islamic Sciences, in the Faculty of Arts and Islamic Civilization, Department of Arabic Language, specialization: Arabic Language and Linguistics. He obtained a master's degree in 2015, the title of the thesis was: (Deletion in Surat Al-Qasas according to the commentators "Al-Zamakhshari and Al-Taher bin Ashour as a model" a semantic study) He worked as a teacher at the Institute of Islamic Studies, affiliated to the Elite School, active in the World Federation of Student Organizations in Turkey "UDEF", President of the International Student Office for North Africa.